

جـامعــة مــؤتة

عمادة الدراســات العليا

ديوان الرسائل في العصر العباسي الأول ونشاطه الأدبي

إعداد الطالبة

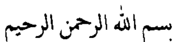
نعمات عوض الطراونة

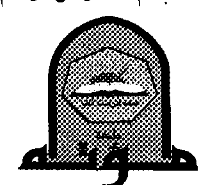
إشراف

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

رسالـــة مقـدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
فـي الـلغة العـربية قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2008





MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة نعمات عوض الطراونة الموسومة بـــ:

ديوان الرسائل في العصر العباسي الأول ونشاطه الأدبي

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. سمير محمود الدروبي		2008/05/19	مشرفاً ورئيسا
أ.د. أنور عليان أبو سويلم		2008/05/19	عضواً
أ.د. ماجد ياسين الجعافرة		2008/05/19	عضواً
د. فايز عبدالنبي القيسي		2008/05/19	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. حسام الدين المبيضين



MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

أقدّم هذا العمل خالصاً لوجه الله تعالى، ومن ثمّ أقدّمه إلى تلك الرّوح التي فارقتني وأنا أضع قدميّ على أعتاب الحياة، تلك الرّوح التي غرست فيّ حبّ العلم وطلبه، إلى روح والدي –رحمه الله–.

إلى والدتي حفظها الله ورعاها.

إلى أستاذي وأخي الذي شجعني دائماً، ودفعني إلى المضي قُدماً الأستاذ الدكتور سمير الدروبي.

نعمات عوض الطراونة

الشّكر والتقدير

أتقدّم بجزيل الشّكر وعظيم الامتنان لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور سمير الدروبي لما قدّمه لي من عناية وتوجيه، فلم يبخل عليّ بعلمه وتوجيهه ووقته، كما أتقدّم بجزيل الشّكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدّكتور ماجد الجعافرة على تجشمه عناء السّفر لمناقشة هذا العمل، وأتقدّم بعظيم الشّكر والامتنان لأستاذيّ الأستاذ الدّكتور أنور أبو سويلم والدّكتور فايز القيسي على قبولهما مناقشة هذا العمل.

نعمات عوض الطراونة

فهرس المحتويات

الملخص

ديوان الرّسائل في العصر العبّاسي الأوّل

نعمات عوض الطراونه

جامعة مؤتة 2008م

هدفت هذه الدّراسة إلى التّعرّف على ديوان الرّسائل في العصر العبّاسيّ الأوّل من حيث النّشأة والتّنظيم، والثّقافة التي ينبغي أن يكون عليها كاتب الرّسائل في هذا الدّيوان، وبيّنت المؤثّرات الأجنبيّة التي انعكست آثارها في ثقافة الكُتّاب من ثقافة فارسيّة ويونانيّة وهنديّة، وأيّ الثّقافات أكثر تأثيراً، وألقت الضّوء على أهمّ المكاتبات الرّسمية وما تتسم به من خصائص فنيّة.

Abstract

"Dewan of letters in the first Abbasid era"

Ne'mat Awad Al-Tarawneh

Mu'tah University 2008

This study aimed at recognizing the dewan of letters in the first abbasid era concerning its establishment , organization and culture which should be with the write of letters in Al.Dewan and it showed the foreign effects which effected the writer's cultural background as the persian culture , the Greek and the Indian cultures then it showed which of the these cultures has the most influence.

It also shed light on the most important libraries and their technical characteristics

المقدّمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والحمد لله ربّ العالمين، حمد الشّاكرين على نعمه وآلائه، وصلواته على أشرف الخلق، وخاتم الرّسل محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، وعلى آله وأصحابه الطّيبين الطّاهرين.

وبعد، فقد قام ديوان الرّسائل بدور مهمّ في إدارة الدّولة الإسلاميّة في مختلف عصورها، إذ أدّت زيادة المكاتبات الإداريّة والحاجة إلى تنظيمها إلى إسناد مهمّتها إلى ديوان خاصّ بها سمّي "ديوان الرّسائل"، عن هذا الدّيوان كانت تصدر المكاتبات الرّسميّة المختلفة من مراسلات ومراسيم وتعيينات ووصايا وأوامر إداريّة وغيرها، وقد مرّ هذا الدّيوان بمراحل متعدّدة حتّى استقرّ على تلك الصّورة التي وصل إليها في العصر العبّاسي الأول.

وتأتي أهميّة هذه الدّراسة في البحث عن نشأة هذا الدّيوان وتنظيمه والعوامل التي أدّت إلى تطوّره في هذا العصر، وما يقوم به من مهام، الأمر الذي ترتّب عليه أن يحظى كاتب الرّسائل بمكانة متميّزة ومنزلة رفيعة.

ولقد أقبلت على هذه الدّراسة؛ لأنّ ديوان الرّسائل في العصر العبّاسي الأوّل لم يحظ بدراسة واحدة اختصّت به، وإنّما كلّ ما كُتب عن نشأته وتنظيمه والتّشكيلات التي يتكوّن منها، لا يعدو أن يكون وقفات سريعة وملاحظات عابرة، وقد اخترت هذه الفترة؛ لأنّ ديوان الرّسائل قد بدأ في التطوّر في هذا العصر.

ومن الدّراسات التي تناولت نشأته وتنظيمه كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي، وشوقي ضيف في: "العصر العباسي الأوّل"، و"الفن ومذاهبه"، وكتاب "نشأة الكتابة الفنيّة في الأدب العربي" لحسين نصار، و"محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة" للسيّد عبد العزيز سالم، و "الرسائل الفنية في العصر العباسي الأوّل" لمحمد الدروبي، وتعد هذه الدراسة من أهم الدراسات التي اعتمدت عليها، كما تناول ابن الصّيرفي في كتابه "القانون في ديوان الرّسائل" فئات الكُتّاب الذين يعملون في هذا الدّيوان، وبيّن مجموعة من الكُتّاب الثّقافة التي ينبغي أن يكون عليها الكاتب في ديوان الرّسائل، ومنهم: عبد الحميد الكاتب في رسالته المشهورة، وابن قتيبة في

كتابه "أدب الكاتب"، وابن المدبر في "الرّسالة العذراء"، والعسكري في "الصّناعتين"، وغيرهم.

وقد قسّمت الدّراسة على النّحو الآتي:

الفصل الأوّل: تناولت فيه نشأة ديوان الرّسائل وتنظيمه، وقد تتبّعت نشأة هذا الدّيوان منذ عهد الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، وحتى العصر العبّاسي، وما الأعمال التي تُناط به، والتّشكيلات التي يتكوّن منها، والتي تشتمل على مجموعة من الكُتّاب لكلّ كاتب منهم عمله الخاصّ به، ينضاف إليهم الحاجب والخازن.

الفصل الثّاني: ومضيت فيه أتناول ثقافة الكاتب في ديوان الرّسائل، والعوامل التي دفعت الكاتب إلى الإلمام بثقافة واسعة، وأهم هذه العوامل أهميّة وظيفة الكاتب التي يمكن أن ترتقي بصاحبها إلى أن يشغل أحد المناصب العليا في الدّولة كالوزارة أو الولاية، هذا الأمر دفع بعض الكُتّاب وضع الكتب التي تبيّن أنواع المعارف التي يحتاج إليها الكاتب من حفظ لكتاب الله العزيز، ومعرفة باللغة العربيّة، وحفظ للشعر والخطب والأمثال، ومعرفة بالأنساب والأيّام والوقائع، وغيرها.

الفصل الثّالث: بيّنت فيه أهم المؤثّرات الأجنبيّة في ديوان الرّسائل، وتُعدّ الثقافة الفارسيّة واليونانيّة والهنديّة أهم الثّقافات السّائدة آنذاك.

الفصل الرّابع: وهو أطول فصول الرّسالة، ولعلّ الأمر الذي أدّى إلى ذلك هو طبيعة الموضوع الذي تناولته في هذا الفصل والذي يتمثّل في أنواع المكاتبات الرّسميّة الصّادرة عن ديوان الرّسائل، وقد اقتصرت على الرّسميّة فقط سواء أكانت المكاتبات الرّسميّة الدّاخلية الموجّهة إلى الرّعيّة من منشورات وبشارات وتوقيعات وأمانات ومعاهدات، ورسائل تعيين وعزل، أم خارجيّة تمثّلت في مكاتبات التّهديد والوعيد، ومكاتبات طلب الهدنة والصّلح، ومكاتبات التّبليغ والدّعوة، وطلب الجزية، وتلك المكاتبات التي كانت تتم في حالات السّلم.

الفصل الخامس: تناولت فيه الخصائص الفنيّة للمكاتبات الرّسميّة، وتشمل عناصر الشّكل والمضمون والظّواهر الأسلوبيّة.

وفي الختام فإنّني أرجو أن أكون قد وفّقت في تحقيق ما أردت، وأســـأل الله أن يرزقنا أجر هذا العمل المتواضع، وأن يغفر لنا الخطأ والزّلل، إنّه نعم المولى ونعم النّصير.

الفصل الأوّل

النَّشأة والتَّنظيم

يُعدّ ديوان الرّسائل من أهمِّ الدَّواوين في الدَّولة العربيّة في جميع مراحلهـــا. وقد اختلفت الآراء حول نشأة هذا الديوان، فبينما يقرر القلقشنديّ أنَّـــه أوّل ديـــوان وُضِعَ في الإسلام بقوله: "اعلم أنّ هذا الدّيوان أوّل ديوان وُضع في الإسلام؛ وذلك أنّ النّبيّ، صلّى الله علية وسلّم، كان يُكاتب أمراءَه، وأصحاب سَرَاياه من الصحابة، رضوان الله عليهم ويكاتبونه. وكتب إلى من قَرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلـــى الإسلام، وبعث إليهم رُسله بكتبه..." (1). يرى حسين نصار أنّ المكاتبات الصـــادرة في عهد الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم والصّحابة لا تـــلازم بينهـــا وبـــين ديـــوان الإنشاء، إذ قد توجد هذه، ولا يوجد هذا الديوان الذي يتألّف مـــن كُتّـــاب مُتَـــروِّين مُحَبِّرين مُتَجمّلين، مُتأنقين مُتفننين، ولم يوجد في عهد الرّســـول، صـــلّى الله عليـــه وسلّم، مثل هذا الصّنف من الكُتّاب الذين يخلون بأنفسهم، ويكتبون من عندهم، وإنّما وُجد كُتّاب تُمْلَى عليهم كتبهم، فيكتبون ما كان يُمْلي الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم.

ويقول أيضاً إنّ القلقشنديّ بالغ في هذا الادّعاء، مبالغته التي نراها في ادّعائه بأنّ ديوان الجيش والدّواوين الأخرى وُضعت في عهد الرّسول، صـــلّى الله عليـــه وسلّم أيضاً، ولكنها لم تكن في شهرة ديوان الرّسائل(2)، وخاصّة أنّ مَن قبلـــه لـــم يذكروا وجود هذا الديوان في العهد النّبويّ، ولذلك لا يمكننا تصديق هذا الخبر، بل نقول إنّ هذا الدّيوان لم يُوجد حتى في عهد الخلفاء الرّاشدين أنفسهم، وكلّ ما يمكن قوله هو وجود الأساس الذي سيُشَيَّد عليه فيما بعد ديوان الرّسائل(3).

---

(1) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(821هـ/1418م)، صبح الأعشـــى فـــي صـــناعة الإنشا، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية ومذيلة بتصـــوييات واســـتدراكات وفهـــارس تفصيلية مع دراسة وافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسســـة المصـــرية العامـــة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستاتسوماس وشركاه، القاهرة: 91/1.

(2) المصدر نفسه: 91/1.

(3) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربـــي، ط2، مكتبـــة النهضـــة المصـــرية، القاهرة، 1966م: 48.

ويرى أنّ كتابة الرّسائل في عهد النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، والخلفاء الرّاشدين كانت ناشئة مبتدئة، وليست لها تقاليد مرسومة أو قواعد محكمة، ولكنّ الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، كان يُملي ما يخطر على باله دون تروٍّ أو نظر، ولذلك كانت لغته بسيطة خالصة صريحة لا ترتفع في شيء عن لغة الحديث، إذ تقصد اللغتان إلى مجرّد الإفهام. وقد سار الخلفاء على نهجه اتّباعاً دينياً لا أدبيّاً[(1)].

ويمكن القول إنّ هناك إشارات واضحة تبيّن وجود كُتّاب لدى رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقد ورد عن الواقدي عن أشياخه قال: أوّل مَن كتب لرسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، مَقْدَمَه المدينة، أُبَيٌّ بن كعب، وهو أوّل من كتب في آخر الكتاب: "وكتب فلان"، وكان أُبيّ إذا لم يحضر دعا رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، زيد بن ثابت فكتب، وكان أُبيّ وزيد بن ثابت يكتبان الوحي بين يديه، صلّى الله عليه وسلّم، ويكتبان كتبه إلى النّاس، وما يُقْطِع، وغير ذلك[(2)].

وورد أيضاً أنّ عبد الله بن الأرقم الزّهري كان من المواظبين على كتابة الرّسائل[(3)]، وذكر عن ابن إسحق أنّه قال: كان زيد بن ثابت يكتب الوحي، ويكتب إلى الملوك أيضاً، وكان إذا غاب عبد الله بن الأرقم وزيد بن ثابت واحتاج أن يكتب إلى بعض أمراء الأجناد والملوك أو إلى إنسان بقطيعة، أمر مَن حضر أن يكتب له[(4)].

ومن الأدلّة الأخرى على أنّ هؤلاء الكُتّاب لم يكن الرّسول، صلّى الله عليه

---

(1) نصار، نشأة الكتابة الفنية: 59.

(2) ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت463هـ/1070م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، قدم له وقرظه: محمد عبد المنعم البري وجمعة طاهر النجار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م: 164/1.

(3) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 3/3.

(4) المصدر نفسه: 3/3؛ الخزاعي، علي بن محمد ابن سعود، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م: 181.

وسلّم، يُملي عليهم، إنّما كانوا يكتبون من عند أنفسهم أنّ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، استكتب عبد الله بن الأرقم فكان يُجيب عنه، وبلغ من أمانته عنده أنّه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك، فيكتب، ويأمره أن يُطيّنه ويختمه وما يقرأه لأمانته عنده[1]. كما أنّه كان إذا ورد على رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، كتاب، قال: مَنْ يُجيب عنّي؟ فقال عبد الله بن الأرقم: أنا، فأجاب عنه، وأتى به إليه فأعجبه وأنفذه[2]. وفي مثل هذه الأقوال إشارات واضحة على أنّ هناك كُتّاب متروّين يكتبون ما يريده رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، دون أن ترد أيّة إشارة إلى أنّ الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، كان يُملي عليهم ما يريد، بل كانوا يكتبون بأنفسهم ويرسلون الرّسائل إلى أصحابها دون نظر الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، إليها، أو أن يقرأوا ما يكتبون على رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم.

وقد ورد أيضاً أنّه كان لرسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، كُتّاب يكتبون عنه في موضوعات متخصصة، فقد كتب أبو بكر الصّدّيق –رضي الله عنه– أماناً لسراقة بن مالك[3]، وأنّ علياً كان الكاتب لعهوده، صلّى الله عليه وسلّم، إذا عهد، وصلحه إذا صالح[4]، فقد كتب لرسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، عهده مع قريش عندما جاء، صلّى الله عليه وسلّم، معتمراً، وأراد أن يستأذن أهل مكّة ليدخلها، فاشترطوا عليه ألاّ يُقيم بها إلاّ ثلاث ليالٍ، ولا يدخلها إلاّ بجُلبان[5] السِّلاح، ولا يدعو منهم أحداً[6]، وكتب أيضاً شروط صلح الحديبية[7].

---

(1) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 3/3؛ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية: 184.

(2) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 3/3؛ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية: 184.

(3) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية: 186.

(4) المرجع نفسه: 185.

(5) بُجلُبّان السّلاح: السّيف والقوس ونحوهما. (ابن منظور، لسان العرب: جلب).

(6) البخاري، صحيح البخاري: 11/9–11.

(7) البخاري، صحيح البخاري: 11/8.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أمر رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم كُتّابه تعلّم اللغات الأخرى كالفارسيّة والرّوميّة والقبطيّة والحبشيّة، فقد طلب إلى زيد بن ثابت الأنصاريّ الذي كان يكتب للملوك ويُجيب بحضرته، صلّى الله عليه وسلّم، أن يتعلّم السّريانيّة، وقد تعلّمها في بضعة عشر يوماً[1]، كما تعلّم كتاب يهود في نصف شهر، حيث كان يكتب كتب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأ له كتبهم[2].

وفي حديثه عن الكتابة في عهد الخلفاء الرّاشدين فإنّه يرى أنها لم تكن تختلف عنها في عهد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقول: "لا يتغيّر الحال كثيراً حين نأخذ في عرض تاريخ الكتابة في عهد أبي بكر الصّدّيق، فالكُتّاب هم الكُتّاب، والكتب نفس الكتب، والأسلوب هو بعينه أسلوب الكتابة في عصر النّبيّ"[3]، وقد اعتمد في رأيه هذا على ما أورده الجهشياري من: "أنّ عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وحنظلة بن الرّبيع كتبوا لأبي بكر، وما أشكّ كثيراً في أنّ الأحياء من كُتّاب النبيّ، قد كتبوا أيضاً لأبي بكر، أو تراسلوا معه في الأحداث الإسلاميّة الجديدة"[4].

وفي عهد عمر يقول: "وجدنا الطّريقة لم تكد تتغيّر، والإملاء لا يزال موجوداً"[5]، وعلى الرّغم من ذلك فإنّه يرى في موقف عمر بن الخطّاب مع زياد بن أبيه عندما دعاه وقال له: ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به، فكتب إليه كتاباً، ودفعه إلى عمر. فنظر فيه ثمّ قال: أعِدْ. فكتب غيره. فقال له: أعِدْ. فكتب

---

(1) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 112/2؛ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية: 218.

(2) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية: 218و219.

(3) نصار، نشأة الكتابة الفنية: 48.

(4) الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت331هـ/947م)، الوزراء والكُتّاب، حققه ووضع فهارسه: مصطفى السقا وآخرون، ط2، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1401هـ/1980م: 15.

(5) نصار، نشأة الكتابة الفنية: 50.

الثّالث. فقال عمر: لقد بلغ ما أردتُ في الأوّل، ولكنّني ظننت أنّه قد روّى فيه، ثــمّ بلغ في الثّاني ما أردت فكرهت أن أعلّمه ذاك، وأردت أن أضع منه، لئــلا يدخلــه العجب فيهلك"[1]. دليلاً على أنّ الكاتب كان يُطلب منه أن يكتب بعض رسائله بنفسه دون إملاء، وأنّ الكاتب بدأ يكتب بمفرده، بل بدأ يتروّى أيضاً فــي زمــن مبكّــر جدّاً[2]. أمّا الكتابة في عهد عثمان فإنّه يراها تسير نحو التّرويّ والتّجمّــل[3]، وفــي عهد علي يرى أنّ الكتابة بدأ يطرأ عليها بعض التّطوّر[4]. ويمكن القول إنّ الكُتّاب الذين كتبوا لرسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا يكتبون في موضوعات شــتّى من عند أنفسهم، هم الكُتّاب الذين كتبوا للخلفاء الرّاشدين، وبالتّالي لا بدّ أن يكونوا قد اتّبعوا النّهج نفسه في كتابة الرّسائل، وفي مثل هذا دلالة على وجود ديوان للرّسائل في عهد مبكّر، وإن لم يُوجد مسمّى الدّيوان.

ويعيد نصار بداية نشأة ديوان الرّسائل إلى العصر الأمويّ حيث يجد بعــض الإشارات الصّريحة التي تدلّ على وجود هذا الديوان، منها مــا ورد فــي وصــف الجهشياري عبيد الله بن أوس بأنّه: "كان يكتب لمعاوية على الرّســائل"[5]، ويقــول أيضاً عن زياد بن أبيه: "ويكتب له على الرّسائل عبد الله بن أبي بكرة وجُبيــر بــن حيّة"[6]، فقد اتّخذ عبارة: "وكان يكتب لفلان"، دليلاً على أنّ المقصود بهــا ديــوان الرّسائل إذ إنّ هذه العبارة بقيت مستخدمة حتى بعد إنشاء ديوان الرّسائل[7]، ويؤيّــد ذلك أنّ لفظ "على" يرتبط عند الجهشياري في أغلب الأحيان بلفظ: "ديوان"[8].

ويرى نصّار أن معاوية بن أبي سفيان(60هـ/680م) هو الذي أنشأ ديوان

(1) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 16.
(2) نصار، نشأة الكتابة الفنية: 50و51.
(3) المرجع نفسه: 54.
(4) المرجع نفسه: 58.
(5) المرجع نفسه: 60.
(6) المرجع نفسه: 67.
(7) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 35؛ نصار، نشأة الكتابة الفنية: 67.
(8) نصار، نشأة الكتابة الفنية: 67.

الرّسائل فيما أنشأ من دواوين نتيجة لتأثّره بنظم الدّواوين الفارسيّة، محاكياً بذلك الدّواوين السّاسانيّة[1]، وقد اعتمد في رأيه هذا على عبارة الجهشياري التي يُصرّح فيها تصريحاً واضحاً لا غموض فيه بوجود ديوان الرّسائل في عهد عبد الملك: "وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرّسائل أبو الزّعيزعة مولاه"[1]، ويصرّح أيضاً بأنّ سليمان بن سعد الخُشني(نحو 150هـ/نحو 723م) كان يتقلّد لعبد الملك ديوان الرّسائل[3]، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يصرّح الجهشياري بوجود ديوان للرّسائل لدى الولاة، من أمثال الحجاج(95هـ/714م)[4]، ويزيد بن المهلّب(102هـ/720م)[5]، وتطوّر ديوان الرّسائل سريعاً حتى انتشر في الولايات المختلفة مثل: العراق[6]، وخُراسان[7] في عهد عبد الملك بن مروان، وكان عربيّ النّشأة، وليس بالفارسيّ ولا باليونانيّ، كما كانت الرّسائل تُكتب بالعربيّة التي يطلب فيها الخلفاء الفصاحة والإجادة اللتين لم تتوفّرا للأعاجم في ذلك الوقت[8].

وقد تطوّر هذا الدّيوان تطوّراً كبيراً، وازداد الاهتمام به؛ لأنّه يتولى مهمّة خطيرة هي: الإشراف على تحرير رسائل الخليفة ومكاتباته ومواثيقه وعهوده وأوامره إلى الولايات الإسلاميّة والبلدان الخارجيّة، والرّسائل القادمة إلى عاصمة

---

(1) انظر: ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط10، دار المعارف، القاهرة، د.ت:99؛ سالم، السيد عبد العزيز، محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000: 68؛ الناطور، شحادة وأحمد العودات وجميل بيضون، الخلافة الإسلامية حتى القرن الرّابع الهجري، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، 1410هـ/1990م: 204.

(2) الجهشياري، الوزراء والكُتّاب: 35.

(3) المصدر نفسه: 40.

(4) المصدر نفسه: 42.

(5) المصدر نفسه: 41.

(6) المصدر نفسه: 42.

(7) المصدر نفسه: 63.

(8) نصار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي: 67و68.

الخلافة [1].

واهتمّ العباسيّون به منذ بداية عهدهم، حيث أنشأ أبو مسلم الخُراسانيّ ديوانـــاً للرّسائل في خُراسان وعهد به لأسلم بن صُبيح، وأفرد له المنصور مكاناً عند بنائه بغداد بالقرب من قصره، وأسنده إلى أبّان بن صدقة(ت167هــ/783م)، واهتمّ بـــه الخليفة المهدي وكان أوّل من فصل بين مكاتبات الدّولة ومكاتبات الخلافة الخاصّة، فجعل لرسائله كاتباً خاصّاً[2]، وربّما أشرف عليها الوزراء إشرافاً مباشراً"[3]، وظلّ الاهتمام به واضحاً حتى عهد الخليفة الواثق فكان يتولاّه الوزير محمد بن عبد الملك الزّيات(ت233هــ/847م)[4]، وقد تألّق كأقوى ما يكون في عهد الرّشيد والمأمون.

وبلغ من عناية العباسيين به أنّه كان يُضاف أحياناً إلى الـــوزراء، فيشـــرف الوزير على تصريف أموره، ولمّا ازدادت أعباء الدّيوان من جهة، وازدادت أعباء الوزير من جهة أخرى، كان الدّيوان ينفصل عن إشراف الوزير المباشر لينفرد بـــه رئيس خاصّ يعتمد على ما يرد إليه من ديوان الوزارة، وذكر الجهشياري أنّه حدث أن فصل أحد الوزراء فاقتصر به على ديوان الرّسائل، ثمّ انتهى الأمر بأن أصبـــح

---

(1) انظر: قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق: محمد حســين الزبيــدي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981: 37؛ الباشا، حسن، دراسات في الحضارة الإسلامية، مطبعة جامعة القـاهرة والكتــاب الجــامعي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992: 60.

(2) الجهشياري، الــوزراء والكتــاب: ؛اليعقــوبي، أحمــد بــن أبــي يعقــوب بــن واضــح الكاتــب(ت284هـــ/897م)، البلــدان، ط1، دار إحيــاء التــراث العربــي، بيــروت، 1408هــ/1988م: 13؛ ابن الأثير، محمد بن محمد، الكامل فــي التــاريخ، دار صــادر، بيروت، 1402هــ/1982م: 369/5؛ عبد الفتاح، صفاء، نظم الحكم في الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويــه بغــداد، دار الفكــر العربــي، القــاهرة، 1406هــ/1985م: 114.

(3) سالم، محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية: 69.

(4) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير(ت310هــ/922م)، تاريخ الأمم والملــوك، تحقيــق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة عن طبعة دار المعارف المصرية، دار التراث العربــي، بيروت: 9/ 153و154.

من القواعد المقررة أن يستقلّ بالإشراف على هذا الدّيوان رئيس خاصّ يتبع الوزير، وكان عالي الرّتبة، عليماً بالكتابة وفنون الإنشاء[1].

وذكر العمري ذلك قائلاً: "كانت كتابة الإنشاء في المشرق في خلافة بني العبّاس منوطة بالوزراء، وربما انفرد بها رجل، واستقلّ بها كُتّاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة"[2]. ونفهم من هذا القول إنّ كاتب الرّسائل أصبح أقلّ مرتبة من الوزير.

وكان يُطلق على من يتولى مهمّة الكتابة في ديوان الرّسائل: "كاتب الإنشاء"، ثمّ لمّا كثر عددهم سُمّي رئيسهم "رئيس ديوان الإنشاء"، ثمّ بقي يُطلق عليه تارة "صاحب ديوان الإنشاء" وتارة "كاتب السرّ"[3].

ويقول القلقشندي: إنّ بني أُميّة كانوا يعبّرون عنه بالكاتب، ولمّا جاءت الدولة العبّاسيّة وأضيف إلى الوزارة ترك اسم الكاتب، واستقرّ لقب الوزير، وعندما انفرد عن الوزارة لُقِّب متوليه بما يتضمن إضافته إلى صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان في ذلك الزّمن.

فحيث كان الدّيوان مشهوراً بديوان الرّسائل، لقِّب متوليه بـ "صاحب ديوان الرّسائل"، أو "متولي ديوان الرّسائل"، وربّما قيل: "صاحب ديوان المكاتبات"، أو "متولي ديوان المكاتبات"؛ وحيث كان مشهوراً بديوان الإنشاء لُقِّب متوليه بـ: "صاحب ديوان الإنشاء"، وربّما جمعوا لفظ الدّيوان تعظيماً لمتوليه، فقالوا: "صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلاميّة"[4].

---

(1) الجهشياري، الوزراء والكتّاب: 141

(2) ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، (ت749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق: نعمات الطراونة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 2004: 52/1، انظر أيضاً: القلقشندي، صبح الأعشى: 93/1؛

(3) المصدر نفسه: 53/1؛ زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، طبعة جديدة، راجعها وعلّق عليها: حسين مؤنس، مؤسسة دار الهلال، 1968م: 253/1.

(4) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 103/1؛ ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ/1405م)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1942م: 140/1.

وقد كان صاحب هذا الدّيوان يتغيّر أو يُستبدل بتغيّر الوزير[1]، وغالباً ما يتمّ تعيينه وعزله من قبل الخليفة، ففي سنة سبع وستين ومائة قام المهدي بعزل أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله(ت170هـ/787م) عن ديوان الرّسائل وولاه الفضل ابن الرّبيع(ت169هـ/786م)[2]، وعندما توفي أبّان بن صدقة سنة سبع وستين ومائة وضع المهدي مكانه أبا خالد الأحول[3].

وقد خصّصت الدّولة رواتب شهريّة للكُتّاب قُدِّرت في زمن المنصور بثلاثمائة درهم، وبقيت كذلك حتى خلافة المأمون الذي رفعها إلى ثلاثة آلاف درهم[4]، ويشير الصّابي إلى أنّ راتب كلّ من الكُتّاب الذين كان يحتاج إليهم لتصريف أمور الدّيوان عشرة دنانير في الشّهر[5]، وقال المقريزي : "وكان جاريه- كاتب الإنشاء- مائة وعشرين ديناراً في الشّهر"[6]. وفي ترجمة ياقوت الحموي للكاتب أحمد بن علي بن خيران(ت431هـ/1040م) يذكر أنّه كان "صاحب ديوان الإنشاء... وكان رزقه في كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار، وله عن كلّ ما يكتبه من

---

(1) ابن مسكويه، أحمد بن علي(ت421هـ)، تجارب الأمم، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة: 404/5؛ حتاملة، عبد الكريم، البنية الإدارية للدولة العباسية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ط1، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 1406هـ/1985م: 89.

(2) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 151و152؛ ابن الأثير، الكامل: 75/6.

(3) ابن الأثير، الكامل: 76/6.

(4) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 126؛ الهاشمي، رحيم كاظم وعواطف محمد العربي شنقارو، الحضارة العربية الإسلامية، دراسة في تاريخ النظم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، المكتبة الجامعية، غريان، ليبيا: 22.

(5) الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1958م: 239؛ حتاملة، البنية الإدارية للدولة العباسية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي: 89.

(6) المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي(ت845هـ/1441م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، طبعة جديدة بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد، بلا تاريخ:402/1.

السّجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفيها عن كلّ شيء يحسبه"[1].

وغالباً ما كان الكاتب يتعرّض للأذى أو المصادرة[2]، حيث يقوم الخليفة بقتله أو معاقبته، فقد عيّن المنصور لابنه جعفر كاتباً يسمّى الفضيل بن عمران، وكان رجلاً عفيفاً ديّناً، فدُسّ له عند المنصور لأسباب سياسيّة بأنّه يعبث بجعفر، فأمر المنصور بقتله من غير سؤال[3]، وعندما غضب المنصور على كاتبه أبي أيّوب المورياني(ت154هـ/771م) سجنه وسجن أخاه خالداً وبني أخيه الأربعة، وطالبهم بالأموال الكثيرة[4]، وتعرّض أبّان بن بشير الكاتب للضرب بالسياط حتى القتل من قبل صاحب الشرطة المسيب بن زهير(ت175هـ/791م)؛ لأنّه كان شريك أخيه عمرو بن زهير في ولاية الكوفة[5].

أمّا عمل كاتب الإنشاء[6]، فهو إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرّسائل السّياسيّة وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرّسائل الرّسميّة ووضعها في الصّيغة النّهائيّة وختمها بخاتمه، كما كان يجلس مع الخليفة في مجلس

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م:380/1؛ متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، أعدّ فهارسه: رفعت البدراوي، ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، مج150/1.

(2) المسعودي، أبو الحسن عليّ بن الحسين(ت346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، بلا تاريخ: 276/4.

(3) أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت: 43/2.

(4) كنعان، محمد بن أحمد، تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك "خلاصة تاريخ ابن كثير"، ط1، مؤسسة المعارف، بيروت، 1419هـ/1998م: ق53/1.

(5) ابن الأثير، الكامل: 34/6.

(6) انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بلا تاريخ: 247؛ عبد الباقي، أحمد، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991م: 19؛ الفقي، عصام الدين، الدولة العبّاسية، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1987م: 100؛ الصالح، صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط8، دار العلم للملايين، بيوت، 1990م:304

القضاء للنظر في المظالم، وختم الأحكام بخاتم الخليفة، وكان كاتب الرّسائل يتــولّى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة، وأوّل مَن وقّع على الرّقاع والقصص بين يديّ الخليفة، جعفر بن يحيى البرمكي(ت187هـ/803م)، لمّا أطلق الرّشيد يده في أمور الدّولة ومقاليدها، ثمّ تتابع الوزراء من بعده على ذلك، وقد يوقّع السّلطان بنفسه على هذه الرّقاع إذا كان مُستبدّاً بأمره، قائماً على نفسه، فقد أُثر عن أبي جعفر المنصور أنّه لمّا جاءه كتاب محمد النفس الزّكيّة همّ كاتبه أن يُجيبه فقال له المنصور: لا! بل أنا أُجيبه إذا تقارعنا على الأحساب فدعني وإيّاه[1].

وكان صاحب ديوان الرّسائل ذا مكانة كبيرة عند السّلاطين، ويعدّ من أبــرز موظفي الدّولة، قال عنه القلقشندي: "له أرفع محل، وأشرف قدر، يكاد أن لا يكــون عند الملك أخصّ منه ولا ألزم لمجالسته، ولم يزل صاحب هذا الدّيوان معظّماً عنــد الملوك في كلّ زمن، مقدّماً لديهم على من عداه: يُلقون إليه أســرارهم، ويخصّــونه بخفايا أمورهم، ويطلعونه على ما لم يطّلع عليه أخصّ الأخصّــاء: مــن الــوزراء والأهل والولد"[2].

ويحتلّ كاتب الرّسائل مكانة رفيعة عند السّلاطين، لذلك كان لا بُــدّ مــن أن يُتخيّر من "أرفع طبقات النّاس، وأهل المروءة والحشــمة مــنهم، وزيــادة العلــم، وعارضة البلاغة، فإنّه معرّضٌ للنظر في أصول العلم لما يعــرض فــي مجــالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام علــى الآداب والتّخلّق بالفضائل مع ما يُضطر إليه في التّرسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"[3].

---

(1) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتمــاعي، دار الأنــدلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1964م: 264/2؛ زيــدان، تــاريخ التمــدن الإســلامي: 253/1؛ شلبي، أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ط3، مكتبــة وهبــة، مطبعة الاستقلال الكبرى، 1383هـ/1964م: 105.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 101.

(3) ابن خلدون، المقدمة: 247؛ الشامي، أحمد، الدولة الإسلامية في العصر العباســي الأول، دار الإصلاح، السعودية، 1404هـ/1983م: 174.

وبلغ من مكانته أنّ السّلطان لا يستطيع الاستغناء عنه، فهو يستشيره في أمور الدّولة، ويطلعه على أسرارها؛ لأنّه يثق به دون غيره، كما أنّه يلازم السّلطان جميع ساعات ليله ونهاره، وقد أشار صاحب مواد البيان إلى ذلك قائلاً: "ليس في منزلة خدم السّلطان والمتصرّفين في مهمّاته أخصُّ من كاتب الرّسائل، فإنّه أوّل داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره، وأوقات ظهوره للعامّة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمّات مملكته، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصّته ثقته به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه..."[1].

وقد حرص العباسيّون على أن يكون القائم على هذا الدّيوان من أهل الخليفة ومن عظماء قبيله؛ لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم[2]، محاولة منهم للحفاظ على أسرار الدّولة من الذّيوع والانتشار. وقد يُعْهَد به إلى من ينتمي إلى نسب رفيع، ومن أتاحت لهم ظروفهم أن يتمتعوا بسعة العلم وعمق الثّقافة، ومَن يتميّز بقوّة الشّخصيّة والدّهاء والذّكاء؛ لأنّه هو الذي يحرّر الرّسائل الرّسميّة والسّياسيّة الدّاخليّة والخارجيّة، وهو الذي ينشر بين النّاس المراسيم والقرارات والبلاغات والتّراتيب الإداريّة[3]، وكان الكُتّاب حقّاً – كما قال الجهشياري– " تراجمة الملوك في العصر العبّاسيّ، مثلما كانوا من قبل تراجمة للملوك في عصر الأكاسرة الفرس"[4].

---

(1) ابن خلف، علي(ت مطلع القرن الخامس الهجري)، مواد البيان، طبع بالتصوير عن مخطوطة فاتح(4128)، مكتبة السليمانية، استانبول، 1407هـ/1986م: 46 وما بعدها.

(2) ابن خلدون، المقدمة: 246؛ سالم، محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية: 68؛ شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي: 105.

(3) ابن خلدون، المقدمة: 247؛ حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي: 263/2؛ الهاشمي وشنقارو، الحضارة الإسلامية دراسة في تاريخ النظم: 22؛ الناطور والعودات وبيضون، الخلافة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري: 204.

(4) الجهشياري، الوزراء والكتّاب: 3؛ ماجد، عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1973م: 1/ 105.

وبلغ من مرتبة كاتب الرّسائل عند العبّاسيين أنّه كان من المقربين إلى السّلطان وأنّ كلمته مسموعة عنده، فقد ألقى أبو جعفر المنصور القبض على وزيره أبي أيوب المورياني(154هـ/771م) وأخيه وبني أخيه ونكبهم بتحريض من كاتبه أبّان بن صدقة(ت167هـ/783م)(1).

وكان يعمل في ديوان الإنشاء عدد كبير من الكُتّاب والموظفين، ويشترط فيهم أن يكونوا من ذوي الكفاية العالية في فنون الكتابة، هذا فضلاً عن أنّ كلّ واحد منهم كان يُطلب منه إجادة عمل معيّن في الدّيوان، وقد مدّنا ابن الصّيرفي(ت542هـ/1148م) ببعض التفاصيل عن التزامات المستخدمين، وسير العمل داخل الدّيوان، والوظائف التي أشار إليها ابن الصّيرفي هي:

أولاً- **رئيس ديوان الرّسائل:** وكان يُطلق عليه تارة "صاحب ديوان الإنشاء"، وتارة أخرى: "كاتب السرّ"(2)، أو "متولي الدّيوان"، وكان يُخاطب بالأجلّ، ويلقّب بـ "كاتب الدّست الشّريف"(3).

ويقع على رئيس ديوان الإنشاء مسؤوليات عظام، حيث يلقي إليه الخليفة بأسرار الدّولة وخفاياها، ويؤخذ رأيه في حلّ مشكلاتها، إضافة لذلك فإنّ المكاتبات الرّسمية ترد إليه وعنه تصدر، وتوقيعه على القصص يُنفّذ كما يُنفّذ توقيع السّلطان، كلّ هذا إلى جانب ما هو عليه من الرّفعة والشّرف.

وقد اشترطوا فيمن يتولى ديوان الرّسائل أن يتحلى بصفات وآداب خُلُقيّة،

---

(1) ابن الأثير، الكامل: 36/5؛ التليسي، بشير رمضان وجمال هاشم الذويب، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002م: 96.

(2) العمري، مسالك الأبصار: 53/1؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1387هـ/1986م: 230/2-231.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 103؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار: 2/ 86؛ ابن الصّيرفي، علي بن منجب بن سليمان(542هـ/1148م)، القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة، حققهما وكتب مقدمتهما وحواشيهما ووضع فهارسهما: أيمن فؤاد سيد، ط1، الناشر: الدار المصرية اللبنانية، 1410هـ/1990م: 8.

وخُلْقيّـــة، ومنها ما يتعلّق بشخصيّته كفرد، ومنها ما يتعلّـــق بمجـــال العمـــل، أمّـــا الصّفات الخَلقيّة فهي: أن يكون صبيح الوجه، ومن صفاته أيضاً أن يكون: فصيـــح الألفاظ، طلـــق اللسان، أصيلاً في قومه، رفيعاً في حيّه، وقُوراً، حليماً، مُؤثراً للجدّ على الهزل، كثير الأناة والرّفق، قليل العَجَلَة والخُـــرْق، نـــزر الضّـــحك، مهيـــب المجلس، ساكن الظّل، وَقُور النادي، شديد الذّكاء، متوقّد الفَهـــم، حَسَـــن الكـــلام إذا حدّث، حَسَن الإصغاء إذا حُدِّث، سريع الرّضا، بطيء الغضب[1]. وهذه الصّـــفات يجب أن يتّصف بها من هو أكثر ملازمة للسّلطان، ويقضي معه أكثر الأوقات.

أمّا ما يتعلّق بمجال العمل فعليه أن يكون: محبّاً للشغل أكثـــر مـــن محبّتـــه للفراغ، مقسّماً للزمان على أشغاله: يجعل لكلّ منها جزءاً منـــه حتّى يستوعبـــه في جميع أقسامها، إذاً عليه أن يؤثر العمل على الرّاحة، وعليه إنجاز جميع الأعمال فلا يُقصّر في عمل منها وذلك بأن يُحسن توزيع وقته لتنفيذ أعماله. وعليـــه أيضـــاً أن يكون ملازماً لمجلس السّلطان ولا يفارقه إذا كان السّلطان جالساً، وملازماً للـــدِّيوان إذا كان السّلطان غائباً؛ ليتأسّى به سائر كُتّاب الدّيوان، ولا يجدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم.

وعليه أن يُهدي النّصيحة للسّلطان بأحسن تأنٍ وأفضل تلطّـــفٍ، وأن يُغلّـــب هوى السّلطان على هواه، ورضاه على رضاه، وأن ينشر فضائل السّلطان ويعظمها ويفخمها، ويكرر ذكرها، وبالمقابل عليه ألاّ يردّ السّلطان أمام الآخرين إذا أخطأ، فلا يجبهه بالرّدّ عليه واستهجان ما أتى به، بل يصبر إلى حين الخلوة، ويُدخل في أثناء كلامه ما يوضّح به نهج الصّواب، من غير تبجح بما عنده.

ويترتّب على رئيس ديوان الرّسائل أن يُعاون السّلطان على أمور كثيرة منها: إقامة العدل، ونشر جناح الأمن، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وجبر الكسير، والإنعام على المُعتَرِّ المستحقّ، والتّوفر على الصّدقات، وعمارة بيوت الله تعـــالى، وصرف الهمم إلى مصالحها، والنّظر في أحوال الفقهاء وحَمَلة كتاب الله العزيز بما يصلُح، والالتفات إلى عمارة البلاد، وجهاد الأعداء، ونشر الهيبة، وإقامة الحدود في

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 104.

مواضعها، وتعظيم الشّريعة، والعمل بأحكامها.

ومن الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها: اليقظة والاستدلال بقليل القول على كثيرة، وببعض الشيء على جميعه، ويستغني عن التّصريح بالإشارة والإيماء، إضافة لذلك عليه أن يحذّر السّلطان حين تبدو له لوائح الأمر- كما حكى خالد بن برمك(ت163هـ/870م): "أنّه كان مع قَحطَبَة(ت132هـ/749م) في معسكر، جالسين في خيمة إذ نظر خالد إلى سرب من الظّباء قد أتى حتّى كاد يخالط العسكر، فأشار على قحطبة بالرّكوب، فسأله عن السّبب، فقال: الأمر أعجل أن أبيّن سببه. فركب وأركب العسكر، فلم يستتمُّوا الرّكوب إلاّ والعدوّ قد دهمهم، وقد استعدّوا له فكانت النُّصرة لهم على العدوّ. فلما انقضى الحربُ سأل قحطبة خالداً من أين أدرك ذلك؟ فقال: رأيتُ الظّباء وقد أقبلت حتّى خالطت العسكر، فعرفتُ أنّها لم تفعل ذلك مع نُفورها من الإنس إلاّ لأمر عظيم قد دهمها من ورائها". وهذه الحادثة تدلّ على الذّكاء والفطنة وتقدير الأمور. وعليه أن لا يكتب عن السّلطان إلاّ ما يُقيم منار دولته ويعظّمها، ولا يكتب ما يكون فيه عيب على الدّولة وذمّ لها[1].

وقد اشترطوا أيضاً فيمن يتولّى هذه الخُطّة أن يكون ذا دين وورع وأمانة؛ لأنّ الدّين يحجزه عن ارتكاب المآثم، والورع يردعه عن احتقاب المحارم، والأمانة تمنعه من أن تمتدّ يده إلى رشوى تُحسّن له الدّخول في المسالك المذمومة[2].

ومن الصّفات الواجب توافرها فيه: كتمان السِّرّ أكثر من غيره، لكونه ابتداء الأسرار وانتهاؤها بحكم اطّلاعه على جليل الأمور وحقيرها، فكلّ الأمور مبسوطة بين يديه، لذا يجب "أن يكون من كتمان السّرّ بالمنزلة التي لا يُدانيه فيها أحد، ولا يُقارن فيها بشر"[3]، وقال المأمون: "الملوك تحتمل كلّ شيء إلاّ ثلاثة أشياء: القَدْح في الملك، وإفشاء السّرّ، والتّعرّضُ للحُرَم"[4]، وقد كانت ملوك الفرس تقول: "أعظمُ

---

(1) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/104-106.

(2) ابن الصّيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 7.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/106؛ ابن الصّيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 13.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 107.

النّاس حقّاً على جميع الطّبقات من ولِيَ أسرار الملوك"[1]؛ لأنّ إفشاء السِّرّ ربَّما أفضى إلى الهلكة خصوصاً أسرار الملوك، فعلى صاحب هذه الوظيفة القيام من ذلك بواجبه وكتمان السرّ حتى عن نفسه، فقد بلغت أهميّة إخفائه عند عبد الله بن طاهر(ت230هـ/845م) مرتبة عظيمة، فقال عندما تذاكر النّاس في مجلسه حفظ السِّر:

ومستودعي سرّاً تضمّنت سَتْرَه فأودعته في مستقرّ الحَشَا قبرا[2]

وقد قيل إنّه لا يجوز له إفشاء السرّ وإن أذنَ له السّلطان بذلك، بل عليه أن يجعله "ميتاً مقبوراً في أحشائه"[3]، وأن يحتاط في حالة تلقي السرّ عن السّلطان بأن لا يتلقّاه عنه بحضرة أحد، والاحتياط في حالة إلقائه إلى كاتب يكتبه، فلا يلقيه إلى كاتبين، ولا يُخاطب فيه أحدهما بحضرة الآخر لتكون العهدة في دَرَكه على واحد بعينه[4].

أمّا ما يقوم به صاحب الدّيوان من أعمال، فقد يُطلب إليه أن يقوم ببعض الأعمال التي كان الخليفة نفسه يتولى القيام بها ومنها: التوقيع وهو الكتابة على الرّقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، إضافة لذلك فقد يتحدّث في المظالم وهذا المنصب على درجة عالية من الأهميّة، يقول عنه القلقشندي: "وهو أمر جليل، ومنصب حفيل، إذ هو سبيل الإطلاق والمنع، والوصل والقطع، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السَّنيَّة"[5].

ويقوم بالنظر في الكتب الواردة على السلطان، وعلى الرّغم من أنّ النظر في هذه الكتب كان يقتصر على السلطان وحده، فإنّه كان يسمح لرئيس ديوان الإنشاء النظر فيها، وذلك لكثرة الكتب الواردة، واتّساع رقعة الدّولة، وكثرة المكاتبين من

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 107/1.

(2) المصدر نفسه: 107/1.

(3) ابن شيت القرشي، عبد الرحمن بن علي(ت625هـ/1227)، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق: محمد حسين شمس الدّين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م: 30.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى: 108/1.

(5) المصدر نفسه: 110/1و111.

أصناف أرباب الخِدَم، ووصول الكتب إليه من الأقطار النائية والمتباعدة. وهذا الأمر – النظر في الكتب الواردة على السّلطان – أوكله رئيس ديوان الإنشاء فيما بعد إلى كاتب آخر نظراً لاشتغاله بالحضور عند السلطان في بعض الأوقات لقراءة الكتب الواردة والرّدّ عليها، مع شغله بتصفّح ما يُكتب في الدّيوان والمقابلة به[1].

ويتولى رئيس الدّيوان الرّدّ على الكتب الواردة على السّلطان، وعليه أن لا يؤخّر الرّدّ عليها، وأن يؤرّخ لها بتاريخ وصولها، لأنّ هذا: "يقيم للملك هيبة كبيرة، ويدلّ على تطلعه للأمور، وانتصابه للتدبير، وقلّة إهماله لأمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شؤونها، ويؤثّر في نفس المكاتَبين تأثيراً كبيراً، ويستشعرون منه حذَراً وخِيفة"[2]. وبلغ به أنّه كان ينكر على من يُرسلون الكتب دون تأريخ ويزجرهم على ذلك، لأنّ في إهماله ضرراً كبيراً من حيث إنه إذا ورد غير مؤرّخ لم يُعلم بُعد العهد بما ذكر فيه من قُربه، وهل فات وقت النظر فيما تضمنه أم لا ؟ وإذا كان مؤرخاً عرف ذلك وزالت الشبهة فيه.

ويعمل رئيس الدّيوان أيضاً على النظر فيما يُكتب من ديوانه من مكاتبات ويتصفحها قبل إخراجها؛ لأنّ الكاتب غير معصوم عن الخطأ والزلل واللحن، فما أبصره من لحن أو خطأ عمل على تصحيحه، ونبّه الكاتب إليه، فإن تكرّر منه ذلك زجره وردعه عن العَوْد إلى مثله؛ لأنّه يكتب عن السّلطان ومن العيب أن يكون فيما يكتب بعض الخطأ. فإذا فرغ من عرض الكتاب والوقوف عليه، كتب عليه بخطّه ما يدلّ على وقوفه عليه ليكون ملتزماً بدركه، وبعد مراجعة هذه المكاتبات يقوم بختمها بالشمع الأحمر بخاتم الخليفة بعد موافقته أو موافقة الوزير عليها[3].

ولم تقتصر مهمّة رئيس ديوان الرّسائل على النّظر في شؤون الكتابة ومتعلقاتها من نظر في الكتب الواردة والصادرة من الدّيوان وإليه ومراجعة ما يكتبه

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 111/1.

(2) المصدر نفسه: 112/1.

(3) علي، سيد أمير، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية: عفيف البعلبكي، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981م: 360.

الكتّاب بالتدقيق والتمحيص، والنظر في أمر البريد وأبراج الحمام، بل بلغ به الأمر أن يشرف على الجواسيس والعيون، وهو جزء عظيم من أُسّ المُلك وعِماد المملكة، يقول القلقشندي: "وعلى صاحب ديوان الإنشاء مَداره، وإليه رجوع تدبيره واختيار رجاله وتصريفهم. فيجب عليه الاحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريديّة والرُّسل: لأنّ الرّسول قد يتوجّه إلى الصّديق وقد يتوجّه إلى العدو، والجاسوس لا يتوجّه إلاّ إلى العدوّ، وإذا وَثِق بجاسوسه فإنّه إلى ما يأتي به صائر، وعليه معتمد، وبه فاعل"[1].

إضافة لهذه المهمّات فإنّ هناك مهمّات أخرى كان رئيس ديوان الرّسائل يُشرف عليها منها: النّظر في أمور القُصَّاد الذين يسافرون بالملطّفات من الكتب عند تعذّر وصول البُرُد إلى ناحية من النّواحي[2]. والنّظر في أمور المناور والمُحرِقات[3]، والنّظر في الأمور العامّة التي تعود على السّلطان والمملكة بالنّفع، فإذا انتهى إليه خبر يتعلّق بجلب منفعة إلى المملكة أو دفع مضرّة، أطلع السّلطان عليه، وأبدى نصحه، وترك الرأي الأخير فيه للسّلطان ليقضي فيه[4].

ثانياً- نائب رئيس الدّيوان: حين اتّسعت الدّولة، وكثرت المهام الموكولة لرئيس الدّيوان، ووفرت الكتب الواردة من الأقطار النّائية والممالك المتباعدة، ولمّا كان رئيس الدّيوان مشتغلاً بالحضور عند الملك في بعض الزّمان لقراءة ما يخرج، وتقرير ما يُجاب به عن كلّ كتاب، وتصفّحه في الدّيوان ما يكتب والمقابلة به، احتاج أن يَرُدَّ ذلك إلى من ينوب عنه فيه، فيعمل النائب على تلخيص ما يرد في الكتب ليسهّل على رئيس الدّيوان عرضها وفهمها من غير إخلال بها ولا خيانة فيها[5].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/123.

(2) المصدر نفسه: 1/ 126و127.

(3) المصدر نفسه: 1/127و128.

(4) المصدر نفسه: 1/ 128و129.

(5) ابن الصّيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 20و21.

وينبغي أن يكون متولي هذه الخدمة مسلماً، شديد الذّكاء، متوقّد الفطنة، سالماً من البَلَه. وصاحب هذه الخدمة لا يشاركه فيها أحد، ولا يقوم بعمل خدمة غيرها، ليتوافر عليها ويصرف ذهنه إليها ولا يُخالط معها غيرها فيعتذر إذا أخطأ بتكاثر الشّغل عليه، ولا يجعل معه غيره ليكون متحققاً أنّه متى أخطأ لم يجد له عذراً ولا شريكاً يُحيل عليه(1).

ثالثاً- كاتب التقاليد والعهود والأوامر السّلطانيّة: وهو أجلّ المستخدَمين في الدّيوان، ويتحلّى بصفات رئيس الدّيوان حيث يكون كاملاً في الصّفات، مستوفياً لشروط الكتابة، عارفاً بالفنون التي يحتاج إليها الكاتب، مشتملاً على التّقدّم في الفصاحة والبلاغة، قويّ الحجّة في المعارضة(2).

ويُعدّ هذا الكاتب من أرفع الكُتّاب درجة؛ "لأنّه يتولّى الإنشاء من نفسه، إذ تُلقى إليه الكلمة الفذّة والمعنى المفرد فينشئ على ذلك كتاباً طويلاً وكلاماً كثيراً، وإنّما يتكلّم فيه عن السّلطان. وكلّما كان كلامه أبرع في النّفوس وأوقع، عظمت رتبة السّلطان وارتفعت منزلته عند الأمّة. وهو الذي يُنشئ التّقاليد والعهود والكتب في الحوادث الكبار، والمهمّات العظيمة التي تُتلى فيها الكتب على صياصي المنابر ورؤوس الأشهاد"(3). فقد حُكِي إن يزيد بن الوليد(ت126هـ/744م) كتب إلى إبراهيم بن الوليد(ت132هـ/749م) وقد همَّ بالعصيان: "أمَّا بعد، فإنِّي أراك تُقَدِّم رِجلاً وتؤخِّر أخرى فاعتمد على أيّهما شئت. والسّلام". وهذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة والإيجاز في منزلة عالية، وقد أثَّر في نفس المُكاتب فكان سبباً لإقلاعه عمَّا همَّ به(4).

---

(1) ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 21و22.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 130؛ ابن الصّيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 22.

(3) ذكر ابن شاكر أنّه كتب بذلك إلى مروان بن محمد وليس إلى أخيه إبراهيم. انظر: الكتبي، محمد بن شاكر(-764هـ/1362م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت:مج 333/4.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى: 131/1.

رابعاً- كاتب الملوك أو كاتم السرّ: وهو أعظم منزلة من كاتب الإنشاء وأعلى درجة؛ لأنّه يجمع إلى جانب العلم والمعرفة والفصاحة والبلاغة وحُسن الألفاظ وإتقان الإنشاء علو الهمّة وقوّة العزم وكِبْر النّفس، فإنّه يُكاتب الملوك عن ملكه. وهذا الكاتب لا بدّ أن يكون على دين الملك الذي يكتب عنه وملّته، لما يحتاج إليه في مكاتبة الملك المخالف من الاحتجاج على صحّة عقيدته ومذهبه، وإقامة الدلائل على صحّة ذلك، ولا يتأتّى ذلك لكاتب يُخالف الملك في المذهب والاعتقاد.

ويجب أن يكون هذا الكاتب على درجة رفيعة من علو الهمّة وقوّة العزم وكِبْر النّفس، فكلّ كاتب يجرّه طبعه وجبلّته إلى ما هو عليه من الصّفات، ومكاتبة الملوك أحوج شيء إلى التّفخيم والتّعظيم والتّهويل، فكلّما نقص شيء من هذه الصّفات أدّى ذلك إلى نقص في كتابته بنفس القدر. كما ينبغي أن يكون عالماً بالفرق بين مخاطبة الملوك الإسلاميّة وبين مخاطبة الملوك المخالفين للملّة واللّسان، فيخاطب كلَّ قوم على قدر رتبتهم في ذلك وما يعرف من فهمهم[1].

خامساً- كاتب رجال الدّولة وكبرائها من الولاة والأجناد والقضاة والكُتّاب والمشارفين والعمّال، وإنشاء تقليدات ذوي الخِدَم الصّغار والأمانات، وكتب الأيمان والقسامات: وعلى الرّغم من أنّ هذه الرّتبة تقلّ مكانة عن الرّتبتين السّابقتين، فإنّها ذات مكانة عالية، وعلى متوليها أن يكون على درجة عالية من الذّكاء والفهم والإلمام بالأدب والعربيّة بالقدر الذي يؤمّنه من الزلل والخطأ في ألفاظه ومعانيه.

وقد ذكر القلقشندي الصّفات التي يجب أن يكون عليها من يقوم بهذه الخطّة، فقال: "أن يكون مأموناً على الأسرار، كافَّ اليد، نَزِه النّفس عن العَرَض الدّنيويّ"[2]، وقد خصّ من يتولى هذه الخدّمة بمثل هذه الصّفات؛ لأنّه يطّلع على أسرار الدّولة وأكثر ما يجري فيها، حيث يعلم بالوالي قبل توليه، وبالمخلوع قبل خلعه. وينبغي أن

---

(1) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 131/1؛ ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 25و26؛ عبد الفتاح، نظم الحكم في الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويه بغداد: 117.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 131/1.

يكون سريع اليد في الكتابة، حسن الخطّ؛ لأنّ هذا الفن أكثر ما يُستعمل ولا يكاد يقلّ في وقت من الأوقات(1).

سادساً- كاتب المناشير ونحوها ممّا لا يُختم، والكتب اللّطاف والنّسخ: وتعدّ هذه الخدمة في المنزلة التالية للخدمة السّابقة، وكأنّها جزء منها، والكاتب هنا يحتاج لمن يساعده، لكثرة الشّغل، حيث يقوم بأكثر عمل الدّيوان، ويُجعل المساعد برسم تسطير المناشير والفصول المتقدّمة إلى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها ممّا يمليه صاحب الدّيوان ويصدر عنه في نسخ تكون مخلدة فيه لا تغادر المبيّضة بحرف لتكون موجودة متى احتيج إليها. وينبغي أن يكون كاتب هذه الخدمة مأموناً، كتوماً للسرّ، فيه من الأدب ما يأمن معه من الخطأ واللحن، حسن الخطّ أو بالغاً فيه القدر الكافي(2).

سابعاً- الكاتب المبيّض برسم الإنشاءات والسّجلات والتقليدات ومكاتبات الملوك: يقوم هذا الكاتب بتبييض ما ينشئه المنشئ من عهود وبيعات، ويتطلب ذلك من الكاتب أن يكون حسن الخطّ على الغاية الموجودة، بحيث لا يكاد يوجد في وقته أحسنُ خطّاً منه لتصدر الكتب عن السّلطان بألفاظ بارعة وخطّ رائع، وهذا يضفي على المملكة التفخيم والعظمة عند من يُكاتب. إضافة لجمال الخطّ وروعته ينبغي أن يكون أميناً، كاتماً للسرّ، نزه النّفس(3).

ثامناً- المراجع النهائي: يتصفّح جميع ما يُسطّر في الدّيوان، يُعيّن صاحب هذه الخدمة رئيسُ ديوان الإنشاء، لأنّه يُعينه على النّظر في الإنشاءات، فتصير إليه وقد قاربت الصّحة أو بلغتها، فتريحه من الإصلاح والتغيير لدقائق الأمور، ويتوفّر نظره

---

(1) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/131-132؛ ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 27؛ عبد الفتاح، نظم الحكم في الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويه بغداد: 117.

(2) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/132؛ ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 28.

(3) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/132؛ ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 28.

وتصفّحه على جلائلها والمعاني نفسها.

ويُشترط فيمن يتولّى هذه الخِدمة أن يكون عالي المنزلة في اللّغة والنحو وحفظ كتاب الله، ذكياً، حسن الفطنة، عاقلاً، مأموناً، وأن يكون بعيداً عن العداوة والبغضاء حتّى لا يبخس أحداً حقّه، وعليه أن لا يُحابي أحداً فيما يكتب بل الجميع عنده سواء، وعليه أن يُلزم الكُتّاب بعرض جميع ما يكتبونه عليه قبل عرضه على رئيس الدّيوان، فإذا تصفّحه وحرّره كتب بخطّه فيه بما يعرّف رضاه عنه ليلتزم بدَرك ما فيه، ويبرأ منشئه(1).

تاسعاً- كاتب السّجل (الأرشيف): ويقوم متولي هذه الخدمة بالأعمال الآتية:

1- وضع دفاتر تشتمل على مهمّات الأمور التي تُنْهى في ضمن الكتب، ليسهل استخراجها عندما يُحتاج إليها. لذا يجب أن تُسلّم الكتب الواردة إليه بعد الإجابة عنها ليتأملّها وينقل منها في تذاكره ما يحتاج إليه، وإن كان قد أُجيب عنه بشيء نقله، ويجعل لكلّ صفقة أوراقاً من هذه التّذاكر على حِدَة، تكون على رؤوس الأوراق علامات باسم تلك الصّفقة أو الجهة، وقد بيّن القلقشندي ما الذي يُكتب على رؤوس هذه الأوراق قائلاً: "فصل من كتاب فلان الوالي أو المُشارف أو العامل – ورد بتاريخ كذا- مضمونه كذا – أُجيب عنه بكذا – أو لم يُجب عنه"(2). وهذه التّذاكر سنوية عندما تنتهي السّنة يعمل الكاتب تذاكر جديدة.

ويقوم الكاتب بوضع تذاكر يسطّر فيها مهمات ما تخرج به الأوامر في الكتب الصّادرة لئلا يُغفل فلا يُجاب عنها، وتسطّر على الهيئة السّابقة، وإذا ورد جواب عن هذا الفصل كتب في تذكرته "ورد جوابه بتاريخ كذا ويتضمّن كذا"، وكلّ هذا الترتيب يُسهّل على الكاتب في هذه الخدمة إذا سئل عن شيء أن يرجع إليه بسهولة.

2- وضع دفتر يسجّل فيه ألقاب الولاة والمستخدمين وأسماءهم، وترتيب مخاطباتهم، وتحت كلّ اسم كيف يُخاطب صاحبه، بكاف الخطاب أو هاء الكناية،

---

(1) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 133؛ ابن الصّيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 30.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/133و134.

ومقدار الدُّعاء الذي يُدعى له به في السّجلات والمكاتبات والمناشير والتوقيعات. وكذلك يسطّر فيه ألقاب الملوك الأباعد والمُكَاتبِين من الآفاق وكُتّابهم وأسماءهم، وطريقة الدّعاء لهم، ويعدّ هذا الدّفتر بمنزلة السّجل الرّسمي الذي يرجع إليه جميع كُتّاب الإنشاء في مكاتباتهم حيث ينقلون منه ما يحتاجون إليه.

ويُرتّب هذا الدّفتر على النحو الآتي: يُجعل لكلّ خدمة ورقة خاصّة بها، يُكتب فيها اسم متوليها ولقبه والدّعاء المناسب له، ومتى صُرف كُتب عليه صُرف بتاريخ كذا، واستُخدم مكانه فلان بتاريخ كذا، ولا يُغفل عن تسجيل ذلك حتى لا يزل الكُتّاب ورئيس ديوان الإنشاء أو السّلطان.

3- وضع دفتر للحوادث العظيمة التي تحدث في المملكة يؤرّخ كلّ منها بتاريخه الذي وقعت فيه.

4- عمل فهرست للكتب الصّادرة والواردة مُسَانهةً (كلّ سنة) ومُشاهرةً (كلّ شهر) ومُياومةً (كلّ يوم)، ويُكتب فيه تاريخ وروده ومضمونه ويدوّن تحت اسم من ورد من جهته، ويُدفع إلى الخازن ليحتفظ به.

5- عمل فهرست للإنشاءات والتّقاليد والأمانات والمناشير وغير ذلك مشاهرة في كلّ سنة بجميع شهورها، وإذا انقضت السّنة استجدّ آخر، ومثل هذا يعمل على ضبط أمور الدّيوان.

6- عمل فهرست للكتب المترجمة الواردة على الدّيوان بغير اللسان العربي من الرّومي أو الفرنجي، ويسجّل اسم من قام بترجمته[1]. أمّا صفات من يقوم بمثل هذه الخدمة، فإنه يجب أن يكون مأموناً، طويل الرّوح، صبوراً على التّعقب، محبّاً للعمل.

عاشراً- كاتب يتولّى التّوقيع عن الملك: وهذه الخدمة قد تُسند إلى مَن يتولّى ديوان الرّسائل؛ لأنّ التوقيع عن السّلطان أمر جليل يجري مجرى الإنشاء عنه، أو في رتبته لأنّ به المنع والإطلاق والصّرف والتّصريف وغير ذلك من الأمور الجليلة.

وينبغي أن يكون متولي هذه الخِدمة مأموناً في الغاية، ذكياً، خبيراً بما يقوله،

---

(1) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 133- 135؛ ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 31-34.

بصيراً بترتيب التوقيعات وأوضاعها وقوانين المخاطبات فيها، مخلصاً في عمله، جلِداً على الملازمة، واسع الصّدر"[1].

ويعمل في الدّيوان إلى جانب الكُتّاب مجموعة من الموظّفين منهم:

أولاً- الخازن: ومهمّته الحضور بين يديّ الكُتّاب وملازمتهم؛ لأنّ الكتب التي تصدر عن الكُتّاب بعد أن تُكتب وتنسخ ويدوّن تاريخ صدورها باليوم والشّهر والسّنة تُسلّم بعد ذلك إلى الخازن الذي يقوم بدوره بجعل كلّ شيء مع شبهه، ويجعل كلّ سنة على حدِتها مقسمة اثني عشر شهراً، كلّ شهر على حدِته يجعل له إضبارة، يجمع فيها كتب من يكاتب من أهل تلك الأعمال، ويجمع كلّ نوع من المكاتبات إلى مثله في إضبارة خاصّة يجعلها في إضبارة ذلك الشّهر ويكتب عليها بطاقة ليسهل استخراج ما أراد أن يستخرجه من ذلك. ويقوم بالاحتفاظ بكلّ ما يرد إلى الدّيوان من كتب، كما يحتفظ أيضاً بنسخ الكتب الصّادرة، والتّذاكر، وخرائط المهمّات، وضرائب الرّسوم.

ويُختار لهذه الخِدمة من كان ذكياً، عاقلاً، مأموناً بالغ الأمانة والثّقة والنزاهة، قليل الطّمع؛ لأنّ زمام جميع الدّيوان بيده[2].

ثانياً- الحاجب: ومهمّته منع دخول النّاس إلى الدّيوان باستثناء أهله؛ وذلك لأنّه يجمع أسرار السّلطان الخفيّة، ومتى أُهمل وكُثر الغَاشون له والدّاخلون إليه، أمكن أهل الدّيوان معه إظهار الأسرار اتّكالاً على أنّها تُنسَب إلى أولئك، فإذا كان الأمر قاصراً عليهم احتاجوا إلى كتمان ما يعلمونه خشية أن يُنسب إليهم إذا ظهر[3].

---

(1) انظر: ابن الصيرفي، القانون: 38و39.

(2) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 135و136؛ ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 34-38؛ ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م: 36.

(3) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 136و137؛ أبو خليل، شوقي، الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار الفكر، دمشق، 1415هـ/1994م: 324وما بعدها.

تُعدّ هذه أبرز التشكيلات والوظائف التي يتألف منها ديوان الرّسائل بشكل عـــام، ونستدل من خلال ذلك على مدى الاهتمام بالمكاتبات الصّادرة عـــن هـــذا الـــدّيوان، والواردة إليه، إضافة لذلك فقد كان كلّ ما يصدر عن الدّيوان لا بُدّ أن يكـــون عليـــه توقيع الخليفة، ليأخذ صبغة رسميّة، وقد ساروا في ذلك على نهج رسول الله، صـــلّى الله عليه وسلّم، حيث كان له خاتم يوقّع به ونقشه: "محمد رسول الله"[1]، ومنذ ذلـــك والخلفاء يتّخذون الخاتم للتّوقيع، حتّى أن معاوية أنشأ ديوان الخاتم، ربّما ليعين ديوان الرّسائل، ولكن منذ عهد العباسيين أو قبلهم، عُرف التوقيع بلفظة "العلامة " التـــي لا تعني توقيعاً بالخاتم[2]، وإنّما عبارة دينيّة أو نعتاً يقوم مقام التّوقيع، ويكون هذا الخـــتم بالخطّ آخر الكتاب أو أوّله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو باسم السّـــلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب مَنْ كان أو شيء من نعوته يكون ذلك الخطّ علامـــة علـــى صحّة الكتاب ونفوذه[3]، وسُمّي توقيع السّلاجقة – الذين سيطروا علـــى العباســـيين– باسم الطغرا أو الطغرى، وهي كلمة فارسيّة تعني نقشة معيّنة تدلّ علـــيهم، وربّمـــا تكون نسبة إلى أحد الكُتّاب الذي أوجدها[4]، وقد بقيت حتى وقت سلاطين العثمـــانيين للتوقيع بها على الفرمانات وغيرها.

---

(1) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية: 191.

(2) الخاتم الذي يُختم به هو طابع منقوش فيه اسم الخليفة أو شارته يغمس في حبر أحمـــر مُـــذاب بالماء يسمّى طين الختم، ويُطبع به على طرف السّجلّ عند طيّه وإلصاقه. انظر: ابن خلدون، المقدمة: 265؛ سالم، محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية: 69.

(3) ابن خلدون، المقدمة: 264.

(4) لعلّه الحسين أبو إسماعيل الطغرائي(ت 516هـ)، انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(608-681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه: إحسان عباس، دار صادر، بيروت:185/2؛ القلقشندي، صـــبح الأعشـــى: 13/ 162؛ زيـــدان، تـــاريخ التمـــدن الإسلامي: 95/1؛ ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى: 36.

الفصل الثّاني

ثقافة الكاتب في ديوان الرّسائل

أصبحت وظيفة كاتب الرّسائل من الوظائف المهمّة التي يتسابق النّاس إلى الوصول إليها لينالوا الشّهرة والجاه والرّخاء، إذ أنّ كلّ من تثبت كفاءته برقى إلى أعلى المناصب في دواوين الدّولة، لذا لا يمكن لأحد أن يلتحق بهذه الوظيفة إلاّ بعد أن يُلمّ بثقافة واسعة، فالكاتب يكتب عن الخليفة أو الوزير إلى جهات متعدّدة، وعليه أن يكون عارفاً بصيغ القرارات الرّسميّة والرّسائل والنداءات الرّسميّة، وصيغ ولاية العهد والوصايا...إلخ.

لذا أخذ الكُتّاب في ديوان الرّسائل أنفسهم بثقافة واسعة، الأمر الذي دفع بعضهم وضع الكتب التي تُبيّن ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من مواد، ومن أوائل الكتابات التي وجّهت الكُتّاب إلى ضرورة تثقيف أنفسهم تلك الرّسالة التي وجهها عبدالحميد الكاتب(ت132هـ/750م) إلى الكُتّاب[1]، حيث ضمّنها وصايا مختلفة لهم، ونراه يستهلّها بأنّ صناعتهم أشرف الصّناعات، إذ بهم ينتظم الملك، وبتدبيرهم وسياستهم يستقيم الحكم، وينصحهم بأن يتحلّوا بخلال الخير وخصال الفضل، ويخوض فيما ينبغي أن يتقنوه من صنوف المعرفة والثّقافة.

وتحمل تلك الرّسالة دلالات واضحة على أنّ الكاتب لا يستطيع أن يُحسن وظيفة الكتابة إلاّ إذا ألمّ بثقافة واسعة، فالكتابة لم تعد عملاً سهلاً، بل أصبحت عملاً معقّداً لا بُدّ فيه من إعداد وتثقّف بالقرآن الكريم، وأوامر الشّريعة، وبالأدب العربيّ شعره ونثره، وبأخبار العرب والأمم الأخرى وأيّامهم ووقائعهم، ومعارفهم، وقد كانت هذه الرّسالة دستوراً واسعاً للكُتّاب تبيّن لهم واجباتهم الخلقية والثّقافيّة، وعلى هديها سار بعض الكُتّاب من أمثال ابن قتيبة(ت276هـ/849م) فقد بنى كتابه "أدب الكاتب" على أمور من اللغة والتّصريف وطَرَف من الهجاء، يقول: "وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلّق من الإنسانيّة إلاّ بالجسم، ومن الكتابة إلاّ بالرّسم، ولم يتقدّم من الأداة إلاّ بالقلم والدّواة، ولكنّها لمن شَدا شيئاً من الإعراب، فعرف الصّدر

---

(1) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 73-79.

والمصدر، والحال والظرف، وشيئاً من التّصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء، وأشباه ذلك.

ولا بدّ له – مع كتبنا هذه– من النّظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتّى يعرف المثلّث القائم الزّاوية، والمثلّث الحادّ، والمثلّث المنفرج، ومساقط الأحجار، والمربّعات المختلفات، والقسيّ، والمدوّرات، والعمودين، ويُمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدّفاتر، فإنّ المُخبَرَ ليس كالمُعاين".

وذكر إنّ العجم كانت تقول: "مَنْ لم يكن عالماً بإجراء المياه، وحفر فُرَض المشارب، وردم المهاوي، ومجاري الأيّام في الزّيادة والنّقص، ودوران الشّمس، ومطالع النّجوم، وحال القمر في استهلاله وأفعاله، ووزن الموازين، وذرع المثلّث والمربّع والمختلف الزوايا، ونصب القناطر، والجسور، والدّوالي، والنّواعير على المياه، وحال أدوات الصُنّاع، ودقائق الحساب، كان ناقصاً في كتابته"[1].

وركّز ابن قتيبة في كتابه على ضرورة إلمام الكاتب بعدّة علوم منها الرّياضيات والهندسة؛ لأنّ الإلمام بهذه المعارف يزيد من ثقافته خاصّة وأنّه يطلب إليه مكاتبة النّاس على اختلاف مهنهم وأعمالهم، وبالتالي يكون عارفاً بمصطلحاتهم وألفاظهم التي يتداولونها فيما بينهم.

وأشار أيضاً إلى بعض المعارف الواجب على الكاتب الاطّلاع عليها، منها ما ذكره بقوله: "ولا بُدّ له مع ذلك من النّظر في جُمَل من الفقه والحديث، ودراسة أخبار النّاس، وحفظ عيون الأخبار ليُدخلها في تضاعيف سطوره متمثّلاً بها إذا كتب، أو يصل بها كلامه إذا حاور"، وختم ذلك بأن قال: "ومدار الأمر في ذلك كلّه على القُطْب وهو العقل وجودة القريحة، فإنّ القليل معهما بإذن الله تعالى كافٍ، والكثير مع غيرهما مقصر"[2].

وأوجز ابن قتيبة بعض العلوم التي ينبغي على الكاتب معرفتها إلى جانب

---

(1) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت276هـ)، أدب الكاتب، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، مكتبة السعادة بمصر، 1382هـ/1963م:9.

(2) المصدر نفسه:10و11.

الهندسة والرّياضيات، وذكر منها الفقه والحديث، وأخبار النّاس، وزاد عليها أنّ هذه العلوم غير كافية إذا لم يكن صاحبها ذا عقل وقريحة جيّدة.

أمّا ابن المدبر(ت279هـ/893م)، فقد بيّن للكُتّاب الطّريقة التي يمكن أن يثقّفوا بها أنفسهم وهي: "واعلم أنّ الاكتساب بالتّعلّم والتّكلف، وطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء..."(1)، ثمّ بيّن أنواع العلوم والمعارف التي يحتاج إليها الكاتب قائلاً: "وانظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم وتوقيعاتهم، وسيرهم ومكايدهم في حروبهم، بعد أن تتوسّط في علم النّحو والتّصريف واللغة والوثائق والشّروط ككتب السّجلات والأمانات، فإنّه أوّل ما يحتاج إليه الكاتب، وتمهّر في نزع آي القرآن في مواضعها، واجتلاب الأمثال في أماكنها، واختراع الألفاظ الجزلة، وقرض الشّعر الجيّد، وعلم العروض"(2).

وذكر أبو جعفر النّحاس(ت338هـ/950م) مجموعة من الأدوات التي يحتاج إليها الكاتب منها: "الخطّ، والبلاغة، والعلم بترتيب أعمال الدّواوين، والخبرة بمجاري الأعمال، والدّربة بوجوه استخراج الأموال، ممّا يحلّ ويَسَعُ"(3).

وأكّد أبو هلال العسكريّ(ت بعد 395هـ/بعد1005م) هذه المعاني في كتابه "الصّناعتين"، فقال: "ينبغي أن تعلم أنّ الكتابة تحتاج إلى آلاتٍ كثيرة، وأدوات جمّة: من معرفة العربيّة لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى، وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة والشّهور والأهلّة..."(4).

وقد بيّن أنّ هذه الأدوات إنّما هي جزء من الكتابة، وأصلٌ من أركانها،

---

(1) ابن المدبر، إبراهيم(ت279هـ/893م)، الرّسالة العذراء، بقلم زكي مبارك، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1350هـ/1931م:7.

(2) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 7.

(3) ابن النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل(ت338هـ/950م)، صناعة الكُتّاب، تحقيق: بدر أحمد ضيف ط1، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1410هـ/1990م: 26.

(4) العسكري، الصناعتين: 171.

إضافة لذلك فإنّ كاتب الإنشاء لا يستطيع أن يستغني عن كلِّ علم ولا فن من فنون الكتابة، قال ابن الأثير(637هـ/1239م): "إنّ صاحب هذه الصّناعة يحتاج إلى التّشبث بكلّ فنٍّ من الفنون حتّى إنّه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النّادبة بين النّساء، والماشطة عند جلْوَة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السّوق على السّلعة، فما ظنُّك بما فوق هذا وذلك لأنّه مؤهّل أن يهيم في كلّ واد، فيحتاج إلى أن يتعلّق بكلّ فنٍّ"[1].

وابن الأثير إذ يرى أنّه ينبغي على الكاتب ضرورة الوقوف عند كلّ علم ومعرفة وفنٍّ، فإنّ القلقشندي يرى أنّ الكاتب لا يحتاج إلى معرفة جميع هذه العلوم على حدّ سواء، وإنّما يكفيه من العلوم التي تخصّ صناعته، يقول: "وإن كان يحتاج إلى التّعلق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون فليس احتياجه إلى ذلك على حدٍّ واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذّات وهي مواد الإنشاء التي يستمدّ منها ويقتبس من مقاصدها: كاللغة التي منها استمداد الألفاظ، والنّحو الذي به استقامة الكلام، وعلوم البلاغة: من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتّحسين والتّقبيح ونحو ذلك ممّا يجري هذا المجرى"[2].

وقد بيّنَ الشّهاب محمود الحلبي(ت725هـ/1324م) العلوم التي يحتاج إليها الكاتب، حيث يرى أنّ بعضها يحتاج إليه بطريق العرض كالطبّ والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم؛ فإنّه يحتاج إلى معرفة الألفاظ الدّائرة بين أهل كلّ علم، وإلى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنّفة ليستخدم الألفاظ الدّائرة بين أهل الطبّ فيما يكتب به لرئيس الطبّ، ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به للمنجّم، أو المهندس. كما أنّ الكاتب قد يحتاج إلى معرفة مصطلحات أقلّ رتبة من تلك المصطلحات مثل مصطلح رُماة البندق فيما يكتب به في قدمات البندق، ومعرفة

---

(1) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير(ت637هـ/1239م)، المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1358هـ/1939م: 31/1.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 146/1.

مصطلح الفتيان فيما يكتب به في دسكرة فتوّة، أو مصطلح سفَل النّاس لكتابة الأمور الهزلية، أو معرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب لطفيلي، ومعرفة الأوصاف كأوصاف الجواري والغلمان والخيل والإبل والطّيور، والسّلاح بأنواعه، والآلات المختلفة"[1].

وكاتب الإنشاء لا بُدّ أن ينظر في كلّ فنٍّ من فنون العلوم وأن يأخذ منه ما يساعده على معرفة ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيُعدّ لكلّ أمر عدّته وعتاده، ويهيئ لكلّ وجه هيئته[2].

هذه آراء بعض الكُتّاب في المعارف التي يحتاج إليها كاتب الإنشاء، لأنّ على الكاتب أن يلمّ بها إلى جانب بعض الصّفات الأخرى التي يجب أن تتوافر فيه، فقد كان من شروط اختيار الملوك لكُتّابهم أن يكون الكاتب: "حسن الفهم والذّكاء، وافر العلم والعقل، صحيح الرّأي والعبارة جزلها، مليح التّأتي في نظم المعاني ونثرها، فإن اتّفق أن يكون حسن الخطّ فهو كماله، وإلاّ فيكون هو المنشئ وغيره الكاتب"[3].
ويمكن ترتيب المعارف التي يحتاج إليها الكاتب على النّحو الآتي:

حفظ كتاب الله العزيز:

يُعدّ عبد الحميد الكاتب(ت132هـ/750م) من أوائل الكُتّاب الذين أشاروا إلى ضرورة حفظ كتاب الله في رسالته المشهورة التي وجّهها إلى الكُتّاب، فقد قال: "وابدأوا بعلم كتاب الله – عزّ وجلّ– والفرائض"[4]، وقد أشار إلى ذلك بشكل مُجمل، لكن من جاء بعده من المصنّفين وضّح للكُتّاب الهدف الرئيس من حفظ كتاب الله، إذ يرى ابن الصّيرفي أنّ الكاتب يجب أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى أو قيّماً بقراءته

---

(1) الحلبي، شهاب الدين محمود(ت 725هـ/1324م)، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، 1980: 75.

(2) انظر: عبد الباقي، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري: 19.

(3) العباسي، الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدّول، حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الرحمن عميرة، ط1، دار الجيل، بيروت، 1409هـ/1989م: 152.

(4) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 75؛ ابن خلدون، المقدمة: 248.

إذا قرأه، والسّبب في ذلك أنّ كاتب الرّسائل أحوج النّاس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته، والتّمثّل بنواهيه وأوامره، والذّكر لقوارعه وزواجره، كما أنّه حلية الرّسائل وزينة الإنشاءات، الذي يشدّ قُوَى الكلام، ويثبّت صحّته في الأفهام، إضافة لذلك فإنّه متى خلت منه الرّسائل فإنّها عاطلة من المحاسن عارية من الفضائل، كما أنّ كتاب الله الحجّة التي لا تُدحض، والحقيقة التي لا تُرفض(1).

وعلل ابن الأثير الهدف من حفظ كتاب الله – عزّ وجلّ– بقوله: "وذلك ليضمّن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها"(2). بينما يرى آخرون أنّ الهدف هو: "إقامة الحجّة، وقطع النّزاع، وإرغام الخصم"(3).

وعدّ الشهاب محمود الحلبي حفظ القرآن الكريم أوّل عمل يجب أن يقوم به الكاتب، فقال: " فأوّل ما يبدأ به من ذلك حفظ كتاب الله تعالى وإدامة قراءته وملازمة درسه، وتدبّر معانيه، حتّى لا يزال مصوّراً في فكره، دائراً على لسانه، ممثّلاً في قلبه، ذاكراً له، في كلّ ما يرد عليه من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلى إقامة الأدلّة القاطعة به عليها، وكفى بذلك معيناً في قصده، ومغنياً له عن غيره"(4). وقد أورد الحلبي في كتابه شواهد لكلّ ما يدور بين النّاس في محاوراتهم ومخاطباتهم، مع تصوّر كلّ لفظ ومعنى عنه(5).

وفصّل القلقشندي في الصّبح(6) أسباب احتياج الكاتب إلى حفظ كتاب الله وكيفيّة استعمال آياته وتضمينها في الرّسائل، وبيّن رأي العلماء في جواز الاستشهاد

---

(1) ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 8.

(2) ابن الأثير، المثل السائر: 31/1.

(3) النويري، أحمد بن عبد الوهاب(ت 733هـ/1332م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، بلا تاريخ: 29/7؛ الحلبي، حسن التوسّل: 75.

(4) الحلبي، حسن التوسل: 72 وما بعدها.

(5) المرجع نفسه: 72.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى: 189/1.

بالقرآن الكريم في المكاتبات ونحوها: فقد أورد أنّ بعض العلماء ذهبوا إلى جواز ذلك ما لم يُحلْ عن لفظه ولم يتغيّر معناه. وقد ثبت في الصّحيح أنّ الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، كتب في كتابه إلى هرقل: ﴿ قُل يا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بيْنَنَا وبَيْنَكُمْ﴾[1]، إلى قوله: مسلمون. وكتب أبو بكر في عهدته لعمر بن الخطّاب- رضي الله عنهما-:﴿ ولِكُلِّ امْرِئٍ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ. وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوْا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُوْنَ﴾[2]. وكتب عليّ بن أبي طالب – كرّم الله وجهه- في آخر كتاب إلى معاوية: "وقد علمت مواقع سيوفنا في جدّك وخالك وأخيك ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ بِبَعِيْدٍ﴾[3]. وقال للمغيرة بن شعبة(50هـ/670م) لمّا أشار عليه بتولية معاوية: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّيْنَ عَضُدَاً﴾[4]. وذكر القلقشندي أمثلة عديدة على استشهاد الكُتَّاب بآيات القرآن الكريم، وبيّن أنّه لا يجوز تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنى عمّا أُريد به حسب رأي العلماء، حيث ذهب بعضهم إلى أنّ كلّ ما أراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به إلاّ فيما يُضاف إلى الله سبحانه وتعالى مثل قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيْدِ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُوْنَ﴾[6]، ونحو ذلك ممّا يقتضيه الأدب مع الله تعالى[7].

ويأتي تضمين الكلام بعض آي القرآن الكريم على صورتين، أولاهما: الاستشهاد بالقرآن الكريم، وهي أقلهما وقوعاً في الكلام ودوراناً في الاستعمال، وهي أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن الكريم، وينبّه عليه، وأورد القلقشندي أمثلة عديدة على استشهاد الكُتّاب بآي القرآن الكريم، منها قوله في المقامة التي أنشأها في كتابة الإنشاء، وفي فضل الكتابة: فقد نطق القرآن الكريم بفضلها، وجاءت السُّنّة

---

(1) سورة آل عمران: الآية: 64.

(2) سورة الشّعراء: الآية: 227.

(3) سورة هود: الآية: 83.

(4) سورة الكهف: الآية: 51.

(5) سورة ق: الآية: 16.

(6) سورة الزخرف: الآية: 80.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 190.

الغرّاء بتقديم أهلها، فقال جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه: ﴿ اقْرأ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الّذي علَّمَ بِالقَلَمِ. علَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(1)، فأخبر تعالى أنّه علّم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلى أنّ تعليمها من جزيل نعمه، وإيذاناً بأنّه منحها من أوفر جوده وفائض ديمه؛ وقال جلّت قدرته: ﴿ نۤ. وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُوْنَ. مَا أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُوْنٍ﴾(2)، فأقسم بالقلم، وما سطّرته الأقلام، وأتى بذلك في آكد قسم، فكان من أعظم الأقسام. وقال جلّت عظمته: ﴿ وَإنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِيْنَ. كِرَاماً كَاتِبِيْنَ﴾(3)، فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة الأنبياء عليهم السّلام، وإنّما مُنعها النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، معجزة بيّن الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله: ﴿وقَالُوا أسَاطِيْرُ الأوَّلِيْنَ اكْتَتَبَهَا﴾(4)".

ويُعدّ الصّابي(448هـ/1056م) من أكثر الكُتّاب الذين مشوا على هذا الأسلوب من الاستشهاد، ونبّهوا على آي القرآن الكريم في خلال كلامهم(5). وهذا الأسلوب من التّضمين يحتاج فيه الكُتّاب إلى مهارة في نزع آي القرآن الكريم ووضعها في مواضعها المناسبة(6).

أمّا الصّورة الثّانية فهي: الاقتباس، وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن الكريم، ولا يُنبّه عليه، كقول ابن فضل الله العمريّ في خطبة "التّعريف": "نحمده على فواضل زادت محاسن العلوم. وعرّفت تفاوت درجات الأولياء إذ قالوا ﴿وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوْمٌ﴾(7)، وقوله بعد ذلك: "وسماء الشيبة بضحى المشيب قد تجلّت،

---

(1) سورة العلق: الآية: 3.

(2) سورة القلم: الآية: 1و2.

(3) سورة الانفطار: الآية: 11.

(4) سورة الفرقان: الآية: 5؛ انظر النص: القلقشندي، صبح الأعشى: 35/1و195.

(5) المرجع نفسه: 195/1.

(6) ابن المدبر، الرسالة العذراء،: 7.

(7) سورة الصافات: الآية: 164؛ انظر النص: ابن فضل الله العمري(ت749هـ/1349م)، التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، ط1، جامعة مؤتة، 1413هـ/1992م: 2.

والنّفس قد ﴿ أَلْقَتْ مَا فِيْهَا وتَخَلَّتْ﴾[1]. وهناك أمثلة كثيرة لا مجال لذكرها جميعاً[2].

ويحتاج الكاتب إلى جانب حفظه لكتاب الله تعالى معرفة العلوم المختصّة به كالعلم بالقراءات السّبع والشّواذ، ومعرفة رجالها، ومن اشتهر منهم وعُرف بجودة القراءة، ومعرفة أعيان المفسّرين ورؤوسهم، ليماثل بأفاضلهم ويُقايس بأعيانهم في خلال ما يعرض له من الكلام، فقد ورد في التّعريف في وصيّة مقرئ: "وليدُم على ما هو عليه من تلاوة القرآن، فإنّه مصباح قلبه، وصلاح قربه، وصباح القبول المؤذن له برضا ربّه، وليجعل سُوَره له أسواراً، وآياته تظهر بين عينيه أنواراً. وليتل القرآن بحروفه، وإذا قرأ استعاذ، وليجمع طُرُقه وهي التي عليها الجمهور ويترك الشّواذّ، ولا يرتدّ دون غاية لإقصار، ولا يقف فبعد أن أتَمّ لم يبق بحمد الله إحصار، وليتوسّع في مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القرّاء السّبعة أئمّة الأمصار، وليبذل للطلبة الرّغاب، وليُشبع فإنّ ذوي النّهمة سِغَاب، ولْيُرِ النّاس ما وهبه الله من الاقتدار؛ فإنّه احتضن السّبع ودخل الغاب، وليُتمَّ مباني ما أتمّ ابن عامر وأبو عمرو له التّعمير، ولفّه الكسائيّ في كسائه ولم يقل جدّي ابن كثير، وحُمَّ به لحمزة أن يعود ذاهب الزّمان، وعرف أنّه لا عاصم من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان، وتدفّق يتفجّر علماً وقد وقفت السّيول الدّوافع، وضرّ أكثر قرّاء الزّمان لعدم تفهيمهم وهو نافع، وليُقبل على ذوي الإقبال على الطّلب، وليأخذهم بالتّربية فما منهم إلاّ من هو إليه قد انتسب، وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النّعماء، ووصل سببه منه بحبل الله الممتدّ من الأرض إلى السّماء، فليقدّر حقّ هذه النّعمة بحسن إقباله على التّعليم، والإنصاف إذا سُئل فعلم الله ما يتناهى وفوق كلّ ذي علم عليم"[3].

يُلاحظ أنّ الكُتّاب قد تفاوتوا في تضمين آي القرآن الكريم كلامهم، على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم.

---

(1) سورة الانشقاق: الآية: 4؛ انظر النص: العمري، التعريف: 5و6.

(2) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/197-200.

(3) ابن فضل الله العمري، التعريف: 192-193.

الإكثار من حفظ الأحاديث النّبويّة الشّريفة:

أشار بعض المصنّفين[1] إلى أهميّة حفظ الكُتّاب للأحاديث النّبويّة الشّريفة والآثار المرويّة عن الصّحابة- رضوان الله عليهم-، وخصوصاً في السِّير والمغازي والأحكام، ونجد ابن قتيبة قد ركّز على النّظر في علم الحديث ومعرفة أصوله: من حديث رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وصحابته، وأورد مجموعة من الأحاديث في الأحكام، وبيّن أنّ الكاتب إذا حفظها وتفهّم معانيها وتدبّرها أغنته بإذن الله تعالى عن كثير من إطالة الفقهاء[2].

وبيّن العلماء السّبب في النّظر في معاني الأحاديث وغريبها وفصاحتها، وفقه ما لا بُدّ من معرفته من أحكامها؛ وذلك ليُحتجّ بها في مكان الحجّة، ويستدلّ بموضع الدّليل، فإنّ الدليل على المقصد إذا استند إلى النّصّ سُلِّم له، والفصاحة إذا طُلبت غايتها فإنّها بعد كتاب الله في كلام من أُوتي جوامع الكَلِم[3].

وورد في "حسن التّوسّل" أمثلة كثيرة على إقامة الحجّة من قول رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ومن ذلك قول عكرمة بن أبي جهل في منازعة الأنصار "يوم السّقيفة": "والله لولا قول رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ الأئمّة من قريش، لما أبعدنا فيها الأنصار، ولكانوا لها أهلاً، ولكنّه قول لا شكّ فيه ولا خيار"[4]. ومن ذلك قول عليّ بن أبي طالب في حقّ الأنصار: "والله لو زالوا لزلت معهم، لقول رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم،: أزول معكم حيثما زلتم"[5].

---

(1) ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 11؛ ابن الأثير، المثل السائر: 31/1.

(2) ابن قتيبة، أدب الكاتب: 11.

(3) انظر: النويري، نهاية الأرب: 31/7.

(4) الحلبي، حسن التوسل: 79؛ ينظر: ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد (146-241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، طبعة مضبوطة، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1419هـ/1998م: 129/3، 184؛ الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، المستدرك على الصحيحين، دار الكتاب العربي، بيروت: 76/4.

(5) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين: 78/4، وفيه: "لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار...".

ويقسم تضمين الكلام للأحاديث الشّريفة على النّحو الآتي:

أولاً: الاقتباس من الحديث الشّريف، وهو تضمين الكلام شيئاً من الحديث والتّنبيه عليه، كما ورد في وصية عهد من خليفة لسلطان: "وأن يقوم بما يعقده الرّجل من عَرْض المسلمين، فإنّ ذمّته ذمّة جميع المؤمنين، وقد قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم،: "المسلمون يسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سِواهم"[1].

ثانياً: الاقتباس، وهو أن يُضمّن الكلام شيئاً من الحديث ولا يُنبّه عليه، وينبغي هنا أن يُراعى لفظ الحديث ما أمكن، وإلاّ فمعناه[2]. ومن الكُتّاب الذين أكثروا من اقتباس الأحاديث الشّريفة في كتاباتهم ابن الأثير، ومن ذلك قوله في دعاء كتاب: "أعاذ الله أيّامه مِنَ الغِيَر، وبيّن بخَطَر مجده نقص كلّ خَطَر، وجعل ذكره زاداً لكلّ ركب، وأُنساً لكلّ سَمَر، ومنحه من فضله ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر"[3]. أُخذ هذا القول من حديث رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، في وصف نعيم الجنّة: "فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"[4] فنقله إلى الدُّعاء.

وقد يشير الكاتب إلى ورود الأحاديث الشريفة التي تدعم رأيه دون أن يذكر نص الحديث، أو أن يُورد بعض ألفاظه، وقد ورد ذلك في كتاب المنصور إلى الآفاق بالبيعة إلى المهدي: "مؤملين لما في الأحاديث المأثورة من أهل الحق قبلهم موقنين بخيرة الله لهم"[5].

ويحتاج الكاتب إلى جانب حفظ الأحاديث النّبويّة الشّريفة معرفة أنواع الحديث وأقسامه: كالصحيح، والحسن، والمُرسل، والمرفوع، والمُسند، والمتّصل، والمنقطع، ونحو ذلك. كما يحتاج معرفة أسماء رجال الحديث ومشاهير المحدّثين: كالبخاري، ومسلم، وأبي داود، والنّسائيّ وغيرهم؛ ليُورد ما يحتاج إليه من ذلك في

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، بشرح الإمام النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت: 150/10.

(2) النويري، نهاية الأرب: 37/7؛ الحلبي، حسن التّوسل: 79.

(3) ابن الأثير، المثل السائر: 138/1، القلقشندي، صبح الأعشى: 207/1.

(4) مسلم، صحيح مسلم: 166/17.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 126/3.

غضون كلامه[1].

وورد في "التّعريف" في وصيّة لمحدِّث ما يدلّ على إلمام الكاتب بأقسام الحديث، ومنه: "وقد أصبح بالسُّنّة النّبويّة مُضطلعاً، وعلى ما جمعته طرق أهل الحديث مطّلعاً، وصحّ في الصّحيح أنّ حديثه الحسن، وأنّ المُرسل منه في الطّلب مقطوع عنه كلّ ذي لسن، وأنّ سنده هو المأخوذ عن العوالي، وسماعه هو المرقص منه طول الليالي، وأنّ مثله لا يوجد في نسبه المعرق، ولا يعرف مثله للحافظين ابن عبد البر بالمغرب، وخطيب بغداد بالمشرق، وهو يعلم مقدار طلب الطالب، فإنّه طالما شدّ له النِّطاق، وسعى له سعيه وتجشّم المشاقّ، وارتحل له يشتدّ به حرصه والمطايا مرزمة[2]، وينبهه له طلبه والجفون مقفلة، والعيون مهومة، ووقف على الأبواب لا يضجره طول الوقوف حتى يؤذن له في ولوجها، وقعد القرفصاء في المجالس لا تضيق به على قصر فروجها.

فليعامل الطّلبة إذا أتوه للفائدة معاملة من جرّب، وليبسط الأقرباء منهم ويؤنس الغرباء منهم فما هو إلاّ ممّن طلب آونة من قريب وآونة تغرب، وليسفر لهم صباح قصده عن النّجاح، ولينتق لهم من عقوده الصّحاح، وليوضّح لهم الحديث، وليُرح خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السّير الحثيث، وليُؤتهم ممّا وسّع الله عليه فيه المجال، ويعلّمهم ما يجب تعليمه من المتون والرّجال، ويبصّرهم بمواقع الجرح والتّعديل، والتّوجيه والتّعليل، والصّحيح والمعتلّ الّذي تتناثر أعضاؤه سَقماً كالعليل، وغير ذلك ممّا لرجال هذا الشّأن به عناية، وما ينقب فيه عن دراية، أو يقنع فيه بمجرّد رواية ومثله ما يزاد حلماً، ولا يعرف بمن رخص في حديث موضوع أو كتم علماً"[3].

نجد في هذه الوصيّة أنّ الكاتب قد ذكر أقسام الحديث الشّريف: كالصّحيح، والحسن، والمرسل، والمقطوع، وذكر أيضاً بعض المحدّثين مثل: ابن عبد البرّ،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 208/1و209.

(2) مرزمة:صوت تخرجه الناقة من حلقها لا تفتح به فاها. (ابن منظور، لسان العرب: رزم).

(3) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشّريف: 193-194.

وخطيب بغداد، كما ذكر أيضاً ما يتعلّق بطرق جمع الحديث والسّعي الحثيث في طلبه، وتجشّم المشاق من أجل ذلك، وكيفيّة معاملة من جاء لطلب الحديث الشّريف، وما ينبغي تعليمهم إيّاه من متون ورجال ومواقع جرح وتعديل، وبيان الصّحيح والمعتلّ وكلّ ما يتعلّق بالحديث الشّريف من علوم ومعارف.

أمّا ما يتعلّق بمعرفة رجال الحديث فمنه ما ورد قول الشّيخ جمال الدّين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرسيّ الشّام: "ولأنّه الحافظ الذي أحيا ذكر ابن نقطة بعدما دارت عليه الدّوائر، وأغنى وحده دمشق عمّن أتى في النّسب بعساكر"[1].

وأخيراً يمكن القول إنّ ثقافة الكاتب الإسلاميّة، ولا سيّما القرآن الكريم والحديث الشّريف تزوّده بمعرفة عميقة يستعين بها في كتابة الرّسائل، حيث يحتاج لها في مواضع مختلفة.

المعرفة باللغة العربيّة:

دعا عبد الحميد الكاتب(132هـ/750م) الكُتّاب بعد التّفقه في الدّين إلى الإلمام باللغة العربيّة، فقال: "... ثمّ العربيّة فإنّها ثقاف ألسنتكم"[2]. وتُعدّ معرفة العربيّة من نحو وتصريف أوّل ما ينبغي إتقانه لكلّ من ينطق باللسان العربي، وذلك ليأمن معرّة اللحن[3]. وعليه قراءة ما يتهيّأ من مختصرات اللغة، كـ "الفصيح" و"كفاية المتحفظ" وغيرها من كتب الألفاظ ليتّسع عليه مجال العبارة، فينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه، ويضطرّ إلى نعته.

ويُعدّ النحو هو الأساس الذي يجب إتقانه لأنّ الكاتب لو أتي من البلاغة بأتمّ ما يكون ولحن ذهبت محاسن ما أتى به وانهدمت طبقة كلامه، وألغي جميع ما حسّنه ووُقِفَ به عند ما جهله[4]، لذا فإنّ على الكاتب أن يكبّ على الإعراب ويلازمه،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 210/1.

(2) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 75؛ ابن خلدون، المقدمة: 248.

(3) ابن الأثير، المثل السائر: 10/1.

(4) النويري، نهاية الأرب: 31/7.

حتّى يستقيم لسانه عليه، وينأى عن اللحن، خاصّة أنّ بعض الخلفاء كان يتفقّد ما يكتب به الكُتّاب. فقد روي "أنّ المأمون كان يتفقّد ما يكتب به الكُتّاب، فيُسْقِط مَنْ لَحَن، ويحطّ مقدار من أتى غيره أجود منه في العربيّة، فكان الكُتّاب يتثابرون على ما يأخذون من النّحو لمّا كان الرّؤساء يتفقّدون هذا منهم، ويقرّبون العلماء"(1).

يجب إلاّ تقتصر معرفة الكُتّاب على النّحو، وإنّما يجب أن تتعدّاه إلى معرفة الغريب، وهو ما ليس بمألوف الاستعمال، ولا دائر على الألسنة، وعلى الرّغم من أنّ الكاتب مدعوّ لاستعمال المتداول المألوف من فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب طمعاً في البلاغة كما قال ابن المقفّع لبعض الكُتّاب: "إيّاك والتّتبّع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإنّ ذلك هو العيّ الأكبر. وقال لآخر: عليك بما سهل من الألفاظ مع التّجنب لألفاظ السّفلة"(2)؛ فإنّ عليه معرفة الغريب لأنّه ربّما ترد عليه ألفاظ غريبة وردت في القرآن الكريم أو الأحاديث الشّريفة أو الشّعر فيحتاج إلى معرفة معناها، وهذا ما أشار إليه صاحب "الرّيحان والرّيعان" في قوله: "والغريب وإن لم يُنْفِق منه الكاتب فإنّه يجب أن يُعلَم ويُتَطلَّع إليه ويُستَشرف؛ فربّ لفظة في خلال شعر أو خُطبة أو مَثَل نادر أو حكاية، فإن بقيت مُقْفَلَة دون أن تُفْتَح لك، بقي في الصّدر منها حزازة تحُوْج إلى السّؤال، وإن صُنت وجهك عن السّؤال رضيت بمنزلة الجُهّال"(3).

ويُعدّ من العيب على الكاتب عدم معرفته الغريب من الألفاظ، وقد يعرّضه للنّقد من قبل الآخرين أو حتى العزل، فقد سأل المعتصم الكاتب أحمد بن عمّار، وكان يتقلّد العَرْض عليه، وكان المعتصم ضعيف البصر بالعربيّة، فلمّا قرأ عليه أحمد بن عمّار الكتاب وسأله عن الكلأ فلم يعرفه، قال: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون: خليفة أُمّيّ، وكاتب عاميّ، ثمّ قال من يَقْرُب منّا من كُتّاب الدّار فُعّرِف مكان محمد

---

(1) ابن النحاس، صناعة الكتاب: 36.

(2) علي، محمد كرد، رسائل البلغاء، ط2، دار الكتب العربية الكبرى، 1331هـ/1913م: 12.

(3) نقلاً عن: القلقشندي، صبح الأعشى: 151/1.

ابن عبد الملك الزّيات(ت233هـ/847م)، وكان يقف على قهرمة[1] الـدّار فـأمر بإشخاصه، فلمّا مَثَل بين يديه، قال له ما الكلأ؟ قال: النّبات كلّه رطبه ويابسه، فـإذا كان رطباً قيل له خلأ، وإذا كان يابساً قيل له حشيش، وأخذ في ذكر النّبـات مـن ابتدائه إلى اكتهاله إلى هيجه، فقال المعتصم: ليتقلّد هذا العَرْض علينا"[2].

ظهر أنّ معرفة الغريب من الأمور الضروريّة للكاتب والتي هي مـن أهـمّ شأنه، وقد عنى العديد من المؤلفين بها وصنّفوا الكتب في هذا الشّأن، ومـن تلـك الكتب "الصحاح" للجوهري، و "محكم ابن سيدة"، و "مجمل ابن فـارس"، وغيرهـا الكثير.

ولا يستغني الكاتب أيضاً عن معرفة المتباين والمترادف، والمتباين هو ما دلّ لفظ الكلمة منه على خلاف ما دلّت عليه الكلمة الأخرى، كالسّواد والبياض، والطّول والعرض، ويحتاج الكاتب إليه في التّعبير عن المعاني المختلفة لاتّساع نطاق الكلام. أمّا المترادف فهو المتوارد الألفاظ على مسمّى واحـد كالأسـد والسّـبع للحيـوان المفترس، ويحتاج الكاتب إليه للتّخلص عند ضيق الكلام في موضع لطول لفظـة أو قصرها أو اختلاف وزنها في شعر، أو رعاية الفاصلة في آخر الفقرة في نثـر أو غير ذلك[3].

ويحتاج الكاتب أيضاً إلى معرفة الحقيقـة والمجـاز، والألفـاظ المتضـادّة، والمقصور والممدود، والمذكّر والمؤنّث، والمهموز وغير المهموز، وما ورد مـن كلام العرب مزدوجاً كقولهم: الطِّم والرِّم (البحر والثّرى)، وما ورد مـن كلامهـم مثنى كقولهم: القمران (الشّمس والقمر)، وما ورد من كلامهم مرتّباً كقولهم أوّل

---

(1) بمعنى أنّه كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرّجل بلغة الفـرس.(ابـن منظور، لسان العرب: قهرم).

(2) ابن قتيبة، أدب الكاتب: 7؛ القلقشندي، صبح الأعشى:1/ 151و152؛ الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي(ت453هـ/1061م)، زهر الآداب وثمـر الألبـاب، مفصـل ومضـبوط ومشروح بقلم زكي مبارك، حققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، 1989م: 841/3.

(3) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 153/1.

النّوم النّعاس، وهو الاحتياج إلى النّوم، ثمّ الوَسَن، وهو ثقل النّعاس، ثمّ الكرى والغمض، وهو أن يكون بين النّائم واليقظان، ثمّ التّغفيق، وهو النّوم وأنت تسمع كلام القوم، ثمّ الإغفاء، وهو النّوم الخفيف، ثمّ التّهجاع، وهو النّوم القليل، ثمّ الرّقاد، وهو النّوم الطّويل، ثمّ الهجوع، وهو النّوم الغَرِق، ثمّ التّسبيخ، وهو أشدّ النّوم، وما أشبه ذلك[1]. ومنها ما ورد من كلام العرب مورد الدّعاء، كقولهم: "تربت يداك"، أي ألصقت بالتراب من الفاقة، وقولهم "أرغم الله أنفه"، أي ألصقه بالرُّغام، وغيرها.

ولا بُدّ للكاتب من معرفة الأصول التي تُشتقّ منها الأسماء كتسمية القمر قمراً لبياضه، إذ الأقمر هو الأبيض، ومعرفة ما نطقت به العجم على وفق لغة العرب لعدم وجوده في لغتهم، وهو المعرب كالكفّ والسّاق والجمّال والقصّاب وغيرها. ومعرفة ما اشترك فيه العربيّة والفارسيّة، كالتّنور والخمير والدّينار وغيرها، أو ما اضطرّت العرب إلى تعريبه واستعماله في لغتهم مثل: الكوز والإبريق والطّست والخُوان وغيرها، أو ما تعدّدت لغاته، ومن ذلك ما فيه لغتان كقولهم: رِطْل ورَطْل بكسر الرّاء وفتحها، وما فيه ثلاث لغات مثل: بُرْقُع بضمّ القاف، وبُرْقَع بفتحها، وبُرْقُوع بضمّ الباء وزيادة الواو، وما فيه أربع لغات مثل: نَطْعِ بكسر النون وفتحها وسكون الطّاء ونَطَع بفتح النون والطّاء جميعاً وكسر النّون، وما فيه خمس لغات كقولهم: ريح الشَّمال بفتح الشّين من غير همز، والشّمأل بالهمز، والشّامل بغير همز، والشَّمَل بفتح الميم، والشَّمْل بسكونها، وما فيه ست لغات كفُسطاط بضمّ الفاء وفِسطاط بكسرها، وفُستَاط بضمّ الفاء وإبدال الطّاء تاء، وفِستاط بكسر الفاء، وفُسَّاط بضمّ الفاء وتشديد السّين، وفِسَّاط بكسر الفاء، وما فيه تسع لغات كالأَنْمُلَة بفتح الهمزة وضمّها وكسرها مع فتح الميم وضمّها وكسرها، وما فيه عشر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمّها وكسرها مع فتح الباء وضمّها وكسرها، والعاشر أُصبُوع[2].

---

(1) انظر: أبو منصور الثعالبي(ت430هـ)، فقه اللغة وأسرار العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت: 111؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 157.

(2) انظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب:461 وما بعدها؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 1/158-159.

ويجب على الكاتب أن يعرف الفصيح من اللغة وما نطق به فصحاء العرب: كقريش، وهُذيل، وكِنانة، وقيس عيلان، وبعض تميم، وعرب الحجاز، وأوساط نجد؛ لأنّ هؤلاء بقيت ألفاظهم سالمة من التّغيير والاختلاط، وإلى جانب معرفة الفصيح من اللغة عليه أن يعرف أيضاً ما تلحن فيه العامّة وتغيّره عن موضعه.

إنّ اختيار الكُتّاب بعض الألفاظ الكتابيّة، ومعرفتها أمر ضروريّ للكاتب، وقد يتمّ اختيار هذه الألفاظ استحساناً لها وتمييزاً لها في الطلاوة والرّشاقة على غيرها، قال الجاحظ: "ما رأيت أمثل طريقة من هؤلاء الكُتّاب، فإنّهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً حوشياً، ولا ساقطاً سوقياً"[1]. وذكر ابن الأثير: "إنّ الكُتّاب غربلوا اللغة وانتقوا منها ألفاظاً رائقة استعملوها"[2]، ومن هذه الألفاظ قولهم في المدح: "فلان غرّة القبيلة، وسنامها، وذؤابتها، وذروتها،....، وقولهم في إصلاح الفاسد: أصلح الفاسد، ولمّ الشّعث، ورأب الصدع..."[3]. وحفظ هذه الألفاظ يُمكّن الكاتب من التّعبير عن المعاني التي يُضطر إلى الكتابة فيها، وتسهّل عليه التّعبير عن مقصوده بسهولة ويسر.

ولا يخفى أنّ الكاتب أصبح فيما بعد بحاجة إلى جانب معرفته باللغة العربيّة أن يعرف اللغات الأعجميّة مثل التركيّة والفارسيّة والرّوميّة، وعليه أن يتعلّم منها المخاطبة والمكاتبة، أمّا المخاطبة فالكاتب يحتاج إلى معرفة لسان السّلطان الذي يتكلّم به هو وعسكره، خاصّة أنّ اللغة التركيّة غلبت على ملوك الدّيار المصريّة، وغلبت الفارسيّة على ملوك بلاد العراق وفارس، وغلبت البربريّة على ملوك المغرب. وأمّا المكاتبة فإنّه يحتاج ذلك ليعرف لسان الكتب الواردة على ملكه ليترجمها له ويُجيب عنها بلغتها التي وردت بها[4].

ويحتاج الكاتب أيضاً إلى الإلمام بالتّصريف كما يقول القلقشندي: " ليعرف

---

(1) الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر(ت255هـ/868م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط4، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت: 137/1.

(2) ابن الأثير، المثل السائر: 65/1.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 162/1.

(4) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 165/1 وما بعدها.

أصل الكلمة، وزيادتها، وحذفها، وإبدالها، فيتصرّف فيها بالجمع والتّصغير والنّسبة إليها وغير ذلك"[1]. ويحتاج كذلك إلى معرفة علوم المعاني، والبيان والبديع، ليتوصّل بذلك إلى فهم ما يرد عليه من الرّسائل، ويكون لديه القدرة على إنشاء الرّدّ عليها وفق قوانين اللغة في التركيب، مع قدرة على الاستفادة من أقوال البلغاء والفصحاء والشّعراء وتوظيفها أثناء الكتابة وتأدية المعنى المطلوب بها.

وقد بيّن الشهاب محمود الحلبي وجه احتياج الكاتب إلى هذه العلوم، حيث يزيد بها قدره، ويزيّن العلم بها نظمه ونثره، فهي من المكملات لفن الكتابة، وقد يستغني عنها صاحب الذّهن الثّاقب، والطّبع السّليم، والقريحة المطاوعة، والفكرة المنقّحة، والبديهة المجيبة، والرّواية المتصرّفة: "لكن العالم بها متمكّن من أزمّة المعاني يقول عن علم، ويتصرّف عن معرفة، وينتقد بحجّة، ويتخيّر بدليل، ويستحسن ببرهان، ويصوغ الكلام بترتيب"[2]. وكما يحتاج إلى معرفة هذه العلوم بطريق الذّات، يحتاج إليها بطريق العَرَض من جهة معرفته بالبلغاء كقسّ بن ساعدة، وسحبان بن وائل وغيرهم، ومعرفة ألفاظهم من فصل ووصل وتشبيه ومقابلة ومطابقة وغير ذلك من ألفاظهم

أمّا وجه احتياجه لمعرفة البلغاء فيكون في باب المفاضلة، فقد يكتب إليه ممّن يُنسب مثله إلى البلاغة فيفضّله بمساواته لبليغ من البلغاء، أو إمام من أئمّة الصّنعة. أمّا الألفاظ فإنّه قد يستعملها في تفاصيل كلامه[3].

الإكثار من حفظ خطب البلغاء والتّفنن في أساليب الخطباء:

يترتّب على الكاتب في ديوان الرّسائل أن يحفظ شيئاً من خطب العرب؛ لأنّ الكتابة نُسجت على منوال الخطابة، وعلى طريق الخُطباء مشت الكُتّاب كما يقول أبو جعفر النّحاس، ويحتاج الكاتب إلى حفظ هذه الخطب لأنّها: "من مستودعات سرّ

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 177.

(2) الحلبي، حسن التّوسل: 100.

(3) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 180-189.

البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبهـا نطقـت الخلفـاء والأمراء على منابرهم، بها يتميّز الكلام، وبها يُخاطب الخاصّ والعامّ"[1].

ويُعدّ اطّلاع الكاتب على خطب البلغاء من الأمور الضروريّة؛ لأنّه قد يجـد فيها ما يحتاج إليه من ألفاظ وعبارات بليغة وحكم، إضافة لـذلك فإنّه ربما اقتـدى بأصحابها، وسار على نهجهم في تصرفاتهم في بعض المواقف، وفي مثل هذا يقول الشّهاب محمود الحلبي: "ويتّصل بـذلك حفـظ خطـب البلغـاء مـن الصّـحابة وغيرهم...وما ادّعاه كلّ منهم لنفسه، أو لقومه وما ينقضه عليه خصمه لما في ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها وتلقي الحوادث بما شاكلها، واقتداء بطريقة مَنْ فَلَج على خصمه، واقتفاء آثار مَنْ اضطرّ إلى عذر، أو إبطال دعـوى، أو إثباتهـا، فلحـن بحجّته، تخلّص بلطف مأخذه، ودقّة مسلكه، وحسن عبارته"[2].

ويعترف عبد الحميد الكاتب بأنّ الفضل في بلاغته يعود إلى حفظه لكلام عليّ ابن أبي طالب -كرّم الله وجهه- فعندما سئل ما الذي مكنك من البلاغة، قال: "حفظ لكلام الأصلع يعني أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب"[3].

ومن هنا فإنّ الكاتب إذا أُتيحت له فرصة حفـظ الخطـب البليغـة، وحفـظ مقاصدها، وموارد الفصاحة، ومواقع البلاغة، وعرف مصاقع الخطباء ومشاهيرهم مثل: قسّ بن ساعدة، وسحبان بن وائل، وغيرهم، يتّسع مجال الكلام أمامه، وتسهل عليه المعاني، وتفيض على لسانه في وقت الحاجة إليها دون شغل فكر أو بذل جهد في استنباطها.

النّظر في رسائل المتقدّمين من بُلغاء الكُتّاب ومحاوراتهم ومراجعاتهم وما ادّعـاه كلّ منهم لنفسه أو لقومه:

---

(1) ابن النحاس، صناعة الكتاب: 253؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 210/1.

(2) الحلبي، حسن التوسل: 81؛ النويري، نهاية الأرب: 31/7.

(3) كرد علي، رسائل البلغاء: 16؛ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بـن إسـماعيل الثعالبي النيسابوري(ت429هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1965م: 197.

ويكتفي الكُتّاب في هذا المجال بالنّظر في هذه الرّسائل دون حفظها، كما أنّهم لا يعتمدون عليها في الاقتباس لمخالفتها لأسلوبهم في أكثر الأمور، وإنّما يكتفون فقط بحفظ مواقع البلاغة فيها.

وترجع أهميّة النّظر في هذه الرّسائل لما في ذلك من: "تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطرق والنّسج على منوال المجيد، والاقتداء بطريقة المحسن، واستجلاء ما أنتجته القرائح من أبكار الأفكار، واستجلاء ما روّقته الخواطر في حياض الألفاظ، واستدراك ما فات القاصر، والاحتراز ممّا أظهره النّقد، وردّ ما بهرجه السّبك"[1].

وتُعدّ هذه الرّسائل مادّة غنيّة يفيد منها الكُتّاب من حيث البلاغة، والفصاحة، وفي مثل ذلك يقول ابن المدبر في رسالته: "فإن أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة، فتصفّح من رسائل المتقدّمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه: في تلقيح ذهنك، واستنجاح بلاغتك، ومن نوادر كلام النّاس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار، والسّير والأسمار، ما يتّسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك"[2].

أمّا بالنّسبة لكيفيّة إفادة الكاتب من هذه الرّسائل فإنّه يفيد ممّا ورد فيها من معاني وألفاظ كتّابها فينسج على منوالهم، أو يقترح طريقة تخالفهم، أو أنّه يأخذ المعنى فيورده بألفاظ أخرى.

الإكثار من حفظ أشعار العرب:

يجب على الكاتب أن يكون حافظاً لأشعار العرب بغض الطّرف عن زمانها؛ لأنّ حفظها، ومطالعة شروحها، واستكشاف غوامضها، والوقوف على ما اختاره العلماء منها، كالحماسة، والمفضّليّات، والأصمعيّات، وديوان الهذليين، وما أشبه ذلك، يتوافر فيه المادّة الغزيرة، وصحّة الاستشهاد، والاطّلاع على أصول اللغة

(1) الحلبي، حسن التوسل: 93؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 227/1.

(2) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 7.

ونوادر العربيّة[1].

ويستحسن الاستشهاد بالأشعار في بعض المواضع؛ لأنّ لها من البهجة في النّفس، والوقع في القلب ما ليس للمنثور؛ ولأنّ للكاتب حريّة التّصرّف بها حيث يستطيع إدراجها في طيّات رسائله، وفي مثل هذا يقول ابن الصّيرفي: "وربّما حلّ منه – المنظوم– ما يحتاج إليه فأتى به منثوراً في أثناء رسائله وطيّ إنشاءاته، فكم معنىً بديع رائع قد حظي به المنظوم دون المنثور[2].

ويستطيع الكاتب إذا حفظ الأشعار وتدبّر معانيها أن يحلّها، وأن يعرف مواطن الاستشهاد بها في مواضع الاستشهاد، أو التّضمين بها في مواضع التّضمين، وبالتّالي يسوقه الكلام إلى إبراز ذخيرة ما حفظه منها، فاستعملها في محلها، ووضعها في أماكنها، على حسب ما يقتضيه الحال في إيرادها واقتباس معانيها، ويرى الجاحظ أنّ الكاتب أقدر من غيره على تذوّق الشّعر وتفهّم لغته وإدراك طبيعته وتعريف الآخرين به، قال: "طلبت علم الشّعر عند الأصمعي فوجدته لا يُحسن إلاّ غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يُتقن إلاّ إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلاّ ما اتّصل بالأخبار وتعلّق بالأيّام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلاّ عند أدباء الكُتّاب كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزّيّات"[3].

وهذا يعني أنّهم يتميّزون عن غيرهم من الرّواة والإخباريين والنّحاة واللغويين، فمن الكُتّاب أدباء وشعراء يدركون الفروق بين العمل العقلي والعمل الوجداني، وأنّ الأوّل منهما قد يضرّ بالأدب، وأنّ الثّاني فيه الفن والإحساس[4].

ولا يقتصر الكاتب في حفظه للأشعار على شعر المتقدّمين، إنّما يتعدّاه إلى حفظ جانب جيّد من شعر المحدثين، كأبي تمام ومسلم بن الوليد والبحتري وابن الرّومي والمتنبّي وذلك: "للطف مأخذهم، ودوران الصّناعة في كلامهم، ودقّة توليد المعاني

---

(1) انظر: النويري، نهاية الأرب: 32/7.

(2) ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 11.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين: 116/1.

(4) انظر: عبد العال، محمد، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان، 1996م: 171.

في أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة، وخصوصاً المتنبّي، الذي كأنّه ينطق عن ألسنة النّاس في محاوراتهم، وكثر الاستشهاد بشعره حتّى قلّ مَنْ يجهله"(1).

ويُستحسن أن يكون الكاتب محسناً لنظم الشّعر مُجيداً فيه، فإذا كان ذلك فيه "كان أجمل لصفاته وأكمل لأدواته"(2).

أمّا كيفية استخدام الكاتب للأشعار في صناعته فيكون بإحدى الطرق الآتية:

أولاً: الاستشهاد، وهو أن يُورد البيت من الشّعر أو البيتين، أو أكثر في خلال الكلام المنثور مطابقاً لمعنى ما تقدّم من النّثر، ولا يُشترط فيه أن يُنبّه عليه بقال ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة الشّريفة، فإنّ الشّعر يتميّز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلى التّنبيه عليه.

يكثر الاستشهاد بالشّعر في الرّسائل الموضوعة لرياضة الذّهن، وتنقيح الفكر كرسائل الصّيد والفتوح، فقد يكون كلّ المكاتبة أو جلّها شعراً، وقد يكون صدرها شعراً وذيلها نثراً والعكس، وقد يكون طرفاها نثراً وأوسطها شعراً، والعكس، وربّما اكتفى الكاتب بالبيت الواحد للدّلالة على المقصد وبلوغ الغرض في المكاتبة.

ويقلّ الاستشهاد بالشّعر في مكاتبات الملوك، وعدّ ابن المدبّر ذلك عيباً واستهجاناً، يقول: "فإنّ تضمين المثل السّائر، والبيت الغابر، ممّا يزين كتابك، ما لم تُخاطب خليفة أو ملكاً جليل القدر، فإنّ اجتلاب الشّعر في كتب الخلفاء والجلّة الرّؤساء عيب واستهجان للكتب، إلاّ أن يكون الكاتب هو القارض للشّعر والصّانع له، فإنّ ذلك ممّا يزيد في أبّهته ويدلّ على براعته"(3).

ثانياً: التّضمين، وهو أن يُضمّن البيت الكامل من الشّعر أو نصف البيت لبعض القرينة.

---

(1) الحلبي، حسن التوسل: 92-93؛ النويري، نهاية الأرب: 33/7؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 273/1.

(2) ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل: 11.

(3) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 7و8.

ثالثاً: الحلّ، وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشّعر ذوات المعاني فيحلّها من عُقُل الشّعر، ويسبكها في كلامه المنثور، وذلك بأن يأخذ البيت من الشّعر فينثره بلفظه، أو أن ينثر المنظوم ببعض ألفاظه، ويستعمل عن بعضها الآخر ألفاظاً أخرى، أو أن يأخذ المعنى ويكسوه ألفاظاً من عنده، ويصوغه بألفاظ غير ألفاظه[1] فإنّ الشّعر هو المادّة الثّالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة الشّريفة[2]. وينبغي على الكاتب أن يعرف علم العَروض[3]، الذي هو ميزان الشّعر، فيعرف مصطلحاته وبحوره وكلّ ما يتعلّق به ليدخلها في تضاعيف كلامه عند احتياجه إلى ذلك.

الإكثار من حفظ الأمثال:

يحتاج الكاتب إلى النّظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نظماً ونثراً كأمثال الميداني، والمفضّل الضّبيّ، وحمزة الأصبهاني وغيرهم، وأمثال المحدثين الواردة في أشعارهم كأبي العتاهية وأبي تمام والمتنبي، وأمثال المولدين[4]، وكذلك يحتاج إلى معرفة الأمثال الموضوعة على ألسن الحيوان عن العرب وغيرهم ليستشهد بالمثل في موضوعه ويورده في مكانه، وعليه أن يكون عارفاً بأصل ذلك المثل وما بُني عليه والموقف الذي قيل فيه.

ويطلب إلى الكاتب حفظ الأمثال؛ لأنّه متى حفظها انقادت إليه ألفاظها في وقت الاحتياج إليها في المواقف والأحوال المشابهة لوقائعها، وبالتالي يسهل عليه أن يضعها في مكانها، ويستشهد بها في موضعها.

وتبرز أهمية حفظ الكاتب للأمثال في أنّها تزين الكتابة كما يقول ابن المدبر في رسالته: "فإنّ تضمين المثل السائر، والبيت الغابر، ممّا يزين كتابتك، ما لم تخاطب

---

(1) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/281-288.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/273 وما بعدها.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 1/294؛ ابن المدبر، الرسالة العذراء: 7.

(4) الحلبي، حسن التوسل: 95؛ النويري، نهاية الأرب: 7/34؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 295.

خليفة أو ملكاً جليل القدر"[1]، كما أنّها تُبرز براعة الكاتب في الكتابة؛ إذ أن الألفاظ الواردة في المثل تدلّ وتعبّر عن المراد بها بأخصر لفظ وأوجزه.

وقد أشار صاحب العقد إلى المكانة التي تحتلها الأمثال؛ حيث تُعدّ بمنزلة الرموز أو الإشارة التي يستخدمها الكاتب ليعبّر بها عن المعنى الكليّ المبسوط، لذا لا ينبغي الإخلال بمعرفتها: "والأمثال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدّمتها العجم، ونُطق بها في كلّ زمان على كلّ لسان، فهي أبقى من الشّعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء كسيرها، ولا عمّ عمومها، حتّى قالوا: أسير من مثل..."[2].

أمّا كيفية توظيف هذه الأمثال في الكتابة، فإنّ الكاتب قد يقتبس المثل كاملاً ويُورد نصّه بلا تغيير، أو أن يحلّه ويضمّن المعنى في كتابته، وينبغي عليه أن لا يُبدّل الألفاظ ولا يُغيّر أوضاعها؛ لأنّها بذلك قد عُرفت واشتهرت[3].

النّظر في أنساب الأمم من العرب والعجم وأيّامهم ووقائعهم وحروبهم، وتسمية الأيّام التي كانت بينهم:

يحتاج الكاتب في مكاتباته إلى معرفة أنساب الأمم؛ لأنّه يكتب عن ملكه إلى ملك آخر، فإن لم يكن عارفاً بنسبه، كان قاصراً فيما يكتبه من ذلك، وإلى جانب ذلك ينبغي عليه أن يُلمّ بأيّام الحروب الواقعة، وتسمية هذه الأيّام، ومعرفة يوم كلّ قبيلة على أخرى، خاصّة عند قبائل العرب، وما جرى بينهم في ذلك من الأشعار والمنافسات، وذكر فارس مشهور، أو ملك مذكور، فإنّ صاحب هذه الصّناعة إذا لم يكن عارفاً بهذه الأيّام، عالماً بما جرى فيها لم يدرِ كيف يُجيب عمّا يرد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها، ويكفيه ذلك نقصاً في صناعته وقصوراً[4].

---

(1) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 7.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد:2/3.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 301/1و302.

(4) انظر: الحلبي، حسن التوسل: 86؛ النويري، نهاية الأرب: 32/7؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 390/1.

وإلى جانب هذه المعارف والعلوم التي يحتاج الكاتب إلى معرفتها، هناك جملة من الأمور الكليّة التي لا بُدّ للمترشّح لصناعة الكتابة من التّصدّي لها، والانكباب على مطالعتها والاستكثار منها، وهي:

1- النّظر في الأحكام السّلطانيّة؛ لأنّه قد يُؤمر بأمر يعرف به كيف يخلص قلمه على حكم الشّريعة المطهّرة من تولية القضاء والحسبة وغير ذلك[1].

2- النّظر في التّواريخ، ومعرفة أخبار الدّول، وهو بذلك يطّلع على سير الملوك وسياستهم، ووقائعهم، ومكائدهم في حروبهم، وتجاربهم[2]، وحسب الكاتب نقصاً وقصوراً أن يسأل عن أحوال من قد سلف، أو يرد عليه في كتاب ذكر واقعة بعينها، أو يحتجّ عليه بصورة قديمة، فلا يعرف حقيقتها من مجازها، ولا صدقها من مينها[3].

3- النّظر في أوابد العرب، وعاداتهم وتقاليدهم: والأوابد الأمور التي كانت عليها العرب في الجاهلية، وتتعلّق بالمعتقدات الدّينية والعادات والخرافات التي يعتقدون بها، والتي أبطلها الإسلام عندما جاء، ومنها: الكهانة[4]، والزّجر، والطيرة[5]، والميسر[6]،

---

(1) الحلبي، حسن التوسل: 100.

(2) النويري، نهاية الأرب: 32/7.

(3) الحلبي، حسن التوسل: 88و89؛ النويري، نهاية الأرب: 32/7.

(4) الكهانة: هي الإخبار عن أمور غيبية بواسطة استراق الشياطين السّمع من السماء، وإلقاء ما يستمعونه من الغيبيّات إليهم، وقد كان في العرب قبل البعثة عدّة كهنة تعتمد العرب كلامهم، ويرجعون إلى حكمهم فيما يُخبرون به. (ابن منظور، لسان العرب: كهن).

(5) الزجر والطيرة: وهما في معنى واحد، وأصله أنّهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير؛ فإن طار يميناً كان له حكم، وإن طار شمالاً كان له حكم، وإن طار أماماً كان له حكم، وإن طار فوق رأسه كان له حكم، ومن ثمّ سميت الطيرة أخذاً من اسم الطير خاصّة الغراب. (ابن منظور، لسان العرب: زجر، طير).

(6) الميسر: ضرب من القمار كانوا يقتسمون به لحم الجُزُر التي يذبحونها بحسب قداح يضربونها، لكلّ قِدْح منها نصيب معلوم: وهي أحد عشر قدحاً: سبعة منها حظّ إن فازت وعليها غرم إن خابت، وأربعة منها تُثقّل بها القداح لا حظّ لها إن فازت، ولا غرم عليها إن خابت... (لسان العرب: يسر).

والأزلام[1]، والبحيرة[2]، والسّائبة[3]، والوصيلة[4]، والحام[5]، ونكاح المقت[6]، ورمي البعرة[7]، وقد ذكر القلقشندي مجموعة من هذه الأوابد التي كان العرب في الجاهلية يتعاملون بها[8].

ومن عادات العرب السائدة في الجاهلية إشعال النّار، وقد أطلقوا على هذه النّار أسماء تتعلّق بالسبب الذي أُشعلت من أجله، وهي ثلاث عشرة ناراً، منها: نار

---

(1) الأزلام: وهي ضرب من الطيرة، كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه، أخذوا قِدَاحاً مكتوباً على بعضها افعل، لا تفعل، وعلى بعضها نعم، وعلى بعضها لا، وعلى بعضها خُذ، وعلى بعضها سِر، وعلى بعضها سريع، فإذا أراد أحدهم سفراً مثلاً أتى سادن الأوثان، فيضرب له بتلك القداح ويقول: اللهم أيّها كان خيراً له فأخرجه فما خرج له عمل به، وإذا شكّوا في نسب رجل أجالوا القداح وفي بعضها مكتوب صريح، وفي بعضها مكتوب مُلحق؛ فإن خرج الصريح أثبتوا نسبه، وإن خرج المُلحق نفوه... (ابن منظور، لسان العرب: زلم).

(2) البحيرة: الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن عمدوا إلى الخامس منها ما لم يكن ذكراً فشقوا أذنها وتركوها، فلا يُجزّ وبرها، ولا يحمل عليها، ولا يذكر عليها اسم الله إن ذكّيت، وتكون ألبانها للرجال دون النساء. (ابن منظور، لسان العرب: بحر).

(3) السائبة: أن يُسيّب الرّجل شيئاً من ماله: بهيمة أو عبداً، فيكون حراماً أبداً وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء. (ابن منظور، لسان العرب: سيب).

(4) الوصيلة: الشاة إذا ولدت سبعة أبطن، يؤخذ السابع ويذبح إن كان ذكراً، ويترك إن كان أنثى، وإن كانا ذكراً وأنثى قيل وصلت أخاها فحرما جميعاً، وكانت منافعهما للرجال دون النساء. (ابن منظور، لسان العرب: وصل).

(5) الحام: إنّ الفحل إذا صار من أولاده عشرة أبطن، قالوا حمى ظهره، فيترك، ولا يحمل عليه شيء، ولا يركب، ولا يُمنع ماء ولا مرعى. (ابن منظور، لسان العرب: حما).

(6) نكاح المقت: هو نكاح زوجة الأب بعد وفاة الوالد. (ابن منظور، لسان العرب: مقت).

(7) رمي البعرة: إنّ المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها، تدخل خُصّاً، وتلبس شرّ الثّياب ولا تمسّ الطيب مدّة سنة، ثم يُؤتى بدابة: حمار أو شاة أو طير، فتفتضّ به أي تتمسّح به فقلّما تفتضّ بشيء إلاّ مات، ثم تخرج بعد ذلك فتُعطى بعرة فترمي بها، ثم تُراجع ما شاءت من طيب أو غيره، وقد نسخ الإسلام مثل ذلك. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى:403/1.

(8) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 1/ 398-408.

المزدلفة[1]، ونار الاستمطار[2]، ونار الحلف[3]، ونار الطّرد[4]، ونار الحرب[5]، ونار الحرّتين[6]، ونار السّعالي[7]، ونار الصّيد[8]، ونار الأسد[9]، ونار القِـرَى[10]، ونار السّليم[11]، ونار الفداء[12]، ونار الوسم[13].

وتُعدّ إقامة الأسواق من أبرز عادات العرب في الجاهلية، حيث كانوا يقيمونها في شهور السّنة، وينتقلون من بعضها إلى بعض، وتحضرها سائر القبائل العربيّة،

---

(1) نار توقد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراها من دفع من عرفة، وأول من أوقدها قصي بن كلاب. القلقشندي، صبح الأعشى: 409/1.

(2) كانوا في الجاهلية إذا حبس المطر جمعوا البقر وعقدوا في أذنابها وعراقيبها السلع والعُشر، ويصعّدون بها في الجبل الوعر، ويشعلون فيها النار، ويزعمون أنّ ذلك من أسباب المطر. القلقشندي، صبح الأعشى: 409/1.

(3) كانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحلف عندها، ويذكرون خيرها، ويدعون بالحرمان من خيرها على من نقض العهد، وحلّ العقد. القلقشندي، صبح الأعشى: 409/1.

(4) توقد خلف من يمضي ولا يستحبّ رجوعه. القلقشندي، صبح الأعشى: 409/1.

(5) توقد إذا أرادوا حرباً أو توقّعوا جيشاً، ليبلغ الخبر أصحابهم. القلقشندي، صبح الأعشى: 409/1.

(6) كانت في بلاد عبس، فإذا كان الليل تضيء نار تسطع، وفي النهار دخان مرتفع... انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

(7) ترتفع للمتقفّر فيتبعها فتهوي به الغول على زعمهم. القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

(8) نار توقد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها. القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

(9) نار توقد إذا خافوا الأسد لينفر عنها. القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

(10) نار توقد ليلاً ليراها الضيفان فيهتدوا إليها. القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

(11) كان العرب في الجاهلية يوقدون النار للملسوع إذا لُدغ، يساهرونه بها، وكذلك المجروح إذا نزف دمه، والمضروب بالسياط، ومن عضه الكلب، كي لا يناموا فيشتد الأمر بهم فيؤديهم إلى الهلكة. القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

(12) كان الملوك إذا أسروا نساء قبيلة وخرجوا للمفاداة أو الاسيهاب، كرهوا عرض النساء نهاراً فيفتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصّفي، فيوقدون النار لعرضهن. القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

(13) وهي النار التي يسم بها الرجل إبله. القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1.

ومن هذه الأسواق: سوق دومة الجندل، وهَجَر، والبحرين، وعُمان، وإرم وقُرى الشِّحر في اليمن، وعدن وحضرموت، ثمّ صنعاء، وأخيراً سوق عكاظ الذي كانوا يرتحلون إليه في الأشهر الحُرم، يتناشدون فيه الأشعار، ويتحاجّون، ويسعون في مفاداة أسراهم، ويرفعون مظالمهم إلى أصحاب الحكم، ثمّ يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحجّ، وبعدها يرجعون إلى أوطانهم[1].

القلقشندي، صبح الأعشى: 410/1و 411.

الفصل الثّالث

المؤثّرات الأجنبيّة في ديوان الرّسائل في العصر العبّاسيّ الأوّل

تعدّدت الآراء حول بدايات الكتابة في ديوان الإنشاء، فمنهم من يرى أنّه نشأ عربيّاً خالصاً، بدليل أنّ أوائل الكُتّاب فيه كانوا عرباً، مثل عبيد الله بن أوس، وقبيصة بن ذؤيب(ت86هـ/705م)، وروح بن زنباع(ت84هـ/703م)، وعبدالله بن أبي بكرة، ويحيى بن يَعمر(ت129هـ/746م)، وهذا ينقض قول من ذهب إلى أنّ نشأته كانت فارسيّة أو يونانيّة[1]، ومن الطّبيعي أن يتولّى أمر الرّسائل التي تتّصف بالفصاحة والبلاغة والجودة عرب، ممّن تتوفر فيهم تلك المواصفات، والتي لم تكن متيسّرة للفرس، هؤلاء الذين نافسوا العرب فيما بعد، فتعلّموا العربيّة، وأتقنوها، وبرعوا بها[2].

أمّا الرّأي الآخر فيذهب إلى أنّ الكتابة في ديوان الرّسائل لم يكن يتولاّها إلاّ الفرس -خاصّة في العصر العبّاسيّ- لأنّ الفرس كانت لهم القدرة الفائقة في الكتابة بينما العرب يفخرون بالسّيف لا القلم[3]، وربّما استند أصحاب هذا الرّأي إلى مقولة الجاحظ في الكتابة: "لا يتقلّدها إلاّ تابع، ولا يتولاها إلاّ من هو في معنى الخادم، ولم نرَ عظيماً قط تولّى كفاية نفسه"[4]، ولم يكن الموالي إلاّ من الفرس واليونان آنذاك.

ونجد إشارات أنّه على الرّغم من أنّ الكُتّاب كانوا من العرب، فإنّهم تأثّروا بكتابات الفرس وأساليبهم في التّعبير، فقد وصف عبد الملك بن مروان كاتبه روح ابن زنباع الجذاميّ بأنّه فارسيّ الكتابة[5]، وفي مثل هذا القول إشارة واضحة إلى أنّ

---

(1) انظر: نصار، نشأة الكتابة الفنية: 68.

(2) بيوض، حسين، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1996م: 27.

(3) انظر: أيوب، إبراهيم، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ط1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989م: 216.

(4) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ/1991م: مج1/ج190/2.

(5) الجهشياري، الوزراء والكتاب: 35.

العرب كانوا على اطّلاع على كتابات الفرس، وتأثّرٍ بها.

ومهما تعدّدت الآراء وتباينت حول بدايات الكتابة في ديوان الرّسائل، أهي عربيّة أم فارسيّة؟ فإنّ أكثر الكُتّاب في ديوان الرّسائل في العصر العبّاسيّ الأوّل كانوا من الفرس، ويعود ذلك إلى أسباب متعدّدة منها، زيادة نفوذ الفرس السياسي، إضافة لذلك ما كان عليه الفرس من ثقافة واسعة، ومعارف متعدّدة، وكان الخلفاء والولاة يختارون لدواوينهم كُتّاباً مبرّزين، يحسنون تصريف القول بحنكة واقتدار، ولديهم ثقافة واسعة في ميدان الثّقافة العامّة، ومعرفة تامّة في طرائق الكتابة وأساليبها، وإتقان للغة العربيّة التي حرص الفرس على إتقانها إلى جانب الفارسيّة، وبالتّالي فقد تبوّأ الفرس في ديوان الرّسائل مكاناً عليّاً، وازداد مجال تأثيرهم اتّساعاً، وازدادت مظاهرهم في الكتابة وضوحاً.

ويمكن القول إنّ هؤلاء الكُتّاب بحكم ما تفرضه عليهم هذه الوظيفة –التي تُعدّ من الوظائف المهمّة التي يتطلع كثير من الكُتّاب إلى العمل فيها– عليهم أن يتقنوا الكتابة الدّيوانيّة إتقاناً تامّاً، وبالتّالي فإنّ ثقافة الكاتب وسعة اطّلاعه يُعدّ الأساس الذي يعتمد عليه في كتابته، خاصّة وأنّه يكتب عن الخليفة في موضوعات شتّى، وإلى جهات متعدّدة، فعليه إذن أن يُلمّ أوّلاً بثقافة عصره التي لم تقم على الثّقافة الإسلاميّة وحدها، بل أثّرت فيها ثقافات استطاع العرب أن يمتصّوا أصولها، ويمزجوها في إطار حضارتهم العربيّة الإسلاميّة التي قوامها اللغة والدّين، وقد أشار الجاحظ إلى تلك الثّقافات التي أثّرت في الثّقافة الإسلاميّة قائلاً: "وقد نُقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونان، وحوّلت آداب الفرس..."[1].

ويمكن تفصيل أثر هذه الثّقافات في الثّقافة الإسلاميّة أوّلاً، وفي ديوان الرّسائل وكُتّابه ثانياً على النّحو الآتي:

الثّقافة الفارسيّة:

---

(1) الجاحظ، الحيوان، بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1357هـ: 75/1.

تُعدّ الثّقافة الفارسيّة من أولى الثّقافات التي أثّرت في العرب، وترجع صلات الفرس بالعرب إلى ما قبل الإسلام، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط، وسبباً لتوثيق الرّوابط بين الأمّتين.

وعندما جاء الإسلام، خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامي، وهاجر الفرس إلى البلاد العربيّة، وحذق الكثير منهم اللغة العربيّة وعلومها وآدابها، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب.

وقد ازداد الاتّصال بين العرب والفرس بقيام الدّولة العبّاسيّة التي قامت بمساعدة الفرس، ونُقلت الخلافة إلى بغداد، وأنشئ منصب الوزارة الذي كان زمامه بيد الفرس، وقد كانت الكتابة والنّبوغ بها سبباً إلى تسلّم الوزارة، لذا كان على الكُتّاب الذين يتنافسون عليها أن يثقّفوا أنفسهم بالثّقافة الفارسيّة.

وممّا زاد من نفوذ الفرس في هذا المنصب أنّ الخلفاء وجدوا في هؤلاء ضالّتهم لتنظيم الدّولة وضبطها من خلال خبرتهم التي نقلوها عن آداب البلاط السّاساني، وبالتّالي فقد قرّب خلفاء بني العبّاس الفرس، فاصطنعوهم اصطناع محتاج لخبرتهم[1].

وقد استطاعت طائفة من أبناء الفرس ممّن حصّلت قسطاً وافراً من الثّقافتين العربيّة والفارسيّة أن تستأثر بمنصب الكتابة، وتتصرّف في شؤون الخلافة، ومن هؤلاء: عبد الله بن المقفّع(142هـ/759م)، وسهل بن هارون(ت215هـ/730م)، وأحمد بن يوسف(213هـ/828م)، وعمرو بن مسعدة(217هـ/832م)، وغيرهم من كُتّاب العصر العبّاسيّ ذوي الأصل الفارسيّ.

وفي هذا العصر أصبحت الكتابة هي الجسر الذي يعبر عليه هؤلاء الكُتّاب إلى أرفع المناصب؛ لأنّ من يتقنها قد يُصبح رئيساً لمجموعة الدّواوين، أو وزيراً للخليفة، أو والياً لإقليم من الأقاليم، مثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذي ولي فارس، ومثل عمر بن مهران الذي ولي مصر، ومثل جعفر بن محمد بن الأشعث والي خُراسان للرّشيد، ومثل طاهر بن الحسين(ت207هـ/822م) قائد المأمون

---

(1) انظر: مصطفى، شاكر، دولة بني العباس، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، 1973: 531/1.

وواليه على خُراسان، وابنه عبد الله بن طاهر(ت230هـ/844م) والي مصر والشّام والجزيرة ثمّ والي خُراسان، ومثل أبي دلف العجليّ(ت226هـ/840م) قائد المأمون المشهور[1]، مثل هؤلاء جميعاً استطاعوا أن يتقلّدوا أرفع المناصب في الدّولة نتيجة لبراعتهم في الكتابة.

وكان منصب الكاتب يقتضيه "أن يكون واسع الثّقافة، متجدّد المعرفة؛ لأنّه يعرض على الخليفة أو الوالي ما يُرسل إليه، ويكتب عنه ما يرسل منه، فلم يكن بُدّ للكُتّاب من إجادتهم العربيّة، ومعرفتهم بالأدب الفارسي؛ لهذا ألمّوا بحكم العرب وحكم الفرس، ووقفوا على تاريخ العرب وتاريخ الفرس، وجمعوا بين حكم الخلفاء الرّاشدين وأكثم بن صيفي، وحكم بزرجمهر وكسرى أنو شروان"[2].

ويدلّ على تنوّع ثقافة الكاتب قول الجاحظ في بيان عيوب الكُتّاب خاصّة النّاشئ منهم: "ثمّ النّاشئ فيهم إذا وطئ مقعد الرّياسة، وتورّك مشورة الخلافة، وحُجزت السّلة دونه، وصارت الدّواة أمامه، وحفظ من الكلام فتيقه، ومن العلم مُلَحه، وروى لبزرجمهر أمثاله، ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله، ولابن المقفّع أدبه، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه، ودفتر كليلة ودمنه كنز حكمته، ظنّ أنّه الفاروق الأكبر في التّدبير، وابن عبّاس بالتّأويل..."[3]. وهكذا تُعدّ كتب الآداب الفارسيّة أشبه بمقرّرات يرجع إليها الكُتّاب ليغنوا بها معارفهم، ويجمّلوا أساليبهم وطرائق تعبيرهم، خاصّة وأنّ الكتابة قد أصبحت سبيلاً إلى الوزارة في هذا العصر، لذا جُعل من شروط اختيار الوزير أن يكون عالماً مطّلعاً، كاتباً بليغاً، وكذلك كان أكثر الوزراء في هذا العصر، ويدلنا ذلك على أنّ أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلميّة والبلاغة، فأبو مسلم الخُراساني(ت137هـ/755م) كان يحفظ كثيراً من الشّعر، وأبو سلمة الخلال(ت132هـ/750) كان فصيحاً عالماً

---

(1) انظر: ضيف، العصر العباسي الأول: 465؛ الفقي، عصام الدين، تاريخ الفكر الإسلامي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1417هـ/1997م:94.

(2) أمين، ضحى الإسلام: 172/1؛ الحوفي، أحمد محمد، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، ط3، دار نهضة مصر، القاهرة، 1968م: 176.

(3) الجاحظ، رسائل الجاحظ: مج1/ج191/2و192.

بالأخبار والأشعار والسِّير والجدل، والبرامكة كانوا ذوي مشاركة في كثير من العلوم والآداب، والفضل بن سهل(ت202هـ/818م) كان يسمّى ذا الرّياستين لجمعه بين رياسة السّيف ورياسة القلم[1].

وتُعدّ القدرة الكتابيّة التي كان يشترطها الخلفاء في الوزير من أكبر الأسباب التي جعلت الوزارة قصراً على أبناء الفرس؛ لأنّ هذه القدرة كانت عند الفرس أبين منها عند العرب[2].

وقد حذا هؤلاء الكُتّاب حذو أجدادهم الفرس، حتّى في مظهرهم الخارجي، كما كانوا يمتلكون ثقافة أوسع من ثقافة غيرهم، ودائرة معارفهم أوسع، ودرايتهم بأحوال النّاس الاجتماعيّة وتقاليدهم كبيرة، هذا فضلاً عن إجادتهم عملهم.

وممّا يدلّ على إفادة الكُتّاب من الثّقافة الفارسيّة، قول ابن المدبر لمن استفهمه جوامع أدوات البلاغة والكتابة: "وانظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم وتوقيعاتهم، وسيرهم ومكايدهم في حروبهم"[3]، وقد كانت ثقافة الكاتب في هذا العصر خير ما تمثّل فيه التّلاقي الثّقافي والفكري بين العرب والفرس.

وقد أدّت حركة التّرجمة التي شهدها هذا العصر إلى شيوع الثّقافة الفارسيّة، إذ شهد هذا العصر حركة ترجمة عن الفارسيّة واسعة النّطاق، وبذا أصبحت المعارف الفارسيّة تحت أيدي العرب وبلغتهم، تثقّفوا بها، ووسّعوا معارفهم، وبالتّالي فقد ساهمت المادّة الفارسيّة المترجمة في رقي الكتابة الدّيوانيّة وتطورها.

فقد أخذ طائفة ممّن يجيدون اللسانين العربي والفارسي ينقلون الكتب الفارسيّة إلى العربيّة، وقد عقد النّديم فصلاً لأسماء النّقلة من الفارسي إلى العربي[4]، وقد ترجم ابن المقفّع كتاب "خداينامه" وسمّاه: "تاريخ ملوك الفرس"، وهو كتاب في تاريخ ملوك

---

(1) انظر: أمين، ضحى الإسلام: 167/1؛ الحوفي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس: 187.

(2) أمين، ضحى الإسلام: 167/1.

(3) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 7.

(4) النديم، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1398هـ/1978م: 341 وما بعدها.

الفرس من أوّل نشأتهم إلى آخر أيّامهم، وترجم كذلك كتاب "آيين نامـــه"، ويخــتصّ بوصف نظم الفرس، وتقاليدهم وعرفهم، وترجم "كليلة ودمنـــة"، و"مـــزدك"، وهـــو يتضمّن سيرة مزدك الزّعيم الدّيني الفارسي المشهور، وكتاب "التّاج" في ســيرة أنــو شروان، وكتاب "الأدب الكبير"، و "الأدب الصّغير"، وكتاب "اليتيمة"[1].

وقد ذكر المسعودي(ت346هــ/957م) أنّ ابن المقفّع ترجم كتــاب "الكيليــين"، وهذا الكتاب تعظّمه الفرس لما قد تضمّنه من خبر أسلافهم وسير ملوكهم[2].

كما تُرجمت العديد من الكتب التي تناولت تاريخ الفرس، وسير ملوكهم وأبنيتهم وسياستهم، إضافة للكتب الدّينيّة مثل كتاب زرادشت "أفِستا"، وترجموا عهد أردشير، وهو محفوظ بالعربيّة، وكتاب موبذ موبذان، وكتاب أردشير في التّدبير، وتوقيعــات كسرى، وكتاب أدب الحرب وغيرها[3].

ولعلّ هذا ما جعل الجهشياري يقدّم لكتابه "الوزراء والكُتّــاب" بتمهيــد واســع عرض فيه لتدوين الفرس للدّواوين ونظمها المختلفة، متحدّثاً في ثنايا ذلك عن كتــب الأكاسرة مقتبساً منها بعض الفصول من المكاتبات، والوصايا، ســواء أكانــت مــن الفرس أم الهند، وفي ذلك كلّه الدّلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ بــه الكاتــب العبّاسيّ نفسه من ثقافة سياسيّة، واطّلاع على الكتب المترجمة[4]

ولم تكن التّرجمة وحدها طريقة انتقال الثّقافة الفارسيّة وغيرها مــن الثّقافــات للعرب، وإنّما انتقلت هذه الثّقافات أيضاً عن طريق الاختلاط والاندماج بسهولة ويسر، بين العرب وأفراد البلدان المفتوحة، يقول شوقي ضيف: "ولا نبالغ إذا قلنــا إنّ كــلّ ألوان الثّقافات العامّة التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة من أواســط آســيا إلــى مشارف البرانس تحوّلت إلى العربيّة دون حاجة إلى ترجمة منظّمة؛ لسبب طبيعــي، وهو أنّ شعوب هذه الثّقافات تحوّلوا عرباً، فكان طبيعيّاً أن تتحوّل معهم ثقافتهم، وأن

(1) أمين، ضحى الإسلام: 177/1.

(2) المسعودي، مروج الذهب: 109/1.

(3) أمين، ضحى الإسلام: 178/1و179.

(4) ضيف، العصر العباسي الأول: 467.

لا تنتظر حتّى ينظّم لها النّقل والتّرجمة"[1]، فقد كان الاتصال القوي القريب بين العرب والفرس من أسباب نقل الثقافة للمجتمع العباسي، والكُتّاب هم جزء من هذا المجتمع الذي تختلط فيه الثّقافات، ولا بدّ أن يكونوا قد تأثّروا بها في كتاباتهم.

ويمكن القول إنّ الكُتّاب الذين اطّلعوا على الثّقافات الأخرى ونهلوا منها، ووظفوها في كتاباتهم، ينطبق عليهم قول أحمد أمين: "إنّه كان هناك قوم أتقنوا اللغة الفارسيّة والعربيّة معاً، فعكفوا على قراءة الكتب الفارسيّة يتثقّفون بها، ويُرَقّون أفكارهم وعقولهم، ثمّ هم يخرجون باللغة العربيّة أدباً وشعراً وعلماً، وليس ما يخرجونه نقلاً تامّاً لكلام فارسي، ولكنّه منبعث عنه، ومتولّد منه، كالعربي اليوم يتثقّف ثقافة فرنسيّة أو إنجليزيّة أو ألمانيّة، ثمّ هو بعد ذلك يخرج أدباً جديداً بلغته العربيّة لا يسمّى أدباً أوروبيّاً، ولكنّه نتاجه ومتأثّر به، وسائر على أثره"[2].

كما تأثّر الكُتّاب الذين هم من أصل عربي بثقافة الفرس، حيث انتقلت إليهم هذه الثّقافة بعد أن انتقلوا إلى بلاد الفرس للقيام ببعض المهمّات الرّسمية، وفي مثل هذا يقول محمد كرد علي: "ولمّا كان معظم من دانوا بالإسلام من الفرس لأوّل الأمر أكثر من الرّوم والقبط ... وزاد عدد من ينزلون بلادهم من العرب لتولّي الأحكام وإدارة الملك، وسرت إليهم بعض عادات الفرس من حيث لا يشعرون، وأمسوا يغرقون في التّبجيل والتّحميد، ويستعملون ذلك في الرّسائل والخطب، وظلّت كتابة الكتب بمعزل، وبهذا تكوّن الأسلوب الفارسي"[3].

ومن الكُتّاب الذين تأثّروا بثقافة الفرس ونقلوها إلى العربيّة، عبد الحميد الكاتب

---

(1) ضيف، العصر العباسي الأول 94؛ انظر: حسن، محمد عبد الغني، فن الترجمة في الأدب العربي، ط2، دار ومطابع المستقبل، الاسكندرية، 1986م:101؛ غوتاس، ديمتري، الفكر اليوناني والثقافة العربية، ترجمة وتقديم: نقولا زيادة، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2003م: 51.

(2) أمين، ضحى الإسلام: 179/1؛ العاكوب، عيسى، تأثير الحكم الفارسيّة في الأدب العربي في العصر العباسي الأول، قدم له: محمد حموية، ط1، دار طلاس، دمشق، 1989م: 232.

(3) علي، محمد كرد، أمراء البيان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1355هـ/1937م: 21/1.

الذي لم يكتفِ ببراعته هو بكتابة الرّسائل، أو ترجمتها ونقلها، بل استطاع أن ينتج رسائل يحاكي بها رسائل الفرس، يقول شوقي ضيف: "ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبيّة في صنع رسائله فحسب، وإنّما يلفتنا أيضاً أنّه تحوّل بطائفة منها إلى رسائل أدبيّة بالمعنى الدّقيق لهذه الكلمة، محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبيّة التي أُثرت عن السّاسانيين والتي يُقال إنّه كان أحد نقلتها إلى العربيّة[1]، وليس معنى ذلك أنّه وقف عند النّقل والتّرجمة، فقد مضى يُحاكي هذه الرّسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنّما هذه المحاكاة التي تنتهي إلى التّمثّل وصنع الأعمال الأدبيّة المبتكرة، من ذلك رسالته إلى الكُتّاب"[2]، وهو في هذه الرّسالة يسير مترسّماً آداب قومه وتعاليمهم فيما تجب أن تكون عليه أخلاق الكاتب وما ينبغي أن يتسلّح به من آلات هذه الصّناعة[3]، حيث تأثّر بتلك الوصايا التي كان يوصي بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكُتّاب.

واستطاع عبد الحميد أن يُحكم في أسلوب عربي ما تسرّب إلى العربيّة من ثقافة فارسيّة، حتّى أنّه استطاع أن يكتب رسائل على منوال الرّسائل المترجمة يصعب التّمييز بينها وبين الأصل، وهذا هو معنى قول الجاحظ: "ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرّسائل التي بأيدي النّاس للفرس أنّها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة"[4]، ولكن الجاحظ لم يكن يرى أن عبد الحميد ينفرد بهذه القدرة، بل إلى جانبه ابن المقفّع، وسهل بن هارون، وغيلان الدمشقي(ت بعد 105هـ/ بعد 723م) وغيرهم[5].

ويمكن أن نجد التّأثّر بالفرس في مجالات عدّة منها التوقيعات، فهي من ضروب

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين: 29/3.

(2) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي –العصر الإسلامي– ، ط7، دار المعارف، مصر: 474.

(3) انظر: ضيف، الفن ومذاهبه: 116؛ العاكوب، تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي: 263.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين: 29/3.

(5) المصدر نفسه: 29/3؛ انظر: عباس، إحسان، عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائلة ورسائل سالم أبي العلاء، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1988م: 58.

الأدب التي كان للفرس أثر فيه، على الرّغم من أنّ بعضهم يرى أنّها عربيّة النّشأة، لاتّسامها بما يتناسب مع طبيعة الأدب العربي، من حيث الإيجاز والقصر، مع والقدرة على التّعبير عن المعنى، وفي ذلك يقول أحمد الحوفي: "إنّ العرب عرفوا التّوقيع ومارسوه في أحسن صوره قبل أن يتّصلوا بالفرس أو غيرهم ويحاكوهم في توقيعهم، وليس ثمّة فرق بين توقيعات العرب في العصر الإسلامي وتوقيعاتهم في العصر العبّاسي"(1)، وقد علل رأيه هذا بالقول إنّ التّوقيع قائم على ما يلائم الفطرة العربيّة من ميل إلى الإيجاز، ومقدرة على البيان، وسرعة الخاطر، وحضور بديهة، فلم يكن العرب في حاجة إلى أن يحاكوا غيرهم فيما يلائم طبائعهم أشدّ الملائمة، وقد استعرض نماذج من التّوقيعات العربيّة من مختلف العصور.

ويرى آخرون أنّ هذا اللون إنّما هو فارسي، وأنّ الفرس عرفوا هذا النّظام ومارسوه قبل العرب(2)، وقد أدّى تسلّم الفرس للمناصب القياديّة في الدّولة من وزارة ومهام إداريّة أخرى إلى انسياب فيض من النتاجات الأدبيّة الفارسيّة إلى الأدب العربي، فنُقلت الآداب السياسيّة والتّهذيبيّة والتعليميّة، كما نُقلت الأجناس الأدبيّة كالرّسائل والعهود والحكم والأمثال والوصايا والخطب والقصص، وكانت التّوقيعات التي أبدعها ملوك الفرس وعظماؤهم واحدة من تلك الأجناس(3).

انتشرت التّوقيعات بكثرة في العصر العبّاسيّ نتيجة لسيطرة الفرس على ديوان الإنشاء، وقد سار الفرس في هذه التّوقيعات على نهج آبائهم، وكثر ذلك حتّى أنشأوا فيما بعد ديواناً أسموه "ديوان التّوقيع"(4)، وإلى جانب تلك التّوقيعات التي كتبوها،

---

(1) الحوفي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس: 271؛ انظر: حجاب، محمد نبيه، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي، ط1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1381هـ/1961م: 393؛ المقداد، محمود، تاريخ الترسل النثري عند العرب، ط1، دار الفكر، دمشق، 1413هـ/1993م: 397و398، 400و401.

(2) أمين، ضحى الإسلام: 187/1؛ زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي: 92/4.

(3) الدروبي، محمد، صلاح جرار، التوقيعات الفارسيّة المعربة، منشورات جامعة آل البيت، 1402هـ/2000: 16.

(4) أمين، ضحى الإسلام: 188/1.

عُرف كثير من التّوقيعات التي تُرجمت عن ملوك الفرس مثل أردشير، وأنو شروان، وأبرويز وسواهم، حتّى ليمكن أن يُقال إنّ كتباً كاملة في التّوقيعات قد تُرجمت إلى العربيّة في العصر العبّاسيّ الأوّل.

وتذكر كتب التّاريخ والأدب كثيراً من توقيعات ملوك الفرس التي استخدمها ملوك العرب ووزراؤهم، كالذي يذكر الجاحظ من أنّ عبد الله بن طاهر، عامل المأمون على خراسان قد وقّع: "من سعى رعى، ومن لزم المنام رأى الأحلام"، ويضيف الجاحظ أنّ ابن طاهر قد أخذه من توقيع لكسرى أنو شروان، أصله الفارسي: "هَرْكِه رَوَدْ جَرَدْ وهَرْكِه خُسبَد خَوَاب بِينَدْ"[1].

ومن الموضوعات التي تأثّر بها الكُتّاب بالفرس، عهد طاهر بن الحسين الذي كتبه لابنه، حيث تأثّر بالسّياسة الملوكيّة الفارسيّة، يقول ابن خلدون عن هذا الكتاب: "ومن أحسن ما كُتب في ذلك (السّياسة الملوكيّة) وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لمّا ولاّه المأمون الرّقّة ومصر، وما بينهما. فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور، عَهِدَ إليه فيه ووصّاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدّينيّة والخلقيّة والسّياسة الشّرعيّة والملوكيّة، وحثّه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة"[2]. وقد بلغ هذا الكتاب مبلغاً عظيماً عند المأمون، فعندما قرئ عليه قال: "ما أبقى أبو الطّيّب -يعني طاهراً- شيئاً من أمور الدّنيا والدّين والتّدبير والرّأي والسّياسة وصلاح الملك والرّعيّة وحفظ اللسان وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة، إلاّ وقد أحكمه وأوصى به"[3]، ويُقال إنّ المأمون قد أمر أن يُكتب به إلى جميع العمّال في النّواحي ليتّخذوه هادياً وإماما. وهنا نلاحظ أمرين، الأوّل التأثّر بسياسة الفرس الملوكيّة، وثانيهما: الاطّلاع على مؤلّفات الفرس التي تُرجمت إلى العربيّة.

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ)، المحاسن والأضداد، قدم له وراجعه عاصم عيتاني، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت، 1406هـ/ 1986م:112؛ انظر: العاكوب، تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي: 77.

(2) ابن خلدون، المقدمة: 303و304.

(3) المصدر نفسه: 311.

ويرى بعضهم أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ من يقرأ العهد ويدرك مطالبه وأغراضه لا يبقى لديه ريب في تأثّره بما نقل إلينا من عهد أردشير[1].

ويكتب أبو مسلم الخُراساني للمنصور حين أمره بالقدوم عليه: "أمّا بعد؛ فإنّه ممّا حفظناه من وصايا الفرس، أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدّهماء"[2]. وفي هذا القول إشارة إلى تأثّره بأدب أجداده الفرس ووصاياهم، ونقله إيّاه في مكاتباته.

ومن المجالات التي تأثّر الكُتّاب فيها بالفرس، استخدام الأسلوب المطوّل في الرّسائل، إذ يُعدّ عبد الحميد -كما يقال- أوّل من أطال في الرّسائل، ولم يُعهد تطويل مثل تطويله في أهل القرن الأوّل، اللهمّ إلاّ ما كان من رسائل علي بن أبي طالب إلى الأشتر النّخعي(ت37هـ/657م)، وهي في مطالب إداريّة عظيمة، هذا إذا صحّت نسبتها إلى أمير المؤمنين[3].

وقد استحكمت هذه الملكة -التّطويل- أواخر القرن الثّاني، بتكاثر عدد من نشأ من الفرس كُتّاباً وخطباء ومؤلفين، أدمجوا فيما أنشأوا إسرافهم في التّعظيم والتّطويل، واشتدّ تمازج الكُتّاب العرب بأهل فارس، حتّى كادت الدّولة العبّاسيّة تُعدّ دولة فارسيّة لولا مكان الخليفة من العرب، وظهر الغلو في القول، والإسراف في اللفظ، وتلوين المعاني وإبرازها في صور كثيرة، وتفنّن الكُتّاب في إرسال الكلام، وأسرفوا في الصّنعة، حتّى أوشك البيان العربيّ أن يخرج عن مساره القديم، وبالتّالي فقد نصح جعفر بن يحيى(ت187هـ/803م) الكُتّاب بالابتعاد عن التّطويل قائلاً: "إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا"[4].

الثّقافة اليونانيّة:

انتقلت الثّقافة اليونانيّة نتيجة لفتوحات الإسكندر المقدوني لكثير من بلاد آسيا

---

(1) أمين، ضحى الإسلام: 190/1؛ العاكوب، تأثير الحكم الفارسيّة في الأدب العربي: 244.

(2) ابن خلدون، المقدمة: 257.

(3) كرد علي، أمراء البيان: 21/1.

(4) المرجع نفسه: 24/1.

وأفريقيا، فقد كانت مملكته بلاد اليونان ومقدونيا في أوروبا، ومصر وليبيا في أفريقيا، وسوريا وفلسطين والعراق وما إليه، وبلاد الفرس، وتركستان وأفغانستان وبلوخستان، وقسماً من بلاد الهند في آسيا، وقد امتزجت عن طريق هذا الفتح الثّقافة اليونانيّة بالثّقافة العربيّة، ونظّم اليونان الحالة السّياسيّة والاجتماعيّة في الشّرق وفق أساليبهم، ونشروا حضارتهم وعلومهم، واشتهرت مدن كثيرة مثل: "جند يسابور"[1] التي اشتهرت بالطّبّ والفلسفة والعلوم، واستمرّت شهرتها حتّى العصر العبّاسيّ، ومن المدن الأخرى "حرّان"[2] التي كانت مصدر إشعاع في الشّرق إلى العصر العبّاسيّ، وهذه المدن وغيرها كانت منبعاً للثّقافة اليونانيّة، وسبباً مباشراً في ازدهار النّهضة الحضاريّة في العصر العبّاسيّ، وقد تُرجم كثير من كتب اليونان إلى اللغة السّريانيّة ومنها إلى العربيّة عن طريق النّساطرة واليعاقبة[3]، وبذلك تسرّبت هذه الثّقافة إلى المسلمين، وتأثّروا بها.

اتّفق الباحثون على أنّ أقوى العناصر تأثيراً في الثّقافة الإسلاميّة هما العنصر الفارسي والعنصر اليونانيّ، ولكنّهم اختلفوا أيضاً أيّ هذين العنصرين كانت له الغلبة؟ وأيّهما ترك الأثر الأعمق في الأدب العربي والعقل العربي ممّا تركه الآخر؟ أمّا الرّأي الأوّل فمن الذين يقولون به طه حسين، فهو يرى أنّ التّأثير اليوناني أقوى من التّأثير الفارسي، على الرّغم من أنّ كثرة الكُتّاب من الفرس، وذلك أنّ الثّقافة اليونانيّة كانت قديمة العهد في هذه البلاد منذ أيّام الإسكندر المقدونيّ، في القرن

---

(1) انظر حول دور هذه المدرسة في نقل العلوم: رشيد الجميلي، حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي في القرنين الأول والثاني للهجرة، منشورات جامعة قاريونس: 137 وما بعدها.

(2) عبد الرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية "دراسات لكبار المستشرقين"، مكتبة النهضة المصرية بمصر، 1940م: 70؛ الجميلي، حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي: 121 وما بعدها.

(3) انظر: أمين، ضحى الإسلام: 254/1 وما بعدها؛ زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي: مج137/3/3 وما بعدها؛ بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية: 53 وما بعدها.

الثّالث قبل الميلاد، حيث كانت اللغة اليونانيّة هي اللغة الرّسميّة في الشّرق الأدنى، فضلاً عن انتشار المدارس اليونانيّة التي كانت تُعلِّم الفلسفة والأدب والعلوم[1].

وعندما جاء الإسلام وفتحوا تلك البلاد -مصر وسوريا والعراق- وجدوا أنّ هذه الثّقافة قد تركت آثاراً لا يمكن أن تمحى إلاّ مع الزّمن.

ويرى أيضاً أنّ الثّقافة اليونانيّة أثّرت في الثّقافة الفارسيّة نفسها، حتّى أنّ ابن المقفّع زعيم كُتّاب الفرس والعرب كان عظيم الحظّ من الثّقافة اليونانيّة، حتّى قيل إنّه ترجم آثار اليونان[2]، ويُقال إنّه نقل من الفارسيّة إلى العربيّة كتباً في المنطق والطِّبّ كان الفرس قد نقلوها عن اليونانيّة[3]، ويشكّك بول كِرَوْس في صحّة هذا القول، فهو يرى أنّ السّبب الذي من أجله نُسبت تراجم أرسططالية إلى ابن المقفّع راجع إلى خطأ وقع فيه المتأخّرون من المؤرّخين الإسلاميين، إذ أنّ هناك خلطاً في الأسماء بين عبد الله بن المقفّع وبين محمد بن المقفّع، ويرى أنّ عبد الله بن المقفّع لم يكن يعرف السّريانيّة التي كانت تُكتب بها التّراجم والمختصرات للنصوص الفلسفيّة اليونانيّة، وأنّ هذه النّصوص تُرجمت في وقت متأخّر، وأنّ الذي قام بالتّرجمة هو محمد بن عبد الله بن المقفّع في خلافة المهديّ أو الهادي، ويضيف أيضاً أنّ الكتب الأرسططالية لم تترجم مطلقاً من الفارسيّة إلى العربيّة، فمن الممكن جداً أن يكون محمد قد استخدم الأصل اليوناني دون التجاء إلى التّرجمة السّريانيّة[4].

أمّا أصحاب الرّأي الثّاني فيقولون إنّ التّأثير الفارسيّ كان أقوى وأعظم من التّأثير اليونانيّ، وبرهانهم على ذلك أنّ أكثر الكُتّاب الذين ظهروا في الإسلام من الفرس الذين ولدوا في أحضان فنٍّ جديد من فنون الأدب وهو الكتابة[5].

---

(1) انظر: زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي: مج3/3/137.

(2) انظر: أمين، ضحى الإسلام: 269/1؛ حسين، طه، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر، 1965م: 28و29؛ الجميلي، حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي: 156.

(3) زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي: مج3/3/153؛ الجميلي، حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي: 154و155.

(4) بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية: 101-120.

(5) حمزة، عبد اللطيف، ابن المقفّع، دار النشر الحديث، مصر، 1937م: 23و24.

ويمكن القول: إنّ الكُتّاب قد تأثّروا بهؤلاء، خاصّة وأنّ واقع العصر العبّاسيّ كان عصر تمازج الثّقافات والتّرجمات، ونقل العلوم، والآداب من الفارسيّة واليونانيّة والهنديّة وغيرها إلى العربيّة، وبالتّالي لا بُدّ من تأثّر الكاتب بمثل هذه الثّقافات، إذا كان يُتقن لغتها، وقد أشار شوقي ضيف إلى ذلك قائلاً: "وإذا مضينا إلى أوائل القرن الثّاني للهجرة وإلى عصر هشام بن عبد الملك(104-124هـ) وجدنا على رأس ديوانه مولى يسمّى سالماً، ينهض بكتابة هذه الرّسائل السّياسيّة نهضة واسعة، وكان يعرف اليونانيّة وترجم منها بعض رسائل أرسطاطاليس، وعدّه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم، ويقول إنّ له رسائل تبلغ نحو مائة"[1].

ويرى أنّ التّأثير الأجنبي في الكتابة العربيّة الفنيّة لم يدخل أوّل الأمر عن طريق الفرس وكاتبهم ابن المقفّع، بل دخل عن طريق سالم الذي كان يحذق اليونانيّة، ويذهب أيضاً إلى أنّ الكتابة الرّسميّة الفنيّة نشأت في حجور العرب بحكم حياتهم الإسلاميّة والسّياسيّة الجديدة ومشاكلها المختلفة، وأنّ الأجانب أسهموا فيها، إلاّ أنّ هذا الإسهام تأخّر إلى أن ظهر سالم وأشباهه[2].

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثّقافة اليونانيّة[3]، وأنّه ربّما تعلّم اليونانيّة وأتقنها في مدارس اليونان بالجزيرة والشّام، معتمداً في ذلك على إسرافه في استعمال الحال في رسائله، واعتماده عليها في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها، وتجميل الكلام وإظهار الموسيقى، واستعمال الحال على هذا النّحو من خصائص اليونانيّة، ومن الأسباب التي يعتمد عليها اليونان في تحديد معانيهم، ويعرض ليدلل على ذلك كتاب عبد الحميد الذي كتبه عن مروان بن محمد إلى ابنه ولي العهد.

ويبيّن تأثير الثّقافة اليونانيّة في هذه الرّسالة من ناحيتين، الأولى: أنّ نصح الخليفة لابنه يمسّ أخلاقه وسيرته الخاصّة، والعلاقة التي يجب أن تكون بينه وبين

---

(1) ضيف، الفن ومذاهبه: 110؛ ضيف، العصر الإسلامي، ط7، دار المعارف بمصر: 456.

(2) ضيف، الفن ومذاهبه: 111.

(3) حسين، من حديث الشعر والنثر: 42.

جلسائه من القوّاد والموظفين، وهذه الأخلاق التي ينصح بها عبد الحميد يظهر فيها تأثير الإسلام من جهة، ويظهر أنّها من نتائج بحث فلاسفة اليونان في العصور المتأخّرة أيّام الإسكندريين.

أمّا النّاحية الثّانية، فتتعلّق في نصحه له فيما ينبغي أن يتّخذه في تنظيم الجيش ومحاربة العدو، وهو أشبه برسالة في فنّ الحرب وتنظيم الجيش، وهذا النّحو من الرّسائل كان شائعاً في هذا العصر اليونانيّ الرّومانيّ، وبعضه تُرجم للعربية.

وقد تأثّر عبد الحميد أيضاً بأساليب اليونان من حيث تقسيم الكلام إلى فصول، فكلّ رسالة من رسائله تنقسم إلى أجزاء، يؤدّي في كلّ جزء فكرة ومعنى، وهو لا ينتقل من فكرة إلى فكرة إلاّ إذا استطاع أن يستريح ويتنفّس، وهذا النّوع من التّقسيم نوع يونانيّ أيضاً[1].

وإذا كان طه حسين قد ردّ تأثّر عبد الحميد بالثّقافة اليونانيّة عن طريق الاطّلاع المباشر عليها وإتقانه لليونانيّة، فإنّ شوقي ضيف يرى أنّ الرّسالة السّابقة لا يمكن أن تكون دليلاً على صلة عبد الحميد المباشرة بالثّقافة اليونانيّة؛ لأنّ الحال معروف أنّها من خواصّ اللغة العربيّة، وهي شائعة في الشّعر الجاهلي والقرآن الكريم، وتنظيم الجيش كان معروفاً عند العرب وعند الفرس، والحقّ أنّ عبد الحميد اتّصل بالثّقافة اليونانيّة عن طريق غير مباشر، وذلك عن طريق أستاذه سالم الذي كان يحسنها وينقل عنها أحياناً[2]، ومثل هذا الرّأي لا ينفي تأثّر عبد الحميد باليونانيّة.

وهذا ما ذهب إليه إحسان عبّاس، إذ يرى أنّ تأثّر عبد الحميد بالثّقافة اليونانيّة إنّما كان عن طريق سالم، وكان سالم كاتباً عند خلفاء بني أميّة حتّى عهد هشام بن عبد الملك ولا يستبعد أن يكون عبد الحميد قد تخرّج به وسلك طريقه ونسج على منواله.

ويحاول أن يُبيّن مدى تأثّر عبد الحميد في رسالته التي كتبها إلى عبد الله بن مروان ولي العهد – برسائل أرسطاطاليس التي نقلها سالم إلى العربيّة ليثبت من

---

(1) انظر: حسين، من حديث الشعر والنثر: 42-46؛ ضيف، الفن ومذاهبه: 117.

(2) انظر: ضيف، العصر الإسلامي: 477؛ ضيف، الفن ومذاهبه: 118.

خلال ذلك اتّصال عبد الحميد بالثّقافة اليونانيّة والفارسيّة، إذ يعزو الجانب الأخلاقي إلى التّأثّر بالثّقافة الفارسيّة، أمّا الجانب المتعلّق بالقواعد الحربيّة فإنّه يعزوه إلى التّأثّر بالثّقافة اليونانيّة، ويذكر أمثلة من الرّسالتين ليؤكّد صحّة رأيه(1).

وهناك من يرى أنّ أسلوب عبد الحميد الذي اتّبعه في رسائله عربي النّشأة، وأنّه لم يبتدع التّنويع في الرّسائل، ولا تقسيم الجمل وجعلها قطعاً متساوية الطّول ومتساوية القصر، ولا ترتيب الأفكار، ولكن هذه الصّفات كلّها كانت في كثير من رسائل العصر الأمويّ، وتفرّد عبد الحميد ببعض المظاهر الشّكليّة لا يعني أنّه أوّل من كتب في العربيّة نثراً فنيّاً؛ لأنّ النّثر الفنيّ كان معروفاً قبله، فقد كتب العرب رسائل فنيّة قبل عبد الحميد وابن المقفّع، وجعل هذا النّثر الفنيّ يتطوّر ويترقّى على ألسنة العرب الذين أملوا، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا، فلمّا قاربت الدّولة الأمويّة نهايتها كان هذا النّثر قد شارف نضجه، ثمّ كان عبد الحميد أوّل كاتب في الدّيوان اشتهر بكتابته وذاع صيته، وظهرت في آثار قلمه خواصّ من سبقوه، وبالتّالي فإنّ النّثر الفنّيّ عربيّ النّشأة، إلاّ أنّه تأثّر بالطّابع الفارسيّ واليونانيّ حينما اتّصل العرب بالفرس(2).

من خلال الأقوال السّابقة يتبيّن لنا أنّ الآراء قد تباينت حول الثّقافة التي تأثّر بها عبد الحميد وظهرت آثارها في كتاباته، فمن قائل إنّها ثقافة يونانيّة خالصة، وآخر يرى أنّها مزيج من الثّقافة الفارسيّة واليونانيّة، وثالث يرى أنّ أسلوبه عربي النّشأة، وأنّه متأثّر بأساليب الكُتّاب العرب الذين سبقوه.

ويمكن القول إنّ ما ينطبق على هذين الكاتبين – عبد الحميد، وابن المقفّع– ينطبق على بقيّة الكُتّاب الذين كانوا معاصرين لهما، ومن جاء بعدهم، من اطّلاع على الثّقافات الأجنبيّة التي تسرّبت إلى العربيّة عن طريق التّرجمة والنّقل، "والعصر العبّاسيّ الأوّل، عصر علم وأدب وفكر، وانعكس ذلك على جماعة الكُتّاب، لذلك شهد ذلك العصر جماعة من الكُتّاب بلغوا مقدرة كبيرة في فن الكتابة... ومنهم يحيى بن

---

(1) انظر: عباس، إحسان، ملامح يونانيّة في الأدب العربي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993م: 113-123.

(2) الحوفي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس: 268-270.

خالد البرمكي، والفضل بن الرّبيع في عصر هارون الرّشيد والفضل والحسن ابنا سهل، وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، وأحمد بن المدبر والحسن بن وهب في عهدي المعتصم والواثق"(1).

إضافة لذلك فإنّ هذين الكاتبين عملا في ديوان الإنشاء، وكتبا الرّسائل في موضوعات متنوّعة، ولا يستبعد أن يطّلع عليها الكُتّاب في عصرهم وفي العصور اللاحقة فيحدث التّأثّر بأسلوبهما، والسّير على نهجهما، وتكون بذلك قد انتقل التّأثّر بالثّقافة الأجنبيّة عن طريق غير مباشر، وهو التّأثّر بمن تأثّر بها في كتابته بها.

الثّقافة الهنديّة:

استطاعت الثّقافة الهنديّة أن تؤثّر في الثّقافة الإسلاميّة من ناحيتين – الناحية المباشرة– وذلك باتّصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التّجارة، ومن طريق الفتح الإسلاميّ، إذ صيّر هذا الفتح ما فُتح من بلاد السّند جزءاً من المملكة الإسلاميّة تخضع لنظامها، وتجري عليها أحكامها، وينتقل المسلمون إليها، وينتقل الهنود إلى أنحاء العالم الإسلاميّ المختلفة، وكلّ منهما يحمل ثقافته ويتبادلها مع الآخر.

أمّا –الناحية غير المباشرة– وذلك نقل ثقافتهم من الفرس، فإنّ الفرس اتّصلوا بالهنود اتّصالاً وثيقاً قبل الفتح الإسلاميّ، وأثّروا فيهم وتأثّروا بهم، وأخذوا كثيراً من الثّقافة الهنديّة، وأدمجوها في ثقافتهم، فلمّا نُقلت الثّقافة الفارسيّة إلى العربيّة، نُقلت في ثناياها الثّقافة الهنديّة(2).

ويُعدّ الهنود من الأمم ذات العلوم والمعارف المتنوّعة، وفي ذلك يقول الجاحظ: "وأمّا الهند فوجدناهم يُقَدَّمون في النّجوم والحساب، ولهم الخطّ الهنديّ خاصّة، ويُقَدَّمون في الطِّبّ، ولهم أسرار الطِّبّ وعلاج فاحش الأدواء خاصّة،... ولهم الثّقافة

---

(1) الفقي، تاريخ الفكر الإسلامي:93.

(2) انظر: محمدي، محمد، الترجمة والنقل عن الفارسيّة في القرون الإسلامية الأولى، منشورات قسم اللغة الفارسية وآدابها في الجامعة اللبنانية، بيروت، 1964م: 6/1؛ حسن، حسين الحاج، حضارة العرب في العصر العباسي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1414هـ/1994م: 46و47.

عند الثّقاف خاصّة، ولهم معرفة المناصفة، ولهم السّحر،... ولهم خطّ جامع لحروف اللغات، وخطوط أيضاً كثيرة، ولهم شعر كثير وخطب طوال، وطبّ في الفلسفة والأدب، وعنهم أُخذ كتاب كليلة ودمنة"[1].

ومن الآثار الهنديّة التي نُقلت إلى الثّقافة الإسلاميّة بعض الآراء في الأدب والبلاغة، والتي صيغت فيما بعد في كتب البلاغة العربيّة، حكى الجاحظ أنّ معمّراً أبا الأشعث(ت209هـ/824م) قال: قلت لبهلة الهنديّ –أيّام اجتلب يحيى بن خالد أطبّاء الهند– ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أُحسن ترجمتها لك، ولم أُعالج هذه الصّناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها، قال أبو الأشعث فلقيت بتلك الصّحيفة التّراجمة فإذا فيها: "أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخيّر اللفظ، لا يُكلّم سيّد الأمّة بكلام الأمّة، ولا الملوك بكلام السّوقة، ويكون في قواه فضل للتصرّف في كلّ طبقة ..."[2]، وهذا ما يسمّى في كتب البلاغة العربيّة بـ "مقتضى الحال".

ونجد مثل هذا في قول ابن المدبّر: "وخاطب كلاً على قدر أبّهته وجلالته، وعلوّه وارتفاعه، وتفطّنه وانتباهه"[3]، وكذلك نجد هذا في كثير من المواصفات التي ينبغي أن يتّصف بها الكاتب في ديوان الإنشاء.

وقد نُقل إلى العربيّة أيضاً القصص الهنديّ، مثل "كليلة ودمنة"، هذا الكتاب الذي حظي بشهرة عظيمة عند الخاصّة والعامّة، وأنّه من الكتب العالميّة التي ندر نجاحها[4]، ونُقل أيضاً "السندباد"، وقد عدّد النّديم كثيراً من كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث منها غير "كليلة ودمنة"، "السندباد الكبير والسندباد الصّغير"،

---

(1) الجاحظ، رسائل الجاحظ: 223/1؛ الأصبهاني، محاضرات الأدباء: 153/1.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين: 79/1.

(3) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 10.

(4) انظر: براون، إدوارد، تاريخ الأدب في إيران، ترجمة وتعليق: أحمد كمال الدين حلمي، ط1، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، 1996م: 444/2؛ جمعة، بديع، من روائع الأدب الفارسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م: 113.

وكتاب "هابل في الحكمة"، وكتاب الهند في قصّة هبوط آدم، وكتاب دبك الهند في الرّجل والمرأة، وكتاب حدود منطق الهند، وكتاب ملك الهند القتّال والسبّاح، وكتاب شاناق في التّدبير، وكتاب بيدبا في الحكمة[1].

ويُعدّ الاطّلاع على مثل هذه القصص والأسمار والخرافات من الأمور التي نُصح الكُتّاب بقراءتها وتدبّرها والإفادة منها: "واعلم أنّ الاكتساب بالتّعلّم والتّكلّف، وطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء؛ فإن أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة، فتصفّح من رسائل المتقدّمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخّرين ما ترجع إليه: في تلقيح ذهنك، واستنجاح بلاغتك، ومن نوادر كلام النّاس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار، والسّيَر والأسمار، ما يتّسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك"[2]، ففي مثل هذا القول دعوة صريحة للكُتّاب للاطّلاع على الأخبار والسِّيَر والأسمار، وقد يكون لما نقل إلى العربيّة من تراث الأمم الأخرى نصيب من هذا الاطّلاع.

وفي خلاصة القول إنّ العرب المسلمين نقلوا الثّقافة الفارسيّة واليونانيّة والهنديّة، فأخذوا من كلّ أمّة أحسن ما عندها، وأفادوا منه في حياتهم السّياسيّة والإداريّة والأدبيّة والثّقافيّة والعلميّة، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطّبّ والهندسة والموسيقى والمنطق والنّجوم على اليونان، وفي الآداب والسّيَر والحكم والتّاريخ والموسيقى والنّجوم على الفرس، وفي الطّبّ والحساب والعقاقير والسّحر والطّلاسم على الكلدان، وفي الكيمياء والتّشريح على المصريين، وهذا الفكر الواسع، والمعارف المتنوّعة، كان من الضّروريّ أن يطّلع عليها الكُتّاب في العصر العبّاسيّ وفي كلّ عصر لحاجتهم الماسّة إلى مثل هذه العلوم، وقد بيّن عبد الحميد حاجة الكُتّاب إلى هذه المعارف بقوله: "... قد نظر في كلّ فنٍّ من فنون العلم فأحكمه، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به..."[3].

---

(1) النديم، الفهرست: 424و425.

(2) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 7.

(3) ابن خلدون، المقدمة: 248.

الفصل الرّابع

أنواع المكاتبات الرّسميّة الصّادرة عن ديوان الرّسائل

تقسم المكاتبات الرّسميّة الصّادرة عن ديوان الإنشاء في العصر العبّاسيّ الأوّل إلى قسمين:

أوّلاً: المكاتبات الدّاخليّة، وتقسم إلى:

المناشير: واحدها منشور، وتطلق على تلك الرّسائل التي تُذاع بين النّاس، وتقوم الدّولة بإصدارها وتوجيهها إلى جهة معيّنة إمّا أن تكون عامّة أي للمسلمين كافّة، أو خاصّة وذلك بأن يوجّه إلى ولاية معيّنة، أو طائفة مخصوصة، وتختلف طرق إذاعته باختلاف موضوعه، فقد يُنشر يوم الجمعة في المساجد وذلك لوجود أكبر حشد من النّاس، ومن ذلك البيان الذي أذاعه المنصور لمّا اعتقل سفيان بن معاوية ابن يزيد بن المهلّب[1]، أو يُترك الأمر للنّاس للاطّلاع عليه وقراءته كما هو الحال في المنشور الذي أذاعه المأمون بعد قتله عليّ بن هشام سنة 217هـ/732م، حيث علّق المنشور على رأس عليّ بن هشام، وطاف به في الآفاق[2]، وكذلك المنشور الذي أذاعه الواثق لمّا قتل أحمد بن نصر لمّا رفض أن يقول بخلق القرآن وأصرّ على ذلك، فقتله الواثق وعلّق المنشور بإذنه[3]. وقد يُنادي المنادي بين النّاس لإذاعة المنشور.

ويظهر عند النّظر في موضوعات المنشورات أنّها تشمل موضوعات ومضامين عدّة، وغالباً ما تتّسم هذه المنشورات بالصّفة الرّسميّة، فهي على الرغم من أنّها

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين: 373/3؛ حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول(132-247هـ)، دراسة ونصوص، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1406هـ/1985م: 110.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 193/7 أو 135/9؛ الرفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1346هـ/1927م: 328/1و329؛ ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر(ت280هـ)، كتاب بغداد، دار الجنان، بيروت، 1908م: 146.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 139/9؛ حمادة، الوثائق السياسية: 389.

تُعبّر عن وجهة نظر الدّولة في قضيّة عامّة، فإنّها تُعبّر عن قضايا تخصّ الخلفاء أنفسهم وموقفهم من المناوئين لسياستها الدّاخليّة، ففي المنشور الذي أذاعه المنصور يبيّن موقف سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلّب من العباسيين، إذ كان مع العباسيين ثمّ انضمّ إلى العلويين، وحارب مع إبراهيم فأُسر وأُتي به المنصور فأمر بخلع سواده والوقوف به على رأس اليمانية في المقصورة يوم الجمعة، ثمّ أمر المنصور الرّبيع أن يُخاطب اليمانيّة والنّاس، فقال: "يقول لكم أمير المؤمنين: قد عرفتم ما كان من إحساني إليه وحسن بلائي عنده، وقديم نعمتي عليه، والذي حاول من الفتنة، ورام من البغي، وأراد من شقّ العصا ومعاونة الأعداء وإراقة الدّماء، وأنّه قد استحقّ بهذا من فعله أليم العقاب وعظيم العذاب"[1]. وعلى الرّغم من موقف سفيان بن معاوية ضدّ العبّاسيين، فإنّ المأمون الذي عُرف عنه العفو والميل للعلويين، والإحسان إليهم قد عفا عنه وصفح: " وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه، وربّ نعمائه السّابقة عنده لما يتعرّفه أمير المؤمنين من حسن عائده عليه وما يؤمّله من الخير العاجل والآجل، عند العفو عمّن ظلم، والصّفح عمّن أساء. قد وهب أمير المؤمنين مسيئكم لمحسنكم، وغادركم لوفيّكم"[2].

ومن أبرز المنشورات التي أذاعها المأمون في النّاس، أنّه أمر منادياً أن يُنادي في النّاس ضدّ معاوية سنة 211هـ/826م، ويتّسم هذا المنشور بالإيجاز، ونصّه: "برئت الذّمّة ممّن ذكر معاوية بخير، أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم"[3].

ومن تلك المنشورات التي تدلّ على موقف الخلفاء من المعارضين والخصوم، ذلك المنشور الذّي علّقه الواثق في أُذن أحمد بن نصر (ت231هـ/845م)، والذي يتحدّث عن محنة القول بخلق القرآن، تلك القضيّة التي دفعت الخلفاء من أواخر خلافة المأمون إلى خلافة المتوكّل إلى متابعة وتعقّب منكري خلق القرآن بالقتل

(1) الجاحظ، البيان والتبيين: 373/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 110.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين: 373/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 110.

(3) ابن الأثير، الكامل: 406/6؛ حمادة، الوثائق السياسية: 310.

والسّجن والعزل من الوظائف، وهذا المنشور على الرّغم من اتّسامه بالإيجاز فإنّه يتضمّن مجموعة من المعاني التي أراد الواثق إيصالها إلى النّاس، ومن أهمّها: بثّ الرّعب والخوف في نفوس المعارضين في عهده، وقمع مَنْ تُسوّل له نفسه المعارضة للحكم، فيأخذ العبرة والموعظة من هذا الموقف، ومن المعاني الأخرى سعي الدّولة إلى مصادرة حقّ الآخرين في الفكر، حتى لو كان لهذا الفكر أصوله الشّرعيّة الأصيلة، ثمّ إنّ الدّولة تحاول أن تُضفي على تنفيذ الحكم الصّبغة الشّرعيّة إذ يعمد الواثق نفسه لمحاورة أحمد، وعرض عليه التّوبة والإقلاع عن قوله، وكأنّه يريد أن يُثبت للنّاس أنّه تحقّق من الأمر بنفسه، وبالتّالي فإنّ الحكم على ابن نصر بالرِّدّة عن الإسلام حكم صحيح صادر عن تبصّر ورويّة[1].

وقد عالجت المنشورات موضوع عطاء مَن درس القرآن الكريم والحديث الشّريف والعلوم الدّينيّة، وهذا يُشير إلى اهتمام الخلفاء العبّاسيين بالأمور الدّينيّة، فقد خصّص الرّشيد عطاءً للمؤذِّن، وآخر لمن حفظ القرآن الكريم، ولمن طلب العلم، وبعث بذلك منشوراً إلى الأمصار نصّه: "أمّا بعد: فانظروا مَن التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومَن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومَن جمع القرآن وروى الحديث وتفقّه في العلم واستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرّجال السّابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم، وأطيعوا أمرهم، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ أَطِيْعُوا اللهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وَأُولِي الأَمْرَ مِنْكُم﴾[2]. وهم أهل العلم"[3].

---

(1) الدروبي، محمد، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1420هـ/1999م: 18-20.

(2) سورة النساء: الآية: 59.

(3) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم(276هـ/889م)، الإمامة والسياسة "المعروف بـ: تاريخ الخلفاء"، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م: 2/295و296؛ حمادة، الوثائق السياسية: 258و259؛ ضناوي، سعدي، موسوعة هارون الرشيد، ط1، دار صادر، بيروت، 1421هـ/2001: 3/606و607.

وبلغ الأمر أنّ ولاية العهد، أو البيعات أو العزل من الولاية كان يصدر على شكل مرسوم يُذاع بين النّاس، ومن ذلك أنّ عهد السّفّاح بالخلافة لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى بن موسى، قد تُلي على المنبر بعد وفاته(1). ومن ذلك أيضاً إرسال الرّشيد إلى عمّاله بكتاب ولاية العهد لابنيه الأمين والمأمون(2)، وقبلها كتابه إلى الآفاق بتوليه الخلافة(3)، وذلك المنشور الذي أصدره المأمون يُعلن فيه اختياره لعليّ الرّضيّ(203هـ/818م) ولياً للعهد من بعده(4)، وغيرها.

كما عالجت المنشورات في هذا العصر شؤون بعض الطّوائف االدينيّة التي ترعاها الدّولة مثل أهل الذّمّة، فقد أذاع المتوكّل منشوراً من إنشاء ابن العبّاس الصّولي(334هـ/955م)، رئيس ديوان الرّسائل في ذلك العهد، ويفتتح الكاتب هذا المنشور بالحديث عن عِظَم الإسلام، وتساميه على الأديان كافّة: "فإنّ الله تبارك وتعالى... ارتضى الإسلام فرضيه لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وأيّد به أوليائه، وكنفه بالبر، وحاطه بالنّصر، وحرسه من العاهة، وأظهره على الأديان، مُبّرأً من الشّبهات، معصوماً من الآفات، محبّواً بمناقب الخير، مخصوصاً من الشّرائع بأطهرها وأفضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها"(5).

ويأخذ الكاتب في ذكر ميّزات هذا الدّين التي تميّزه عن سائر الشّرائع الأخرى، إلى أن يصل إلى ذكر أهل الإسلام، وكأنّما يُريد أن يُميّز المسلمين عن أهل الذّمّة، فيُعلي من شأن المسلمين ومكانتهم: " فالمسلمون بما اختصّهم الله من كرامته، وجعل

---

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: 10/ 53، حمادة، الوثائق السياسية: 102.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/283-286.

(3) الرفاعي، عصر المأمون:1/ 114و115؛ حمادة، الوثائق السياسية: 182و183.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى: 9/362-366.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 9/171و172، صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، 1938م: 4/124؛ حمادة، الوثائق السياسية: 398.

لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم، بائنون على الأديان بشرائعهم الزّاكية، وأحكامهم المرضية الطّاهرة، وبراهينهم المنيرة، وبتطهير الله دينهم بما أحلّ وحرّم فيه لهم وعليهم، قضاءً من الله – عزّ وجلّ- في إعزاز دينه"[1].

اتّخذ الكاتب تلك المقدّمة في حديثه عن الإسلام وأهله لتكون مدخلاً إلى غرض المنشور الرّئيس وهو تمييز أهل الذّمّة بلباسهم ومركبهم عن عامّة أهل الإسلام، إذ يُشدِّد المنشور على جعل الطّيالس العسليّة زيّاً موحّداً يرتديه أهل الذّمّة، وتلبس الطّبقات المتدنية منهم خرقتين توضع إحداهما على الصّدر، والأخرى على الظّهر، ويكون لونهما عسليّاً مطابقاً لون الطّيالس، ويلبسون أيضاً قلانس يُركّب عليها أزرّة تُخالف ألوانها ألوان القلانس، ترتفع هذه الأزرّة عن أمكنتها. أمّا العبيد والإماء فيشدّون على أوساطهم نوعاً مميّزاً من المناطق. ويُلزم المنشور أهل الذّمّة أيضاً في سروجهم باتّخاذ ركب خشب لها، ونصب أكر على قرابيسها تكون ناتئة عنها وموفية عليها، ويُمنع أهل الذّمّة من التّصرّف بخلاف ذلك، ويلزم الولاة بتفقّد امتثال المعنيين هذه الأوامر، وإنزال العقوبة بمن خالف منهم[2].

وقيل[3]: "إنّ المتوكّل صرف أهل الذّمّة من الأعمال، وغيّر زيّهم في مراكبهم وملابسهم وذلك أنّ المباشرين منهم للأعمال كثروا في زمانه وزادوا على الحدّ وغلبوا على المسلمين... فكانت الأعمال الكبائر كلّها أو عامّتها إليهم في جميع النّواحي. وحين شدّد عليهم أمرهم بلبس الثّياب العسليّة، وألاّ يُمكّنوا من لبس الثّياب لئلا يتشبّهوا بالمسلمين، ولتكن ركوبهم خشباً، وأن تُهدم بيعهم المستجدّة، وأن تُطبق

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 171/9و172؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 126، حمادة، الوثائق السياسية: 399.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 174/9؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 127/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 400.

(3) انظر: ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت751هـ/1350م)، أحكام أهل الذمة، حققه وعلق حواشيه: صبحي الصالح، ط1، مطبعة جامعة دمشق، 1381هـ/1961م: 219/1-224؛ عمر، فاروق، العباسيون الأوائل 97هـ/716م-170هـ/786م، ساعدت جامعة بغداد على طبعه: 174/2؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 366/13.

عليهم الجزية ولا يُفسح لهم دخول حمّامات المسلمين، وأن يُفرد لهم حمّامات خدمها ذمّة، ولا يستخدموا مسلماً في حوائجهم لنفوسهم، وأفرد لهم مَن يحتسب عليهم".

وعلى الرّغم من أنّ سياسة العبّاسيين الأوائل كانت خطوطها العريضة تتّصف بكونها معادية لأهل الذّمّة، فإنّ المدرك لموقف المتوكّل السياسيّ حيث كان يُجابه العلويين والمعتزلة والأتراك الذين يحيكون مؤامراتهم في البلاط وخارجه ضدّ الخليفة ربّما يُعطي الحقّ للخليفة على ما أصدره من تقييدات ضدّ أهل الذّمّة ليرضي (أهل السُنّة) الذين كانوا عضده في صراعه السّياسيّ الدِّينيّ ضدّ أعدائه[1]، ومن هنا نلاحظ أنّ تشديد المتوكّل ضدّ أهل الذّمّة له هدف سياسيّ واضح.

ويرى بعضهم أنّ الرّشيد من أوائل الخلفاء العبّاسيين الذين تشدّدوا في أمر أهل الذّمّة، إذ كتب إلى السندي بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذّمّة بمدينة السّلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم[2]، بينما يرى آخرون أنّ المتوكّل أوّل من أمر أهل الذّمّة بتغيير زيّهم[3].

وينفذ المتوكّل منشوراً إلى عمّاله وولاته يخبرهم بتولّيه الخلافة، وتلقبه المتوكّل على الله، ونصّه: "بسم الله الرحمن الرحيم. أمر، أبقاك الله، أمير المؤمنين – أعزّه الله– أن يكون الرّسم الذي يجري به ذكره على أعواد منبره وكتبه إلى قضاته وكُتّابه وعمّاله وأصحاب دواوينه وسائر من يجري المكاتبة بينه وبينه: من عبد الله جعفر الإمام المتوكّل على الله أمير المؤمنين. فرأيك في العمل بذلك وإعلامي وصول كتابي إليك مُوفقاً، إن شاء الله"[4]، وهذا المنشور يتضمّن التعليمات التي يجب الالتزام بها عند مخاطبة الخليفة في الكتب التي توجّه إليه، وتلك الصّيغة التي يكون عليها الدُّعاء له على المنابر.

---

(1) عمر، العباسيون الأوائل: 174/2و175.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 324/8؛ عمر، العباسيون الأوائل: 173/2.

(3) أبو هلال العسكري، الأوائل، حققه وعلّق عليه: محمد السيد الوكيل، الناشر: أسعد طرابزويني الحسيني، المدينة المنورة:220؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 366/13.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 155/9؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 124/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 392.

ومن تلك المنشورات التي كانت تُذيعها الدّولة تلك التي كانت تُذيعها على أهل خُراسان خاصّة، وكانت تُسمّى هذه المنشورات " رسائل الخميس"، حيث كانوا يبعثون هذه الرّسائل إلى خُراسان فتُتلى عليهم، ويحشدونهم لسماعها، تفخيماً لشأن الخليفة لديهم، وتجديداً لولائهم لبني العبّاس، واستدامتهم على التّشيع لهم، ويكتب هذه الرّسائل أبلغ كاتب في الدّولة[1]، وقد أنشأ الرّسالة التي بين أيدينا أحمد بن يوسف(ت213هـ/828م) للمأمون، وتقع في نحو خمس عشرة ورقة من القطع المتوسّط، ويظهر فيها جليّاً مقدرة الكاتب الإنشائيّة، ويفتتح الكاتب هذا المنشور بتحميدات طويلة، يتناول فيها قدرة الله تعالى في الخلق، وجلائل آياته في الكون، ثمّ يتحدّث عن رحمة الله بعباده، وتكريمه لبني آدم، إذ أنزل عليهم الشّرائع، وبعث فيهم الرّسُل، إلى أن وصل الأمر إلى النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، خاتم الرّسُل، ويتّخذ الكاتب ذلك مدخلاً للحديث عن حقّ بني العبّاس في خلافة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، حيث أنّ أولى النّاس بولاية خلافة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– بنو العبّاس، ويستشهدون بآيات قرآنيّة يتّخذونها دليلاً على حقّهم في الخلافة، على الرّغم من أنّ ذلك يُخالف تعاليم الإسلام وما جرى عليه اختيار الخلفاء من بعد الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، إذ أنّ اختيار الخليفة يقوم على مبدأ الشّورى بين المسلمين، والبيعة للأفضل لا على مبدأ الوراثة في الحكم.

وينتقل الكاتب بعدها ليبيّن موقف أهل خُراسان من الأمين ومناصرتهم للمأمون ضدّ أخيه، كما ناصر أسلافهم أهل بيت النّبي، صلّى الله عليه وسلّم، وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين، إضافة إلى موقفهم مع العبّاسيين ضدّ الأمويين، وقد انفرد أهل خُراسان بمجموعة من الشّمائل عدّدها الكاتب بقوله: "فاجتمع لكم معشر أهل خُراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث خلال اختصّكم الله بفضيلتها، وسَنِيّ مراتبها، دون ثلاثٍ شملتكم وغيركم: أمّا الأولى من اللواتي خصّكم الله بهنّ، فما تقدّم لأسلافكم من نصرة أهل بيت النّبيّ وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين. وأمّا الثّانية، فما آثركم الله به من نُصرته في دعوته الثّابتة. وأمّا الثّالثة، فما تقدّمتم به من

---

(1) انظر: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 317/3،حاشية رقم 7؛ الدروبي، الرسائل الفنية:28.

صحّة ضمائركم، ومحض مناصحتكم"[1].

ويأخذ الكاتب بعد ذلك بتذكير أهل خُراسان بواجباتهم تجاه أنفسهم وتجاه الدّولة، من استدامة الشّكر على النّعمة حيث رفع الله خساستهم، وأعلى أقدارهم،بنصرة أهل بيت نبيّهم، صلّى الله عليه وسلّم، وعليهم أن يتعهّدوا أنفسهم بتذكّر ما سهّل الله لهم وذلل من الصّعاب، ونصرهم على مخالفي الإسلام، وحذّرهم من الرّكون إلى الرّاحة والدّعة، ودعاهم إلى إقامة الحقّ بينهم، وتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منهم، وتفخيم أمرهم، ودعاهم أيضاً إلى طاعة أولي الأمر، ومجاهدة الأهواء، والذّبّ عن سلطانهم ومناصرته، ومحاربة أعدائه، ففي هذا الجانب توجيه الوعظ والإرشاد للخُراسانيين، وهذا ينمّ عن رغبة أمير المؤمنين بنصحهم وإرشادهم: "أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهّدكم بعظة تنبّهكم على حظّكم، وتثبّت من بصائركم، وتقطع من طمع الشّيطان وحزبه فيكم، لما يجب عليه إرشادكم، ويرجو من تأدية حقّ من حقوق الله – عزّ وجلّ– فيكم، ولما يرى من اتّصالكم بحبله، وما يشمله من الصّنيع فيما ولاّكم الله به، وتولاّه بكم"[2]. وأمير المؤمنين يوجّه لهم المواعظ والنّصائح دون غيرهم لمكانتهم عنده: "واعلموا أنّ أمير المؤمنين متفقّد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب، ومحمود السّيرة، ما لا يتفقّد به من سِواكم، فإنّه إن كان يُوجب على نفسه استصلاح الرّعيّة، وحملهم على ما فيه رشدهم وقِوامهم، لِما يلزمه من فضل العناية بالأخصّ والأولى فالأولى"[3].

وقد بيّن الكاتب الأسباب التي دفعت أمير المؤمنين لتفضيل أهل خُراسان على غيرهم: " إنّكم أولى بحسن الطّاعة وسرعة الإجابة؛ للطف محلّكم، وقُرب مكانكم عند أمير المؤمنين"[4].

يمثّل المنشور السّابق لوناً خاصّاً إذ يُوجّه إلى فئة خاصّة بخلاف المنشورات

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 324/3؛ انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 28.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 333/3.

(3) المرجع نفسه: 331/3.

(4) المرجع نفسه: 331/3.

الأخرى التي توجهها الدّولة إلى الرّعيّة، حيث يختصّ هذا المنشور بأهل خُراسان دون غيرهم، إضافة لذلك فإنّ هذا المنشور يتّسم بالإطناب والإطالة، ولعلّ ذلك عائد إلى حرص الكاتب على إظهار براعته في الكتابة ومقدرته الإنشائيّة.

ومن تلك المنشورات التي وجّهت إلى فئة خاصّة ذلك المنشور الذي وجّهه المنصور إلى أهل المدينة لمّا ثاروا بواليه رياح المري(ت145هـ/762م) أثر خطبته فيهم وتهدّده إيّاهم إثر اختفاء محمّد النّفس الزّكيّة وأخيه إبراهيم، ونصّه: "أمّا بعد يا أهل المدينة: إنّ واليكم كتب إليّ يذكر غشّكم وخلافكم وسوء رأيكم، واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين. وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ليبدّلنّكم بعد أمنكم خوفاً، وليقطعنّ البرّ والبحر عنكم، وليبعثنّ عليكم رجالاً غِلاظ الأكباد، بعاد الأرحام، لو قعر بيوتكم يفعلون ما يؤمرون؛ والسّلام"[1]. وهذا المنشور على خلاف المنشور السّابق بما يحمل من التّهديد والوعيد، وبما يتّسم به من الإيجاز والقصر.

رسائل البيعة والعهود: تُعدّ هذه الرّسائل من أهمّ الرّسائل الدّيوانيّة؛ لأنّها تختصّ بموضوع خطير ذي أهميّة بالغة، لأنّه حياة أفراد الرّعيّة، وتصوّر هذه الرّسائل قضيّة البيعة التي كان يُسفر عنها اختيار الخليفة أو ولي العهد، وتوجّه إلى الرّعيّة لتعلن العهد على الطّاعة، إذ تعني "البيعة العهد على الطّاعة، كأنّ يُعاهد أميره على أنّه يُسلّم له النّظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا يُنازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلّفه به من الأمر..."[2]، ومبايعة الرّعيّة للخليفة أو وليّ العهد تسمّى "البيعة العامّة"، ويحصل عليها الخليفة بعد "البيعة الخاصّة" التي يُعطيها أصحاب الحلّ والعقد، وهم العلماء على الأرجح[3].

---

(1) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب(ت284هـ/897م)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ: 375/2؛ حمادة، الوثائق السياسية: 136.

(2) ابن خلدون، المقدمة: 209.

(3) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 30.

وعلى الرّغم من أنّ الخليفة الجديد لا يتسلّم منصبه رسميّاً إلاّ بعد البيعة العامّة، أي أنّ السّلطة كانت ترجع إلى رأي الأمّة وموافقتها، فإنّ هذه البيعة وخاصّة في العصر العبّاسيّ لا يمكن أن تُعدّ انتخاباً بأيّ شكل من الأشكال، وإنّما كانت ضرورة شكليّة واعترافاً بتنصيب خليفة حصل على سلطته بطريق التّعيين أو الوراثة أو الاغتصاب والاستيلاء أو بأيّ شكل من الأشكال، ومع أنّ البيعة احتفظت بأهميّتها في العصر العبّاسيّ الأوّل حيث كانت السّلطة حتّى عهد الرّشيد ترجع إلى رأي الأمّة، فقد فقدت مزاياها العمليّة بعد الرّشيد[1]، إذ اتّبع بنو العبّاس في ولاية العهد الأسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم، فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة، ولمّا سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشّرور والفتن، فقد ولّى السّفّاح عهده أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى، فلمّا تولّى أبو جعفر وشبّ ابنه المهديّ عزّ عليه أن يلي بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فساوم عيسى أن يخلع نفسه ويلي العهد المهديّ، ولمّا ولي المهديّ وشبّ ابناه موسى وهارون أعاد هذه السّيرة بعينها مع عيسى الذي كانت رتبته تلي رتبة المهديّ، فولّى الهادي[2] الذي حاول أن يخلع أخاه هارون ويضع ابنه، مع أنّ ابنه لم يبلغ الحلم، فلم يُفلح لقرب منيّته التي أخّرت النّتائج[3].

وفعل الرشيد ذلك في ولايته للعهد لابنيه الأمين والمأمون، وكان ما بينهما من المشاحنات ما كان، أمّا المأمون فقد عهد لأخيه المعتصم، الذي لم يعهد إلاّ لابنه الواثق، ومات الواثق من غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكّل اختاره لها كبار الدّولة بعد موت الواثق[4].

تُعالج رسائل المبايعات موضوعاً واحداً وهو المبايعة، إمّا مبايعة الخليفة،

---

(1) انظر: عمر، العباسيون الأوائل: 87/2.

(2) كنعان، تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك: 61/1و62.

(3) المرجع نفسه: 70/1.

(4) انظر: الخضري، محمد، تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية"، تقديم ومراجعة: أحمد حطيط، ط1، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1994م: 31-33.

وإمّا وليّ العهد أو كلاهما معاً، إذ قد يُبايع الخليفة ووليّ عهده في الوقت نفسه.

ويطالعنا في البداية نموذج للمبايعات وهو كتاب أبي جعفر المنصور إلى الآفاق بالبيعة للمهدي، ويُفتتح هذا الكتاب بذكر الصّفات التي دفعت أبا جعفر لاختيار المهديّ وليّاً للعهد، وهي العفاف والصّلاح والورع والحلم والرّأفة، والعفو عن مقدرة، وأنّ الله قد أعدّه للقيام بهذه المهمّة، ثمّ ينتقل بعد ذلك ليُعلن الخليفة نفسه عن مبايعته وأهل بيته وجنوده ورعيّته للمهديّ محمد بن أمير المؤمنين، ولعيسى بن موسى من بعد محمد المهديّ، مستبشرين ببيعتهم، ويطلب بعدها إلى الرّعيّة مبايعته: "فبايعوا باسم الله وعلى بركته وتوفيقه وتسديده لمحمد ابن أمير المؤمنين بيعة رضوان من الله إن شاء الله، بصحّة من نيّاتكم، وسلامة من صدوركم، ووفاء واستقامة بخير صفقةٍ صَفَقَت عليها أيمانكم، وأعظمها إن شاء الله"(1).

يُلاحظ أنّ الخليفة بدأ بنفسه وأهل بيته لإعلان البيعة، وهذا له أثر بارز في حثّ وتشجيع الرّعيّة في السّير على نهجه من إعلان البيعة، فإذا ارتضى الخليفة هذا الأمر، فما على الرّعيّة إلاّ الموافقة والسّير على خُطاه، فهو يطلب إليهم مبايعته بيعة رضوان، ويحاول بذلك إضفاء الصّبغة الدّينية تأسياً ببيعة الرّضوان التي بُويع بها رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، من المسلمين، وأن تكون هذه البيعة بيعة وفاء واستقامة.

ويشير بعدها إلى النتائج التي تترتّب على مبايعة الرّعيّة للمهديّ، وهي: "فأبشروا بنعم مخبآت عاجلات وآجلات يعزّ الله بها دينكم، ويتمّ بها النّعمة عليكم، ويقمع بها الشّيطان وجنوده وأبالسته... فإنّكم – معشر المسلمين – قد أخذتم في توفيق الله إيّاكم، وتسديده لكم، بطَرَف أمر فيما ألهمكم الله من بيعتكم للمهديّ ابن أمير المؤمنين، سيؤدّيكم إلى النّعم التي كانت توصف، والظهور الذي كان يُذكر"(2).

وهكذا استطاع المنصور أن يثبّت الخلافة في ذريّته بعد أن جرت بينه وبين عيسى بن موسى مكاتبات كثيرة، ومراودات في عهد البيعة للمهدي وخلع عيسى

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 126/3.

(2) المرجع نفسه: 125/3-127.

نفسه، وأنّ العامّة لا يعدلون بالمهديّ أحداً، وكذلك الأمراء والخواصّ، ولم يزل به حتّى أجاب إلى ذلك عيسى مُكرهاً، فعوّضه عن ذلك، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً، وبُعداً وقرباً.

ومن النّصوص التي تُعالج موضوع البيعة لوليّ العهد، رسالة المأمون التي أعلن فيها اختيار عليّ بن موسى الرّضيّ وليّاً لعهده وخليفة من بعده وذلك سنة210هـ/825م[1]، وافتتحت هذه المبايعة بالحديث عن اصطفاء الله للإسلام ديناً، واختياره للأنبياء لتبليغ رسالته، وجعله محمّداً، صلّى الله عليه وسلّم، خاتماً للرّسل، وجعله للخلافة لتتابع مهمّة الرّسل بعد انقطاع الوحي: "جعل قِوام الدّين ونظام أمر المسلمين بالخلافة وإتمامها وعِزّها والقيام بحقّ الله فيها، بالطّاعة التي تُقام بها فرائض الله وحدوده، وشرائع الإسلام وسُننه، ويُجاهد بها عدوّه"[2].

ويذكر أنّه يقع على عاتق الخليفة مسؤوليات عِظام لا يقوى على القيام بها دون مُساندة الرّعيّة له: "فعلى خلفاء الله طاعته فيما استحفظهم واسترعاهم من دينه وعباده، وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعاونته على إقامة حقّ الله وعدله، وأمن السّبل، وحقن الدّماء، وصلاح ذات البين، وجمع الألفة"[3]، وينتقل بعدها ليذكر النّتائج المترتّبة على الطّاعة، ثمّ النّتائج المترتّبة على المعصية، ويُوازن بينهما، وأهمّ ما في الخلافة هو عمل الخليفة بطاعة الله وكتابه وسُنّة نبيّه – عليه السّلام– وقيامه بمهام الرّعيّة خير قيام، والخليفة مسؤول أمام الله عن رعيّته، عليه: "أن يؤثر ما فيه رضا الله وطاعته، ويعدل فيما الله واقِفهُ عليه، وسائله عنه، ويحكم بالحقّ، ويعمل بالعدل فيما حمّله الله وقلّده"[4]. ويطلب إلى الرّعيّة طاعة الخليفة والامتثال لأوامره، لأنّ المعصية له مجلبة لاضطراب "حبل المسلمين واختلالهم، واختلاف ملّتهم، وقهر دينهم، واستعلاء عدوّهم، وتفرّق الكلمة، وخُسران الدّنيا

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 362/9 وما بعدها؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 340/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 319.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 363/9؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 341/3.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 9/ 363؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 341/3.

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 341/3.

والآخرة"[1].

وينتقل الكاتب بعدها إلى الحديث عن النّتائج الإيجابيّة المترتّبة على اختيار وليّ عهد جديد، يكون للمسلمين: "مفزعاً في جمع أُلفتهم، ولمّ شعثهم، وحقن دمائهم، والأمن – بإذن الله– من فرقتهم، وفساد ذات بينهم واختلافهم، ورفع نزغ الشّيطان وكيده عنهم"[2]. هذه آثار إيجابيّة تعود على الرّعيّة بالنّفع والخير، يعمد الكاتب بعدها إلى ذكر ثقل مسؤولية الخلافة، وما يقع على الخليفة من التزامات وواجبات تجاه الرّعيّة، وكأنّه يُقارن بين حال الرّعيّة التي نُصّب عليها خليفة وما تنعم به من استقرار وأمن، وبين حال الخليفة الذي: "أَنصب بَدَنَه، وأسهر عينه، وأطال فكره فيما فيه عِزُّ الدّين، وقَمعُ المشركين، وصلاح الأمّة، ونشر العدل، وإقامة الكتاب والسُّنّة، ومنعه ذلك من الخفض والدّعة بهنيّ العيش: عِلْماً بما الله سائله عنه"[3]، ويتّخذ ذلك مسوّغاً لأهميّة وجود نائب للخليفة يساعده على القيام بمهامه، ويسدّ مكانه في حال غيابه، ويمنع الفتنة في حال وفاة الخليفة، إن لم يكن معروفاً لدى النّاس خليفتهم الجديد[4].

واتّخذ المأمون تلك المقدّمة مدخلاً ليُعلن بيعته وأهل بيته وقوّاده وخدمه مسرورين "عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم، ممّن هو أشبكُ به رَحِماً، وأقربُ قرابة، وسمّاه "الرّضيّ" إذ كان رضيّاً عند أمير المؤمنين"[5]، وهكذا يُصرّح أنّ اختيار وليّ العهد ومبايعته لم تكن وليدة هوى في نفس الخليفة، إذ لو كان الأمر على هذه الصّورة لقدّم أحد أبنائه أو إخوانه، كما كان يصنع خلفاء بني العبّاس، وإنّما كان الدّافع لاختيار المأمون للرّضيّ هو: "إيثاراً لله والدّين، ونظراً للمسلمين، وطلباً للسّلامة وثبات الحُجّة، والنّجاة في اليوم الذي يقوم

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 363/9؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 341/3.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 364/9؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 342/3.
(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 342/3.
(4) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 37.
(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 343/3.

النّاس فيه لربّ العالمين"[1].

ثمّ يطلب المأمون بعدها إلى رعيته مبايعة وليّ العهد الجديد على اسم الله وبركته، مبايعة تقوم على أساس الإخلاص في الاختيار، بعيدة عن الإكراه والإجبار، مختارين ما ارتضاه لهم الخليفة الذي يكون باختياره هذا قد خرج عن سياسة العبّاسيين المتمثّلة في قصر هذا المنصب على أبناء البيت العبّاسيّ، وقد علّل أحمد الرّفاعي أنّ سبب اختيار المأمون للرّضيّ قد يعود " لغرض سياسيّ، أو لنزعة شيعيّة، أو لتقدير كفاية خاصّة... وربّما كان المأمون في رأيه هذا مؤتمراً برأي وزيره الفضل الذي زيّن له أنّ هذه أنجح وسيلة لتسكين ثورة العلويين في الغرب"[2]، ومهما يكن فلم تكن هذه الخطوة موضع قبول عند العبّاسيين، إذ سرعان ما رفضوا هذه البيعة خاصّة أهل بغداد الذين خصّهم بمبايعة وليّ العهد المختار، "لأنّ أهلها كانوا يخافون الشّيعة ويمقتونهم"[3]. وكذلك شعر العبّاسيون بأنّ الضّربة موجّهة للقضاء على خلافتهم، فشقّوا عصا الطّاعة، وهمّوا بخلع المأمون واختيار خليفة بدلاً عنه، ونادوا بعمّه إبراهيم بن المهديّ(ت199هـ/814م)، بيد أنّ المأمون لم يرض بإرادة أهل بيته، فجرّد جيشاً لقتال عمّه الذي انهزم أمامه، وعادت الأمور للمأمون[4].

وقد يعهد الخليفة بولاية العهد إلى اثنين من أبنائه كما هو في عهد الرّشيد بالخلافة إلى الأمين والمأمون، أو ثلاثة كما هو في عهد المتوكّل بولاية العهد من بعده إلى أولاده الثّلاثة المنتصر والمعتز والمؤيّد[5].

نلاحظ أنّ نصوص المبايعات تتّفق على عدّة محاور رئيسة منها: أنّها تقوم

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 343/3؛ الدروبي، الرسائل الفنية: 38.

(2) الرفاعي، عصر المأمون: 265/1.

(3) المرجع نفسه: 265/1.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 564/8؛ ابن وادران، حسين بن محمد، تاريخ العباسيين، تقديم وتحقيق: المنجي الكعبي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993: 287و288؛ العسكري، الأوائل: 216؛ الرفاعي، عصر المأمون: 266/1.

(5) حمادة، الوثائق السياسية: 393.

على ذلك المُبايع له صراحة، إضافة إلى ذكر صفة البيعة، إذ هي بيعة رضوان تقوم على مبدأ الحريّة في الاختيار والمبايعة بعيداً عن الإكراه والإجبار الذي يُبطل البيعة[1]، كما أنّها لا تأخذ على المُبايعين لولاية العهد ما يُلزمهم الوفاء والصّدق والإخلاص والطّاعة والنّصيحة والنُّصرة والموالاة كما هو الحال عند مبايعة الخليفة[2].

رسائل الخلع: تُبرز هذه الرّسائل بوضوح التّنافس بين أفراد البيت العبّاسيّ على السّلطة، والسّعي من أجل تحقيق طموحات سياسيّة، ورغبات ملحّة، وكانت هذه الرّسائل تكثر عندما لا يكون الاختيار لوليّ العهد طبيعيّاً، أو الانتقال شرعيّاً صحيحاً، وهذا ما كان سائداً في تلك الفترة.

تقوم رسائل العهد التي كان يتبادلها أولئك المتنافسون والمتنازعون حول الخلافة على فسخ العقد بالبيعة للخليفة أو وليّ العهد، حيث يعمد الخليفة أو وليّ العهد إلى خلع نفسه من البيعة، ونقلها إلى غيره، ومثال ذلك أنّ السّفّاح عيّن خلفاً له من بعده المنصور، ومن بعده عيسى بن موسى(ت167هـ/783م)، وصيّر العهد في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته، ودفعه إلى عيسى[3]، فكان ذلك بداية لإثارة الاضطرابات التي ظهرت عقب وفاة السّفّاح، حيث ثار عبد الله بن عليّ(ت147ه/764م) عمّ المنصور الذي ادّعى أنّه أولى منه بالحكم، ولم يزل في عصيانه إلى أن توسّط له إخوانه عند المنصور فكتب له أماناً، وقبض عليه[4].

أقرّ المنصور عيسى بن موسى على ولاية الكوفة وسوادها، وكان له مُكرماً ومُجلاًّ، وكان إذا دخل عليه أجلسه عن يمينه، وأجلس المهديّ ابنه عن يساره، إلى أن عزم على تقديم ابنه المهديّ عليه، وكلّمه في ذلك برفيق من الكلام فأبى، فتغيّر

---

(1) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 33و34.

(2) المرجع نفسه:33و34.

(3) الفقي، الدولة العباسية: 52؛ بيوض، الرسائل السياسية: 62.

(4) تفصيل ذلك في فصل رسائل الأمان؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 501/7؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 88/3.

عليه وباعده بعض المباعدة، وقصد إليه بالأذى حتّى أجابه إلى ما سأله، وكان ذلك سنة 147هـ[1]، وطلب المنصور إلى عيسى بن موسى أن يخرج إلى المسجد الجامع، ويُعلن ذلك للنّاس، ففعل، فقال: "نعم قد بعت نصيبي من تقدّمي في ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهديّ أمير المؤمنين بعده بعشرة آلاف ألف درهم، وألف ألف درهم لابني فلان وابني فلان وابني فلان وفلانة- امرأة سمّاها من نسائه- بطيب نفس منّي ورغبت في تصييرها إليه لأنّه أولى بالتّقدّم فيها وأحقّ وأقوم عليها وأقوى على القيام بها منّي"[2].

ولم تمض سنة على خلافة المهديّ حتّى قرّر تعيين ابنه موسى الهادي(ت170هـ/786م) وليّاً للعهد، فكتب إلى عيسى بالقدوم عليه، وهو يومئذ بالكوفة، فامتنع، فكتب إليه المهديّ يسأله أن يخرج من ولاية العهد، فأبى. ثمّ كتب إليه يغريه ويحذّره، لكن عيسى أظهر عناداً دفع المهديّ إلى حبسه وإهانته، إلى أن وافق على التّنازل، بعد أن عوّضه بالمال والإقطاعات، وطلب إليه أن يوقّع بختمه على خلع نفسه، وعقد مجلساً خاصّاً لمبايعة المهديّ، ولابنه موسى بن محمد بن عبد الله وليّاً للعهد من بعده[3].

نلاحظ أنّ عيسى بن موسى لم يتنازل عن ولاية العهد بمحض إرادته وإنّما كان تحت وطأة الإكراه والإجبار والتّهديد والوعيد، فقد كتب رسالة يخلع نفسه فيها من ولاية العهد، ويصيّرها إلى الهادي استجابة لرغبة المهديّ، وقد اتّخذ عيسى بن موسى رغبة المسلمين في اختيار الهادي ذريعة للانسحاب من منصبه، على الرّغم من أنّ ذلك لم يكن رغبة للمسلمين، ولم يكن للمسلمين رأي فيها، فهم لم يختاروا الهادي وليّاً للعهد، وفي الوقت نفسه لم يعلنوا عن رفضهم ولاية عيسى بن موسى.

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 9/8 وما بعدها؛ ابن الطقطقا، محمد بن عليّ بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت: 172و173؛ وفي: حمادة، الوثائق السياسية: 115 "سنة 146هـ"؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 89/3.

(2) الجهشياري، الوزراء والكُتّاب: 126و127؛ حمادة، الوثائق السياسية: 115و145.

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(بيروت 1956م): 443/3؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 138/3و139.

وجّه عيسى بن موسى رسالته إلى المهديّ، وقد تحلّل فيها من العهد الذي عقده له السّفّاح، وأعلن مبايعته للهادي كأيّ فرد من المسلمين، يقول: "هذا كتاب لعبد الله المهديّ محمد أمير المؤمنين، ولوليّ عهد المسلمين موسى بن المهديّ ولأهل بيته وجميع قوّاده وجنوده من أهل خُراسان، وعامّة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وحيث كان كائن منهم، كتبته للمهديّ محمد أمير المؤمنين، ووليّ عهد المسلمين موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ، فيما جُعل إليه من العهد، إذ كان إليّ، حتّى اجتمعت كلمة المسلمين واتّسق أمرهم، وأْتَلَفَت أهواؤهم على الرّضا بولاية موسى بن المهديّ محمد أمير المؤمنين وعرفت الحظّ في ذلك عليّ، والحظّ فيه لي، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون من الرّضا بموسى ابن أمير المؤمنين، والبيعة له"[1].

ويُعلن عيسى بن موسى أيضاً إعفاء نفسه من إلزامات البيعة، ويوجّه حديثه إلى الرّعيّة قائلاً: "وجعلتكم في حِلٍّ من ذلك، وَسَعةٍ من غير حَرَج يدخل عليكم، أو على أحد من جماعتكم وعامّة المسلمين، وليس في شيء من ذلك قديم ولا حديث لي دعوى ولا طِلْبَةٌ ولا حُجّة ولا مقالة ولا طاعة على أحد منكم ولا على عامّة المسلمين ولا بيعة، في حياة المهديّ محمد أمير المؤمنين، ولا بعده، ولا بعد وليّ عهد المسلمين موسى، ولا ما كنت حيّاً حتّى أموت"[2].

ويأخذ عيسى على نفسه وجوب الوفاء بالعهد، والسّمع والطّاعة، والموالاة لهما، والمعاداة لمن عاداهما في جميع الأحوال: "وجعلت لهما ولعامّة المسلمين من أهل خُراسان وغيرهم الوفاء بما شرطت على نفسي... عليّ بذلك عهد الله... على السّمع والطّاعة والنّصيحة للمهديّ محمد أمير المؤمنين، ووليّ عهده موسى ابن أمير المؤمنين، في السّرّ والعلانية، والقول والفعل والنّيّة، والشِّدَّة والرّخاء، والسّرّاء والضّرّاء، والموالاة لهما ولمن والاهما، والمعاداة لمن عاداهما، كائناً من كان في

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 139/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 163 وما بعدها.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 139/3.

هذا الأمر الذي خرجت منه"[1].

ويضع عيسى على نفسه مجموعة من الالتزامات التي تمنعه من النّقض أو الإخلال بشروط العقد، وهي: " ... فإن أنا نكبت أو غيّرت... أو لم أفِ بذلك، فكلّ زوجة عندي يوم كتبت هذا الكتاب أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبتّة طلاق الحرج، وكلّ مملوك عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وكلّ مال لي نقد أو عرض... صدقة على المساكين، وعليّ من مدينة السّلام المشي حافياً إلى بيت الله العتيق الذي بمكّة، نذراً واجباً ثلاثين سنة لا كفّارة لي ولا مخرج منه إلاّ الوفاء به"[2]. هذه أيمان مغلظة تُلزم صاحبها بما تعهّد وتمنعه من التّفكير بنقض عهده؛ لأنّ القيام بها يُعدّ من المستحيل.

ونقف أخيراً عند محاولة الأمين خلع المأمون، وذلك بعد أن أوغرت بطانة الأمين صدره على أخيه، وألحّت عليه في البيعة لابنه موسى الذي سمّاه " النّاطق بالحقّ"، وخلع المأمون، فأجاب الأمين إلى ذلك، ولم تكتف هذه البطانة وعلى رأسها الفضل بن الرّبيع وعليّ بن ماهان بذلك "بل وجّه الفضل إلى مكّة كتاباً مع محمد بن عبد الله، أحد حجبة البيت، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرّشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين، وكان حظّهما من الأمين، لمّا صارا إليه، حظّ غيرهما من العهود في ذلك العصر،... فمزّقهما وأبطلهما، وأجاز سارقهما"[3].

وقد دارت بين الأخوين مكاتبات عدّة، وحرب كلاميّة[4]، تلاها حرب عمليّة دامية، كتب الله فيها النّصر للمأمون، وقد أعلن المأمون خلع محمد، كما أعلن خلافته في جميع كور خُراسان وما يليها[5]، وهكذا سارت الخلافة العبّاسيّة، فكلّ خليفة يسعى إلى صرف وليّ عهده – وغالباً ما يكون أخاه– في سبيل جعل هذا الأمر في ولده، وقد برّر ابن خلدون ذلك العمل بقوله: "إنّهم كانوا يتحرّون الحقّ

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 139/3و140؛ حمادة، الوثائق السياسية: 164.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 124/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 140/3و141.

(3) الرفاعي، عصر المأمون: 229/1و230.

(4) انظر الرسائل التي دارت بينهما: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 295/3 وما بعدها.

(5) الرفاعي، عصر المأمون: 248/1.

ويعملون به، ولا يُعاب عليهم إيثارهم أبناؤهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء"[1]، فالدّين كان الوازع الرّئيس في صدر الإسلام، أمّ في العصر العبّاسيّ فاحتيج إلى الوازع السّلطاني، فلو عُهد إلى غير من يرتضيه السّلطان لردّ ذلك العهد.

وقد جرّ هذا الأمر على الدّولة الضّعف في بنية النّظام السّياسيّ، والخلافات العائليّة المقيتة، التي كان يقتل فيها أحدهم أخاه، إضافة لذلك فقد تقلّد الحكم من لا يقدرون على حمله، فقد تقلّد الحكم بعض أبناء الخلفاء الصّغار، وكان بعضهم لمّا يبلغ الحُلم بعد[2].

رسائل الأمان: الأمانات جمع أمان، والأمان عهد مُوثّق يضمن فيه صاحب السّلطة حماية الخائفين، وتأمينهم على أنفسهم وأهلهم وسائر أملاكهم[3]، وهو لون من ألوان الرّسائل السّياسيّة التي تصدر عن ديوان الإنشاء، وقد عُرف هذا اللون منذ القِدم، ويُعدّ تقليداً سار عليه المتغلّبون من الحكّام والملوك في جميع العصور، وعند كلّ الأمم والشّعوب، فقد كان هؤلاء المتغلّبون يكتبون كتب الأمان لخصومهم وأعدائهم، إشعاراً بالعفو عنهم، أو استدراجاً لهم؛ لإيقاعهم في أحابيلهم.

تكثر رسائل الأمان في أيّام الفتن والثّورات والحروب، وتقلّ في أيّام السّلم والهدنة والهدوء السّياسيّ، والأمان على ضربين: عامّ وخاصّ، فالعامّ يعقد للعدد الذي لا يُحصر كأهل ناحية، ولا يصحّ عقد الأمان فيه إلاّ من الإمام أو نائبه، والخاصّ يُعقد للواحد أو العدد المحصور، ويصحّ من كلّ مسلم[4]. والأمان إمّا أن يمنحه الغالب للمغلوب ابتداءً، وإمّا أن يُجيبه إليه بعد طلب مسبق، وقد يُعرض الأمان على المغلوب فيردّه مُؤثراً الموت أو الهزيمة على الذّل والهوان، وقد يُطلب

---

(1) ابن خلدون، المقدمة: 211.

(2) انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 43و44.

(3) المرجع نفسه: 47.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى: 323/13.

من الغالب فيرفض منحه للمغلوب، ويصرّ في طلبه والقبض عليــه، كمــا حصــل للأمين الذي طلب الأمان من طاهر بن الحسين، فخيّب أمله[1].

كثرت رسائل الأمان في العصر العبّاسيّ، التي مُنحت للخصوم المغلوبين أو المستسلمين، وإذا كانت الرّسائل لم تصل إلينا جميعها، فإنّ ما وصــلنا منهــا يُعــدّ نموذجاً صالحاً للدّراسة، والحكم على هذا اللون من الرّسائل لهذه الحقبة من العصر.

يُعدّ الأمان الجماعي الذي قدّمه السّفّاح لبقايا الأمويين، هو أوّل أمــان مــن نوعه في هذه الدّولة، وذلك أنّ عمرو بن معاوية بن عتبة بن أبي سفيان صار إلــى سليمان بن عليّ بالبصرة، طالباً منه الأمان، بعد أن أعيته الحيل في التّخفي، فرحّب به سليمان، وكتب إلى السّفّاح: "يا أمير المؤمنين: إنّه قد وفد وافد مــن بنــي أميّــة علينا، وأنّا إنّما قتلناهم على عقولهم لا على أرحامهم، فإنّنا يجمعنا وإيّاهم عبد مناف والرّحم تبل ولا تقطع، وترفع ولا تُوضع، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهــبهم لــي فليفعل، وإن فعل فليجعل كتاباً عامّاً إلى البلدان، نشكر الله تعالى على نعمه عنــدنا، وإحسانه إلينا"[2]، فأجابه إلى ما سأل، فكان هذا أوّل أمان كُتب به، كما كُتــب لهــم منشور أمان، وأنفذه إليهم[3].

ونقف كذلك عند الأمان الذي أمضاه السّفّاح لابن هُبيرة(ت132هــ/749م)، إذ يُعدّ من كتب الأمان الفريدة في هذه الفترة، فعندما هزمه جيش المنصور بقيــادة الحسن بن قحطبة(ت181هــ/797م)، لحق ابن هُبيرة بمدينة واسط وتحصّن بهــا، فحاصره المنصور شهوراً، فلمّا طال ذلك عليه، طلب الصّلح وجرت بينــه وبــين المنصور السّفراء، حتّى جعل له أبو جعفر المنصور أماناً، أمّنه فيه ومن معه مــن أهل الشّام والعراق وغيرهم في مدينة واسط وأرضها، من المسلمين والمعاهــدين، ومن معهم من وزرائهم، وأعطاهم الوفاء بما جعل لهم من العهد والميثاق، فمكث

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 330/2.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 8/3؛ الفقي، الدولة العباسية: 50.

(3) ابن الأثير، الكامل: 431/5و432؛ حمادة، الوثائق السياسية: 100و101.

ابن هُبيرة أربعين يوماً يشاور العلماء في صيغة الأمان حتّى رضيه[1]. وكان السّفّاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم الخُراساني، فكتب أبو مسلم رسالة إلى السّفّاح جاء فيها: "إنّ الطّريق السّهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هُبيرة"، وكان رأي المنصور الوفاء لابن هُبيرة، وألحّ عليه السّفّاح بقتله، والمنصور يراجعه، حتّى كتب إليه: "والله لتقتلنه أو لأرسلنّ من يُخرجه من عندك، ويتولّى ذلك عليك". ورفض قتله قائلاً: "لا أفعله وله في عنقي بيعة وأمان، فلا أضيعهما بقول أبي مسلم". فكتب إليه السّفّاح: "إنّي لا أقتله بقول أبي مسلم، بل بنكثه وغدره ودسيسته إلى آل أبي طالب، وقد أبيح لنا دمه"[2]. فلم يُجبه المنصور، وكتب إليه السّفّاح: "لست منّي، ولست منك إن لم تقتله"[3]. وكانت نهاية ابن هُبيرة القتل.

يُعدّ الأمان الذي نحن بصدده من الوثائق السّياسيّة المهمّة، لِمَا اشتمل عليه من ضمانات ومواثيق تكفّل بموجبها العبّاسيّون بالمحافظة على حياة ابن هُبيرة وأتباعه، وصيانة أملاكهم، ومنحهم حريّة الإقامة والتّنقّل، ومعاملتهم بما يُحبُّون، وقد اشتمل هذا الكتاب على مجموعة من الضّمانات أوّلها: التّأمين على الأموال والأنفس، وهذا الضّمان من أهمّ العوامل التي تجعل الخصم ينقاد ويرضخ، وذلك لأنّه يهرب خوفاً على نفسه أوّلاً، وضنّاً بماله ثانياً، ومن ثمّ فهو يبقى متوارياً حتّى يُعطى الأمان الذي تطمئن له نفسه، وبالتّالي يظهر، وقد جاء في نصّ أمان ابن هُبيرة: " إنّي أمّنتكم بأمان الله الذي لا إله إلاّ هو... أماناً صادقاً لا يشوبه غشّ، ولا يُخالطه باطل، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم"[4]. أمّا الضّمان الآخر فهو التّعهّد بالوفاء، وهو من الأمور المهمّة في الأمان، إذ لن يقبل الخصم الأمان ما لم يُتَعَهّد له بالوفاء، ونجد الإشارة واضحة إلى فكرة الوفاء في كتاب أمان ابن هُبيرة: "وأعطيت يزيد بن عمر بن هُبيرة، ومَن أمّنته في أعلى كتابي هذا، الوفاء بما جعلت لهم من

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 244/2.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 94/1؛ ابن الأثير، الكامل: 144/1؛ ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 245/2وما بعدها.

(3) الفقي، الدولة العباسية: 29.

(4) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 241/2.

عهد الله وميثاقه، الذي واثق به الأمم الماضية". ثمّ أضاف إلى ذلك قوله: "ولك عليّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذّمم، أشدّ ما أخذ الله وحرّمه، وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيّه"[1]، ومثل هذه الضّمانات لم تكن كافية – أحياناً– لكسب ثقة الخصم، وضمان قبول جميع ما يرد في الأمان، فهي تحتاج فوق ذلك كلّه إلى ما يوثّقها ويؤكّدها، لذلك لا بدّ من ضمان ثالث وهو توثيق الأمان لذا فإنّهم يحلفون أعظم الأيمان، ويشهدون الله وملائكته ورسله والصّالحين، لكي يأمن الخصم، وإنّما حصل ذلك عندما أدرك القوم أنّ رسائل الأمان لم تكن أكثر من كلام، إذ سرعان ما تنقض وتخفر، ممّا أدّى إلى تحفّظ الخصوم، وتردّدهم في ارتضاء الأمان، ونلمس ذلك جلياً في أمان ابن هُبيرة حيث مكث أربعين يوماً يشاور العلماء ويقلّب النّظر فيه، فقد جعل له أماناً صادقاً صحيحاً، لا يشوبه غشّ، ولا يُخالطه باطل، ويقسم بأوثق الأقسام وأشدّ الذّمم أنّه لن يُبطل الأمان بأيّ صنف من صنوف النّقض، كالغدر أو الخديعة، فيقول: "بأمان الله الذي لا إله إلاّ هو، الذي يعلم سرائر العباد، ويعلم ما تُخفي الصّدور، وإليه الأمر كلّه... وذمّة الله، وذمّة محمد، ومن مضى من خلفائه الصّالحين، وأسلافه الطّيبين، التي لا يسع العباد نقضها، ولا تعطيل شيء منها، ولا الاحتقار بها"[2]. وفي مكان آخر يُشهد الله وملائكته ورسله، ويؤكّد العهد والأمان، ويقطع على نفسه عهداً بألاّ ينكث أو يغدر: " وأنا أشهد الله وملائكته ورسله، ومَن قرئ عليه كتابي هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق، وإقراري بها على نفسي وتوكيدي فيها، وعلى تسليمي لك ما سألت ولا يُغادر منها شيء، ولا ينكث عليك فيها"[3].

ويُعدّ الالتزام بعدم النّقض من أهمّ الشّروط التي يفرضها مانح الأمان على نفسه، فهي بمنزلة العقوبة الماديّة والجسديّة والمعنويّة التي يقضي بها على نفسه إذا ما أقدم على نقض الأمان أو محاولة الإخلال بشيء منه، فيفرض على نفسه شروطاً

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 2/242و243.

(2) المصدر نفسه: 2/241.

(3) المصدر نفسه: 2/243.

ثقيلة، يصعب تنفيذها، ليقنع خصمه بصحّة الأمان وصدقه، وقد وضع المنصور على نفسه شروطاً، فقال: "وإنّ عبد الله بن محمد، إن نقض ما جعل لكم في أمانكم هذا، فنكث أو غدر بكم، أو خالف إلى أمر تكرهه، أو تابع على خلافه أحداً من المخلوقين في سرٍّ أو علانية، أو أضمر لك في نفسه غير ما أظهر لك، أو أدخل عليك شيئاً في أمانه، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين أو التماس الخديعة والمكر بك، وإدخال المكروه عليك، أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء لك به، فلا قبل الله منه صرفاً ولا عدلا. وهو بريء من محمد بن عليّ وهو يخلع أمير المؤمنين، ويتبرأ من طاعته، وعليه ثلاثون حجّة يمشيها من موضعه الذي هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذي بمكّة حافياً راجلاً، وكلّ مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حجّة بشراء أو هبة أحرار لوجه الله، وكلّ امرأة له طالق ثلاثاً، وكلّ ما يملكه من ذهب أو فضّة أو متاع أو دابّة أو غير ذلك، فهو صدقة على المساكين، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزّل على نبيّه، والله عليه"[1].

وبذلك حمّل المنصور نفسه ما لا يُحتمل، وكلّفها بما تعجز عن تنفيذه، ولكنّه أراد من وراء ذلك التّأكيد على أنّه لا يفكّر في الرّجوع عن وعده، ونقض أمانته، وعلى الرّغم من ذلك فإنّنا نجده لم يفعل ذلك؛ لعجزه عن تحقيق ذلك، ولأنّه أحلّ لنفسه الغدر، وأباح لها خرق الأمان، فقد قتل ابن هُبيرة وقتل معه ابنه وكاتبه عمرو ابن أيوب وحاجبه[2]. وبالتّالي ليس لتلك العهود والمواثيق قيمة أو أهميّة؛ لأنّ صاحب السّلطان سرعان ما يلجأ إلى نقضها، وقد يصفها بأنّها "قصاصات ورق" أولئك الذين وكّدوها، وشهدوا على صحّتها، وتضامنوا في البرّ بها، والوفاء لأصحابها[3].

وقد وصفهم ابن الطقطقا بقوله: "اعلم أنّ الدّولة العبّاسيّة كانت دولة ذات

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 243/2و244؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 49-51؛ بيوض، الرسائل السياسية: 104 وما بعدها.

(2) الفقي، الدولة العباسية: 29.

(3) الرفاعي، عصر المأمون: 124/1-131؛ بيوض، الرسائل السياسية: 168.

خداع ودهاء وغدر، وكان قسم التّحيّل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوّة والشّدّة، خصوصاً في أواخرها"[1].

ومنح المنصور أماناً لعمّه عبد الله بن عليّ الذي ثار بعد وفاة السّفّاح مُدّعياً أنّه قد وعده بالخلافة حين أرسله لتعقّب مروان بن محمد، ولكنّه سرعان ما هُزم أمام أبي مسلم الخُراساني، الذي أعلن الأمان العامّ، فلجأ عبد الله إلى البصرة حيث أخوه سليمان بن عليّ. وبعد أن قضى المنصور على أبي مسلم شدّد على سليمان لكي يسلّم إليه عبد الله، ولكن سليمان تجاهل الأمر، فعزله عن البصرة، وعيّن مكانه سفيان بن معاوية المهلبيّ. وقد اتّفق أخوة عبد الله على طلب الأمان لأخيهم، واشترطوا ذلك لإظهاره، وكتب نسخة الأمان عبد الله بن المقفّع – وكان كاتباً لعيسى بن عليّ– ووكّدها واحترس من كلّ تأويل يجوز أن يقع عليه فيها، فقد جاء في كتاب الوزراء والكُتّاب: "أنّه تردّدت بين أبي جعفر وبينهم في النّسخة كتب إلى أن استقرّت على ما أرادوا من الاحتياط، ولم يتهيأ لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها، لفرط احتياط ابن المقفّع، وكان الذي شقّ على أبي جعفر أنّه وقّع بخطّه في أسفل الأمان: "وإنْ أنا نلت عبد الله ابن عليّ أو أحداً ممّن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً: سرّاً وعلانيةً، على الوجوه والأسباب كلّها، تصريحاً أو كناية، أو بحيلة من الحيل، فأنا نفيٌّ من محمد بن عليّ بن عبد الله، ومولود لغير رِشْدَة، وقد حلّ لجميع أمّة محمد خلعي وحربي والبراءة منّي، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمّة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإغاثة مَن ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين، وهو متبرئ من الحول والقوّة، ومُدّعٍ – إنّه كان– أنّه كافر بجميع الأديان، ولقي ربّه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل والمشرب والمناكح، والمركب والرّق، والملك والملبس، على الوجوه والأسباب كلّها. وكتبت بخطّي، ولا نيّة لي سواه، ولا يقبل الله منّي إلاّ إيّاه، والوفاء به"[2].

---

(1) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية: 141.

(2) انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب: 103 وما بعدها؛ حمادة، الوثائق السياسية: 123؛ بيوض، الرسائل السياسية: 118 وما بعدها.

تشبه هذه الضّمانات التي ألزم بها ابن المقفّع أبا جعفر المنصور تلك التي وردت في أمان ابن هُبيرة، كما كانت نهايته الغدر والخديعة، كما هو الحال بابن هُبيرة، إذ تظاهر أبو جعفر المنصور بالموافقة والقبول، ولكنّه لم يلبث أن أمر باعتقال عمّه، قبل أن يدخل عليه، فكلّمه أعمامه في الأمان، فقال: "لا تكلموني فيه، فإنّه أراد أن يُفسد علينا أمرنا"، ولم يعجز أبو جعفر المنصور عن إيجاد حيلة للقضاء عليه على الرّغم من إلحاح أعمامه فإنّه رفض إطلاق سراحه، متذرّعاً بقوله: "إنّ أهل خُراسان متسرّعون إليه، لما كان منه إليهم، ولا آمن من أن يفتكوا به، فهم مجموعون على ذلك"، وهكذا تخلّص منه، واكتنف نهايته الغموض(1)، كما امتدّت يده إلى ابن المقفّع كاتب الأمان أيضاً فقتله لأسباب سياسية ودينيّة وشخصيّة.

وفي عصر الرّشيد نقف عند أمان يحيى بن عبد الله، الذي خرج في بلاد الدّيلم مدّعياً الإمامة، وقويت شوكته، فاغتمّ لذلك الرّشيد، وأمر الفضل بن يحيى البرمكيّ بالتّوجّه إليه، فعمل على إقناعه بقبول الصّلح، ولم تزل كتب الرّشيد تتتابع إليه بالبرّ واللطف والجوائز والخلع، فراسل يحيى، واستماله وناشده حتّى قبل الصّلح، وطلب إلى الرّشيد أن يكتب إليه بخطّ يده أماناً يُشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هاشم ومشايخهم، فكتب الفضل بذلك إلى الرّشيد، وكتب إليه أماناً جعل منه نسختين، أرسل إحداهما إلى يحيى، واحتفظ بالأخرى معه، فقدم يحيى إلى الفضل في بغداد، وقد كافأ الرّشيد الفضل على حسن صنيعه، وأحسن استقبال يحيى، وأجرى له أرزاقاً سنيّة، ولكنّه لم يكن مطمئناً إلى نواياه، خصوصاً بعد أن رفع السّعاة عنه ما يدعو إلى الارتياب، زاعمين أنّه لا يزال يدعو إلى نفسه، وينتظر الفرصة المواتية. فحبسه الرّشيد وضيّق عليه، ولم يمنعه من قتله إلاّ ذلك الأمان الذي كتبه له، ولكنّه لم يلبث أن قنع بفتوى بعض قضاة السّوء لديه فقضى عليه(2).

---

(1) المسعودي، مروج الذهب: 305/3، بيوض، الرسائل السياسية: 108.

(2) ينظر: أبو الفرج الأصفهاني(ت356هـ/966م)، مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت:468 وما بعدها؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 245/8؛ الفقي، الدولة العباسية: 114 .

ونقف أخيراً عند أمان المأمون لأهل بغداد بعد انتصاره على أخيه الأمين، وهو أمان يختلف عن الأمانات السّابقة في الأسلوب والمضمون، إذ لا يعبأ هذا الأمان بشيء من الضّمانات والأيمان والقيود التي حفل بها أمان ابن هُبيرة وأمان ابن المقفّع، ولم يحفل هذا الأمان أيضاً بعبارات التّأمين على الأموال والأنفس، ولا بعبارات التّعهّد بالوفاء أو توثيق الأمان، ولا ذكر لألفاظ الالتزام وعدم النّقض، فقد بدأ الأمان بالحمد والثّناء، وبعدها ذكر أنّه وافٍ ببيعته، وواضح أنّه يشير إلى أنّ الأمين قد نقض العهد المأخوذ عليه من قبل أبيه الرّشيد عند أستار الكعبة المشّرفة، عندما عقد للأمين والمأمون بولاية العهد[1]، ثمّ خاطب أهل بغداد ووعدهم خيراً قائلاً: "من وافٍ ببيعته، أو خاترٍ بإلٍّ وذمّةٍ جدير أن يعُمَّ بجميل نظره كافّة رعيّته، ويتعطّف عليهم بحسن عائِدته، ويشملهم بمبسوط عدله وكريم عفوه... ويُعجّل لهم الوفاء بما وعدهم مِنَ الجزاء، إلى ما ذخره لهم من حُسْنِ المثوبة ومزيد الشُّكران"[2].

وأمّن المأمون أهل بغداد باستثناء ابن الرّبيع، وكان لاستثناء ابن الرّبيع مبرّرات ذكرها المأمون وأخرى خفيّة لم يُصرّح بها، فقد أشار إلى أنّه سعى في بلاد الله وعباده سعي المفسدين، والتمس نقض وثائق الدّين، إضافة لذلك فقد كان ابن الرّبيع وزير الأمين الذي أشار عليه خلع المأمون، كما أنّه كان سنده في الحرب، لذا لم يشمله المأمون بأمانه[3].

تشمل صيغة الأمان عبارتين موجزتين أمّن فيهما المأمون أهل بغداد: " وأمّن الأسود والأحمر، ما خلا الملحد ابن الرّبيع، فإنّه سعى في بلاد الله وعباده سعي المفسدين، والتمس نقض وثائق الدِّين. فجميع مَنْ حلَّ مدينة السّلام آمنون بأمان الله، غير مُتْبَعِينَ بِتِرَةٍ، ولا مطلوبين بإحنة، فلا تدخُلنَّ أحداً وحشةٌ منهم لضغينة يُظنُّ

---

(1) الأزرقي، أبو الوليد، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت223هـ/837م)، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، ط3، دار الأندلس، بيروت، 1403هـ/1983م:235/1 وما بعدها.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 13/ 335.

(3) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 56و57.

بأمير المؤمنين الانطواء عليها"[1].

وأخيراً يطلب إلى رعيّته أن تحمد الله على ما ألهم خليفتهم من العفو عنهم وعن أهل السّوابق منهم، الذين سعوا إلى خلعه وتطاولوا على جنده، فقال: "فاحمــدوا الله على ما ألهم خليفتكم، من إثابة أهل السّوابق منكم بأوفى سعيهم، والتّطول على عامّة جنده بما شملهم برفقه وحسنت عليهم عائدته، وما تعطّف به على أهل التّفريط:مــن إقالة هفواتهم وعثراتهم، حتّى صرتم بنعمة الله إخواناً مترادفين..."[2].

تُعدّ هذه من أهم كتب الأمان التي صدرت في العصــر العبّاســيّ الأوّل، وقــد صدرت عن الخلفاء الذين راحوا ينكثون هذه الأيمان، ويغدرون بأصحابها، ولعــلّ ذلك عائد إلى خوفهم على ملكهم، خاصّة وأنّ الذين أُعطوا الأمان كانوا يطمحــون إلى السّلطة والحكم، لذا نجد الخليفة يحرص على التّخلص منهم أو القضاء علــيهم، حفاظاً على سلطانه، أو أن يكون الدّافع لذلك هو الحقد وحبّ الانتقام من الخصــم، ونجد أنّ كتب الأمان في أكثر الأحيان ما هي إلاّ أحبولة للإيقاع بالخصم ثمّ القضاء عليه، وهذا مخالف لقواعد الشّرع والدّين، لذا راح بعض الذين أُعطوا الأمان إلــى التّشكيك في كتب الأمان التي يحصلون عليها، فقد ردّ النّفس الزّكيّة على أبي جعفر المنصور عندما عرض عليه الأمان بقوله: " فأمّا أمانك الذي عرضت علــيّ فــأيّ الأمانات هو؟ أأمان ابن هُبيرة؟ أم أمان عمّك عبد الله بن علــيّ؟ أم أمان أبي مســلم؟ والسّلام"[3].

وهذا يعني أنّ هذه الأمانات مصيرها واحد وهو النّقض وعدم الوفاء بما جاء فيها، وهي سنّة متّبعة عند الخلفاء العبّاسيين.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 335/13.

(2) المصدر نفسه: 336/13.

(3) ابن الأثير، الكامل: 199/5، المبرد، أبو العباس محمد بــن يزيــد(ت285 هـــ/898م)، الكامل، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: محمد أحمــد الــدالي، ط1، مؤسســة الرســالة، بيروت، 1406هـ/1986م: 1488/3.

رسائل البشرى: تكتب هذه الرّسائل للتّعبير عن الفرح والسّرور الذي ينجم عن خبر سارّ لا بُدّ من بثّه بين النّاس للمشاركة في الفرح، وترتبط هذه الرّسائل بمناسبة معيّنة غالباً ما تكون البشارة فيها مبعثاً للبهجة والسّرور في نفوس العامّة.

ولعلّ من أهمّ المناسبات التي كانت تُكتب فيها البشارات فتوح البلدان، والانتصار على الأعداء، وإخماد الثّورات والفتن والحركات المعادية، ويُعدّ هذا اللون من الرّسائل من أقرب الألوان إلى قلوب الرّعيّة، وذلك لأنّ خبر الانتصار على الأعداء محبّب إلى النّفوس وكذلك إخماد الثّورات والقضاء على الحركات المعادية التي تقلق راحة الرّعيّة، وتزعزع أركان الأمن في الدّولة.

ومن بين رسائل البشرى، تلك الرّسالة التي وجّهها المعتصم إلى ملوك الآفاق من المسلمين عند القبض على بابك الخُرّميّ(ت223هـ/837م)، وقد افتتح الكاتب الرّسالة بالتّحميدات، التي دارت حول ثلاثة موضوعات هي: نصر الله لدينه، ونصرته لأوليائه، وإهلاكه لأعدائه.

وينتقل الكاتب للحديث عن دور المعتصم في نُصرة دين الله والدّفاع عنه، وجهوده التي بذلها للقضاء على بابك، الذي جرّ أخطاراً جسيمة على المسلمين مُدّة زمنيّة طويلة، وكيف كان المعتصم يتشوّق للقضاء عليه منذ كان وليّاً للعهد: " ولم يزل أمير المؤمنين، قبل أن تُفضي إليه الخلافة، مادّاً عنقه موجّهاً همّته إلى أن يولّيه الله أمر هؤلاء الكفرة ويملّكه حربهم، ويجعله المُقارع لهم عن دينه والمناجز لهم عن حقّه"[1]، ولم يكن يمنعه من قتالهم إلاّ رغبة المأمون في إعداد المعتصم إعداداً كافياً لتسلّم أمور الخلافة: " فكان أمير المؤمنين– رضي الله عنه– يأبى ذلك لضنّه به وصيانته بقربه مع الأمر الذي أعدّه له وآثره به"[2]. وعندما أفضت الخلافة إليه: "لم يكن شيء أحبّ إليه ولا آخذ بقلبه من المعاجلة للكافر وكفرته. فأعزّه الله وأعانه،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 6/ 402؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 8/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 376و378.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 6/ 402؛ صفوت: جمهرة رسائل العرب: 8/4 و9؛ حمادة، الوثائق السياسية: 278.

فلله الحمد على ذلك وتيسّره، فأعدّ من أمواله أخطرها، ومن قواد جيشه أعلمهم بالحرب وأنهضهم بالمعضلات، ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه – صلوات الله عليهم– أحسنهم طاعة وأشدّهم نكاية وأكثرهم عِدّة. ثمّ أتبع الأموال بالأموال، والرّجال بالرّجال، من خاصّة مواليه وعدد غلمانه"[1].

ويصف بعد ذلك ما حلّ ببابك وأعوانه حيث انتهى بهم الأمر، بعد المواجهة العسكريّة إلى التّجمّع في حصن واحد، وذلك بأمر الله ليسهل على المسلمين ضرب الحصار حولهم، مع تتابع الغارات عليهم فأضعفهم، وأخذ المسلمون: " يتخطّفونهم بسيوفهم، وينتظمونهم برماحهم، فلا يجدون ملجأ ولا مهرباً"[2]. إضافة لذلك فقد منّ الله على المعتصم وجيوشه بأن: " أمكنهم من أموالهم وأهاليهم وأولادهم ونسائهم وحرمهم، وصيّروا الدّار دراهم، والمحلّة محلّتهم، والأموال قسماً بينهم، والأهل إماءً وعبيداً"[3].

أمّا نهاية بابك نفسه فيصوّرها الكاتب تصويراً دقيقاً، إذ يصف لنا الحالة التي صار عليها: " وصار الكافر بابك لا فيمن قُتل فسلم من ذلّ الغلبة، ولا فيمن نجا فعاين في الحياة بعض العِوض، ولا فيمن أُصيب فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه، ولكنّه سبحانه وتعالى أطلقه وسدّ مذاهبه وتركه مُلدّداً بين الذُّلّ والخوف، والغُصّة والحسرة"[4].

وانتهى به الأمر أن وقع: "أسيراً ذليلاً موثّقاً بالحديد"[5]، وأنهى الكاتب رسالته بالتّحميد والثّناء على الله الذي نصر المعتصم وحقّق ظنّه وأنجح مساعيه. وقد أكثر

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 6/ 403 ؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/9؛ حمادة، الوثائق السياسية: 278.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 6/ 403؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 9 و10؛ حمادة، الوثائق السياسية: 278.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 403/6؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 10/4.

(4) انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 63-65.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى: 404/6؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 10/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 379.

الكاتب من التّحميدات في الخاتمة ويدلّ ذلك على الحالة الشّعوريّة الجيّاشة التي تؤمن بصدق وعد الله في تأييد حزبه ونصرهم على عدوّهم[1].

وتُكتب البشارات أيضاً في مناسبات عدّة منها ما عُرف بسلامة الموسم، وأهمّ مناسباته عيد الفطر، وعيد الأضحى؛ لأنّ عيد الفطر يأتي بعد انتهاء شهر رمضان، وعيد الأضحى يأتي بعد انقضاء موسم الحجّ، وانقضاء كلّ منهما يؤدّي إلى الفرحة والبهجة، ومن الرّسائل التي أُرسلت في مثل هذه المناسبات، تلك الرّسالة التي أرسلها موسى بن عيسى(183هـ/799م) إلى الأمين مبشّراً إيّاه بانقضاء موسم الحجّ، وقد افتتح هذه الرّسالة بالتّحميدات والثّناء على الله الذي هو وليّ أمير المؤمنين ووليّ النّعمة عليه فيما حمّله الله واستحفظه[2]، وانتقل بعدها للحديث عن حُسن مسيرة أمر الحجّ في تلك السّنة، وذلك لأنّ الخليفة هو المشرف بنفسه على سير شعائر الحجّ وتأمين سُبُله، ووجّه الكاتب رسالته إلى الخليفة ليخبره بمشاعر الفرح والسّرور عند الحجيج الذين يدعون له ولوليّ عهده بطول البقاء لِما وجدوه من رعاية واهتمام في هذا الموسم، ونصّ الرّسالة: "وإنّي كتبت إلى أمير المؤمنين يوم النفر الأوّل، وقد قضى الله مناسكنا، وتمّم حجّنا، وأرانا في مواقفنا وإفاضتنا ومن حضر الموسم معنا من رعيّة أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُبلي الله أمير المؤمنين ويعوّده، ويُبلي الرّعيّة في خلافته، من السّلامة والعافية، والتّوفيق والكفاية والله محمود"، ويشير هنا إلى انتهاء مناسك الحجّ جميعها، هذا الحجّ الذي أشرف عليه أمير المؤمنين بنفسه، وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى قد أنعم على أمير المؤمنين وعلى رعيّته بالسّلامة والعافية والتّوفيق هو ومن معه.

وينتقل بعدها ليخبر الخليفة بأنّ هذا الموسم يتميّز عن غيره من المواسم بأنّه أعمّ عافية وسلامة، وأنّه أكثر دعة، الأمر الذي جعل الحجيج يخصّون أمير المؤمنين ووليّ عهده بالدّعاء بطول البقاء، "ولم أرَ موسماً كان أعمّ عافية وسلامةً،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 404/6؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 10/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 379.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 294/3.

وأحسن هَدْياً ودَعَةً، وأكثر داعياً لأمير المؤمنين ووليّ عهده بطول البقاء، من موسم النّاس في عامهم هذا، بنعمة الله وفضله. أحببت الكتاب إلى أمير المؤمنين، لمعرفتي بعنايته وتطلّعه إلى عمله ليُسرّ به، ويحمد الله عليه ويشكره، فإنّه شاكر يحبّ الشّاكرين"[1].

وكُتبت الرّسائل أيضاً في عيد الفطر المبارك، ومن الرّسائل التي كُتبت في هذه المناسبة تلك الرّسالة التي أنشأها محمد بن سعيد في السّلامة بيوم عيد، وقد حثّ النّاس في بداية هذه الرّسالة على شكر الله والثّناء عليه، فقال: "وإنّ من حقّ النّعمة فيما أكمل الله من هذا العيد الجليل قدره، الشّامل نفعه، أن يجتمع العوامُّ بالقصد لشكره، والثّناء به على الله تبارك وتعالى وعلى خليفته"[2].

وبيّن أنّ هذا العيد هو أعظم عيد على المسلمين بركة وعائدة، لذا يتضرّع إلى الله: "أن يتقبّل منه فريضة العمل، ونافلة القُربة، فيما قضى عنه من شهره، وأدّى من الحقّ فيه عليه، ويجعله أعظم شهر وسنّة وعيدٍ، ومجمع يُمن وبركة..."[3].

ومن المناسبات التي كانت تدعو إلى كتابة رسائل البشرى مناسبة انهمار المطر بغزارة، إذ يبشِّر ذلك بخير وفير خاصّة بعد انقطاع المطر، ومن تلك الرّسائل التي كُتبت في هذا الشّأن رسالة جبل بن يزيد إلى المنصور يبشّره فيها بهطول المطر، قال فيها: "قد كنت كتبت إلى أمير المؤمنين أُعلمه المطرة التي أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته، ثمّ عادت لنا بعدها من الله عائدةُ رحمة، بِولْي مطر أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر، وابلاً جوداً لا يفترّ غزيره، ولا يرعوي جوده، إلاّ إلى ديمة عن ديمة، يتراخى إليها يسيراً ريثما تعود، فأقامت علينا سماؤه مستهلّة بذلك وكذلك إلى غروب الشّمس، ثمّ انقطع مطرها بسكون من الرّيح، وفتور من القُرِّ، وفضل من الله عظيم ينشر به رحمته، ويبسط به رزقه، فأسبغ النّعمة، وأوسع البركة، وأوثق بحمد الله معارف الخصب والحمى، والله محمود على آلائه، ومشكور

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 295/3.

(2) المرجع نفسه: 441/3.

(3) المرجع نفسه: 441/3.

على بلائه، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته بعد الذي أقبلت به السّنة البرّية والقحط وعدم الإمطار، وشدّة ما بلغ النّاس من القنوط وسوء الظّنون"[1].

وتُكتب رسائل البشرى في مناسبة إبلال الخليفة من المرض، ويمثّل ذلك رسالة أحمد بن يوسف عن المأمون التي صوّر فيها الحالة الشّعوريّة عند الرّعيّة نتيجة لمرض خليفتهم، وما أصابهم من ضعف ووهن، ليذكر مقابل ذلك مدى تأثير البشرى بسلامة الخليفة من المرض، إذ أنّ هذه السّلامة تستوجب منهم إدامة الشّكر لله؛ لأنّ بسلامة الخليفة منافع جمّة تطال المسلمين جميعاً، يقول: "إنّ من أعظم النّعم عند الخاصّة والعامّة موقعاً، وأوجبها عليهم شكراً سلامة أمير المؤمنين التي جعلها الله عماد الدّين، وقواماً للمسلمين، وجعل بها فواتح اليُمْن والبركة، وفوائد السّرور والغبطة لكافّة المؤمنين"[2].

وترتبط رسائل البشرى أيضاً بمناسبة سلامة الخليفة عند رجوعه من السّفر، وقد كتب أحمد بن يوسف في رسالة له: "وقد أفادني الله بما ورد عليّ من كتاب أمير المؤمنين سروراً وابتهاجاً أيّام أظلّ ما أظلّ من بركات اقترابه، وشارف من اليُمْن والسّعادة في رؤيته، وامتدّت بذلك فيمن قبلي، فكلٌّ سُرَّ واستبشر، ودعا وتشكّر"[3].

ويركّز الكُتّاب في مثل هذه الرّسائل على إظهار نعمة الله على الخليفة بما أفاء الله عليه من السّلامة والعافية ليسعد النّاس بسلامة خليفتهم، وكأنّ سلامته هي الغاية التي ينشدونها، ويظهر ذلك جليّاً في كتاب صالح بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس(ت151هـ/768م) عمّ السّفّاح: "فإنّ الله بحمده ونعمته لم يزل يُبْلي أمير المؤمنين ويعرّفه في كلّ ما يقضي إليه، ويعزم له عليه في أموره: من حُسْن الصُّنع والولاية والحفظ والكفاية والحيطة وإسباغ النّعمة، أفضل أمله وأملنا له، وأعظم رجائه ورجائنا في حُسْن المدافعة عنه، إلى أن وصل ذلك من نعمه عنده بما توحّد به في وَجْهه وسفره: من السّلامة، وسبوغ النّعمة، وعموم العافية في نفسه وخاصّته

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 120/3 و121.

(2) المرجع نفسه: 376/3.

(3) المرجع نفسه: 377/3.

وعامّته، وأقدمه منزلــه ومحلّــه مُعافى مُسَلَّماً محفوظاً من الله إحساناً منــه إليــه، وإفضالاً وإنعاماً عليه، واختصاصاً له، والله يمتّع أمير المؤمنين، ويتمّم لــه أحســن بلائه عنده وعندنا فيه بمنّه ولطفه"(1).

وقد تتحدّث رسائل البشرى أحياناً عن سلامة وليّ العهــد مقرونــة بســلامة الخليفة، وقد رأينا تلك الرّسالة التي كتبها موسى بن عيسى في سلامة الموسم إلــى الأمين ووليّ عهده(2)، وهذه الرّسالة التي كتبها محمد بن الليث يبشّر فيهــا الرّعيّــة بسلامة الخليفة ووليّ عهده، ويظهر فيها ما يتمتّعان به من نعــم وأمــن وســلامة، وهدوء واستقامة، يقول: " فإنّي كتبت إليك، وأمير المؤمنين – أطال الله بقاءه، وزيّن أمره بلباس التّقوى– ووليّ عهده – مَدَّ الله للمسلمين في عمره– في تظاهر نعــم الله عليهما، وتوالي إحسانه إليهما، وحوادث مزيده إيّاهما ومن قِبلهما وما يتناهى إليهما، ويعزّز لديهما، من عِزّ أطرافهما، وثغور رعيتهما وجنودهما، من الأمن والسّــلامة، والهدوء والاستقامة، على أحسن ما جرت به العادة، ومضت به النّعمة عليهما"(3).

وهذه الحالة التي عليها أمير المؤمنين ووليّ عهده تستوجب من الرّعيّة شكر الله عليها لما يعود عليها من النّفع والخير: "ونحن من تتابع النّعم، وتكامل المزيــد، بحيث يقصُرُ الوصف عنّا، وعن الحفظ له نظرُنا، والله نسأل العون علــى شــكره وتأدية حقّه"(4).

ولم يقتصر أمر إصدار البشرى عن مقرّ الخلافة إلى الولاة والعمّال ليقوموا بإذاعتها على أفراد الرّعيّة، وإنّما كان الولاة والعمّال يوجّهون البشارات إلى مقــرّ الخلافة، مبشّرين بما حقّقوه، فقد كتب طاهر إلى المأمون رسالة يبشّره فيها باحتلال بغداد وقتل الأمين(5)، وكتب عمارة بن حمزة إلى المنصور رســالة يبشّــره فيهــا بوصوله بالسّلامة إلى مرو واستلامه المنصب الجديد، وقيامه بالأعمال المنوطة به،

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 22/3.
(2) المرجع نفسه: 294/3.
(3) المرجع نفسه: 160/3.
(4) المرجع نفسه: 160/3.
(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/478–490؛ حمادة، الوثائق السياسية: 295.

وأوّلها قراءة عهد أمير المؤمنين على من قدم عليهم، وأخبرهم بالطّريقة التي سوف يسلكها معهم فيجازي المحسن بإحسانه، ويعاقب المذنب على ذنبه، وإنّه بعمله هذا قد استقام له أمر الرّعيّة، يقول: " فإنّي كتبت إلى أمير المؤمنين حين حللت محلّ الوالي من خُراسان من دار الإمارة بمرو، مُتعرِّفاً من حفظ الله أمير المؤمنين فيها، أجمل ما يعرفه أحدٌ توجّه في أموره، وسار مسيراً في طاعته، وقرأت عهد أمير المؤمنين على من قدمت عليه من رعيّته وجنده، مؤدّياً إليهم عنه الذي جعل الله لهم عنده من كذا، وأعلمتهم أنّ كلّ مُحسن أحمدوا له أثراً، فبسيرته سار، وبهداه وعهده ائتمّ واهتدى، وأنّ من خالف بهم سُبُل العدل والإنصاف، وسار فيهم بالجور والاعتساف، فبالتّعدّي لأمره، والخلاف لعهده، وأعلمتهم أنّ القيام بكلّ ما قرأته في عهده، أو حكيت لهم من رأيه وأمره، رهن غَلِق، فأثبتُ لي فيهم قدم ولاية وتوطّد منّي به سلطان، فاستقام سرور ذلك فيهم، ورجع بأهوائهم إلى الألفة، ونفى عن صدورهم حسَكات الوحشة. والسّلام"[(1)].

وكتب قمامة بن زيد مبشّراً الخليفة باستقامة أمر الثّغور من قِبله، فقال: "كُلّ ما قِبلَنا وما يتناهى إلينا عن ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها، في صلاح ذلك كلّه واستقامته وهدوئه، على أفضل ما عوّد الله أمير المؤمنين فيه العلوّ والعافية"[(2)]. وله أيضاً رسالة أخرى تُعبِّر عن هذا اللون من البشارات، يقول فيها: "كتبت إليك وقد استقام كلُّ ما قِبَلي واعتدل، وجمع الله أيدي أهله وقلوبهم على إمامهم، وأراهم من تباشير الخير وأمارات البركة، ما أرجو أن يديمه الله، ويتابع المزيد فيه، والحمد لله الذي قذف في قلوب رعيّته من الإذعان بحقّه، والبُخُوع بطاعته، والخروج من ضيق ما كانوا فيه إلى سَعَةٍ ممّا كانوا عليه"[(3)]. نلاحظ أنّ قمامة في رسالتيه عبّر عن انتظام أمر الرّعيّة، وما تتمتّع به من أمن واستقرار في ظلّ الخليفة، وما تكنّه للخليفة من خضوع وطاعة ووفاء.

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 117/3 و118.

(2) المرجع نفسه: 285/3.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 285/3 و286؛ انظر: الدروبي، الرسائل الفنية:64.

التّوقيعات: التّوقيع هو أن يجلس الكاتب بين يدي السّلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقّع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها مُتَلَقَّاة من السّلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإمّا أن تصدر كذلك وإمّا أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكـون بيد صاحب القصّة[1]، وهو في اصطلاح الأقدمين من الكُتّاب يعني: اسم لِما يُكتـب في حواشي القصص كخطّ الخليفة أو الوزير في الزّمن المتقدّم[2]، وما يُكتب يكـون غالباً عبارة موجزة مقتبسة من آية كريمة أو حديث شريف أو حكمة مشـهورة، أو يكون إنشاءً، وتضاف هذه التّوقيعات إلى ألوان الرّسائل الصّادرة عن الدّيوان؛ لأنّها ضرب من الرّدود السّريعة على الرّسائل والرّقاع الواردة إلى الدّيوان من شـكايات ومظالم وشفاعات وغيرها[3].

وتُعدّ التّوقيعات عربيّة النّشأة، فقد عُرفت منذ عهد الخلفـاء الرّاشـدين، حيث استعملها الخليفة عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه– في حواشـي الرّقـاع المرفوعة إليه لبيان وجه الفصل فيها. ثمّ سار الخلفاء من بعده علـى منوالـه فـي التّواقيع[4]، وقد جُمعت هذه التّوقيعات في كتاب "جمهرة توقيعات العرب"[5]. وعلى الرّغم من قلّتها فإنّها تشير إشارة واضحة إلى أنّ نشأة هذا الفن عربيّة صرفة، ثـمّ تطوّر وازدهر في العصر العبّاسيّ وحظي بقسط أوفر من العناية، حيث تمّ تأسيس "ديـوان التّوقيـع" لتنظيم شؤون هذا الفن، وترسيخ قواعده، وقد ازدهر فـي هـذا العصر واتّسعت مادّته، وظهرت أغراض جديدة، وبرز عدد كبيـر مـن مشـاهير الموقّعين خاصّة من الأسر الفارسيّة المستعربة كآل برمك وآل سهل وآل صول وآل الزّيّات وآل وهب وغيرهم، كما برزت أصداء الأثر الفارسيّ الحقيقيّة في التّوقيعات

---

(1) ابن خلدون، المقدمة: 247.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 114/11.

(3) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 69.

(4) بابتي، عزيزة فوال، الإطار الأدبي في مطلع العصر العباسي، ط1، دار الشـمال للطباعـة والنشر والتوزيع، طرابلس، لبنان، 1986م:175.

(5) الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 26.

العربيّة[1].

ويرى شوقي ضيف أنّ التّوقيعات عُرفت عند ملوك الفرس ووزرائهم، وقد تعوّدوا أن يوقّعوا بها على ما يُقدّم إليهم من تظلّمات الأفراد في الرّعية وشكاواهم، وحاكاهم خلفاء بني العبّاس ووزراؤهم في هذا الصّنيع[2].

ويمكن القول إنّ التّوقيعات عربيّة النّشأة، ولكنّها تأثّرت بالتّغييرات التي طرأت على طبيعة المجتمع العبّاسي، كما أنّها تنوّعت بتنوّع الموضوعات التي كتبت فيها، وتباينت أغراضها وأساليبها، فمنها ما يختصّ بأمر الجند، ومن ذلك أنّ السّفّاح وقّع إلى كاتب جنده– وقد شغبوا عليه بالأنبار–: "بلّغ المفترين عنّي، أبرِمتُم بأعجاركم، أم عظُمت نعمة الله عليكم في دينكم ودنياكم؟ فلا تكونوا عظة العقلاء، ورزيّة الجهلاء؛ فتحبط أعمالكم، وتخيب آمالكم، والعطاء غير مؤخّر عن وقته إن شاء الله"[3].

وقد يحمل التّوقيع في طياته إصدار الحكم بالعزل والتّنحي عن المنصب، وتقليد الأمر لمن يُحسن القيام به، ومن التّوقيعات التي كتبت في هذا الغرض أنّ صاحب أرمينيّة كتب إلى المنصور إنّ الجند قد شغبوا عليه، وطلبوا أرزاقهم، وكسروا أقفال بيت المال، وأخذوا ما فيه، فأمر بعزله، ووقّع في كتابه: "اعتزل عملنا مذموماً، فلو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا"[4].

---

(1) الدروبي، جمهرة توقيعات العرب:6و7 ؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 69-71.

(2) ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط6، دار المعارف بمصر، 1966م: 489.

(3) الآبي، نثر الدّر: 80/3.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 97/8؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ الآبي، نثر الدّر: 84/3و85؛ ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م: 423/1، صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 370 و371؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 60، وقد نسب هذا التّوقيع للمأمون.

ومن أبرز الموضوعات التي عبّرت عنها التّوقيعات العبّاسيّة موضوع الشّكايات وإنصاف المتظلّمين، وقد كان الخلفاء أنفسهم يباشرون النّظر فيها أحياناً، ويوقّعون على كلّ رقعة بما يناسبها، فقد وقّع السّفّاح في رقعة أهل الأنبار الذين ذكروا أنّ منازلهم أُخذت منهم، وأُدخلت في البناء الذي أمر به، ولم يُعطوا أثمانها: "هذا بناءٌ أسّس على غير تقوى". ثمّ أمر بدفع قيم منازلهم إليهم[1].

وقد كانت هذه التّوقيعات تحمل في طيّاتها إبطال الظّلم، ورفع الأذى عن الرّعيّة، إذ غالباً ما يكون الخليفة حاسماً في ردّه لردع الظّالمين ومنعهم من تجاوز حدودهم، وكثيرة تلك التّوقيعات الصّادرة عن الخلفاء في إنصاف أهل الحقّ، والأخذ على يد من سلبهم حقوقهم، فقد وقّع المنصور في رقعة رجل من أهل السّواد تظلّم من بعض العمّال: "إن كنت صادقاً فَجِيء به ملبّباً[2]. فقد أذنّا لك في ذلك"[3]، ومن ذلك ما وقّع به المأمون في قصّة متظلّم من أبي عيسى بن الرّشيد: "فإذا نفخ في الصّور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون"[4]. فخشية الله، والحرص على إقامة العدل، هما الأساس عند المأمون لا صلة القرابة، حتى لو كان شقيقه أحمد بن هارون الرشيد(ت209هـ). كما وقّع المهديّ في قصّة متظلّمين شكوا بعض عمّاله: "لو كان عيسى – يريد ولده– عاملكم قدناه إلى الحقّ كما يقاد الجمل المخشوش"[5].

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 211/4، صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 367؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 54.

(2) ملبباً: لبب الرجل: جمع ثيابه عند نحره ثم سحبه (ابن منظور، لسان العرب: لبب).

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 97/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 372؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 57 و58.

(4) سورة المؤمنون: الآية: 101؛ انظر النص: ابن عبد ربه، العقد الفريد: 251/4؛ الآبي، نثر الدر: 3/ 112؛ ابن حمدون، التذكرة الحمدونية: 449/1؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 378/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 87.

(5) المخشوش: الجمل يوضع في أنفه عود يُشدّ به الزمام. (ابن منظور، لسان العرب: خشش)؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 372/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 67.

وعلى الرّغم من أنّ أحكام الخلفاء كانت تصدر في حينها خاصّة في موضوع الشّكايات فإنّ بعضهم كان يتأنّى في إصدار الحكم إلى حين التّثبّت من صحّة الدّعوى، فقد وقّع المأمون في رقعة ساعٍ: "سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين"[1].

وتضمّنت بعض توقيعات ردّ الشّكاية التّقريع والتّوبيخ لأصحابها، فقد كتب السّفّاح في قصّة قوم شكوا غرق ضياعهم في ناحية الكوفة: "وقيل بُعداً للقوم الظّالمين"[2]. وتوقيعه في كتاب المنصور، وهو يُحارب ابن هُبيرة بواسط: "إنّ حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثّر في طاعتك، فخذ لي منك، ولك من نفسك"[3]. ووقّع المنصور إلى أهل الكوفة، وقد شكوا عاملهم: "كما تكونوا يُولّى عليكم"[4]. ووقّع الرّشيد على قصّة رجل من البرامكة: "أنبتته الطّاعة، وحصدته المعصية"[5].

تدعو معظم التّوقيعات التي وجّهت إلى الولاة والعمّال إلى وجوب العدل بين الرّعيّة، وردّ المظالم إلى أهلها، وضرورة معاملة النّاس بالرّفق واللين، كما تضمّنت هذه التّوقيعات الأمر الصّريح من الخليفة إلى الولاة والعمّال بالجلوس لسماع الدّعاوى والشّكايات ووضع الحلول لها، ومن ذلك ما وقّع به المهديّ إلى صاحب أرمينيّة الذي كتب إليه يشكو سوء طاعة رعاياه: "خُذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين"[6]، وتوقيعه إلى صاحب خُراسان الذي كتب إليه يخبره غلاء الأسعار

---

(1) سورة النمل: الآية: 27؛ انظر النص:الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 98.

(2) سورة هود: الآية: 44؛ انظر النص: ابن عبد ربه، العقد الفريد: 2/ 211؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 368/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 54.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/ 211؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 367/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 56.

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ البيهقي، المحاسن والمساوئ: 560؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 369؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 58.

(5) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 374؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 81.

(6) سورة الأعراف: الآية: 199؛ انظر النص: ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/ 212؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 372؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 67.

"خذهم بالعدل في المكيال والميزان"[1]، وقد وقّع الرّشيد إلى عامله بالكوفة: "حابِ علْيَة النّاس في كلامهم، وسَوِّ بينهم وبين السّفلة في أحكامك"[2]، كما وقّع على رقعة رجل يتظلّم من عمرو بن مسعدة: "يا عمرو، اعمر نعمة الله عندك بالعدل، فإنّ الجوْرَ يهدمِها"[3].

وإلى جانب هذه التّوقيعات التي يُطلب فيها العدل والرّفق بالرّعيّة هناك توقيعات يدعو الخلفاء فيها إلى البطش بمن يتجاوز حدّه من الرّعيّة ومعاقبتهم وردعهم، خاصّة الخارجين منهم عن أمر الخليفة، فقد وقّع السّفّاح إلى أبي جعفر المنصور في ابن هُبيرة بعد أن راجعه فيه غير مرّة: "لستُ منك ولست منّي إن لم تقتله"[4]. ووقّع الرّشيد إلى صاحب السّند الذي كتب إليه بظهور العصبيّة: "مَن أظهر العصبيّة، فعاجله بالمنيّة"[5]. ووقّع إلى عامله على خُراسان: "من رفع رأسه فأزله عن بدنه"[6]. كما وقّع أيضاً إلى صاحب المدينة المنوّرة: "ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن، فإنّهم قد أطالوا ليلي بالسُّهاد، ونفوا عن عيني لذيذ الرُّقاد"[7].

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/ 212؛ أ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/ 372؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 67.

(2) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد(ت414هـ)، البصائر والذّخائر، تحقيق: وداد القاضي، ط1، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م: 7/137.

(3) الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 78.

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/211؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/367؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 56.

(5) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/214؛ الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت430هـ)، خاص الخاص، شرحه وعلق عليه: مأمون بن محيي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1414هـ/1994م: 131؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/375؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 73.

(6) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/214؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/375؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 74.

(7) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/214؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 4/376؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 75.

تتضمّن هذه التّوقيعات الطّلب إلى العمّال تشديد قبضتهم على أهل ولاياتهم، ولا سيّما المعروفين بعدائهم للدّولة وسياستها، وهؤلاء الذين يسببون الاضطرابات والقلق وعدم الرّاحة للحكّام.

وقد توجّه توقيعات للولاة أنفسهم تحمل نبرة التّهديد والوعيد، ومن ذلك ما وقّع به المنصور إلى بعض عمّاله: " قد كثر شاكوك، وقلّ شاكروك، فإمّا اعتدلت، وإمّا اعتزلت"(1). وقد يؤاخذ العامل على ما يقع فيه من هم تحت إمرته من أخطاء، فقد وقّع المنصور إلى عامله على حمص، وقد جاء منه كتاب فيه خطأ: "استبدل بكاتبك، وإلاّ استُبدل بك"(2). ووقّع المأمون في قصّة متظلّم من محمد بن الفضل الطّوسي: "قد احتملنا بذاءك وشكاسة خُلُقك، فأمّا ظلمك للرّعيّة، فإنّا لا نحتمله"(3). ووقّع أيضاً إلى أحد عمّاله: "لو استقامت لك الطّريقة لرضيت الخليقة، فإن لم تدع فيهم العدل، راعينا فيك العزل"(4). وهذا يدلّ دلالة واضحة على حرص الخلفاء على إشاعة العدل في المجتمع وإن استدعى الأمر تهديد الولاة بالعزل، أو عزلهم فعلاً، إضافة لما كانوا يتعرّضون إليه من التّوبيخ والتّقريع، فقد وقّع المأمون في قصّة متظلّم من حُميد الطّوسي: "يا أبا غانم، لا تغيّر بموضعك من إمامك، فإنّك وأخسّ عبيده في الحقّ سيّان"(5).

---

(1) أبو منصور الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ط3، دار الغصون، بيروت، 1405هـ/1985م: 78؛ الثعالبي، خاص الخاص: 130؛ الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك: 62؛ الراغب الأصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ: 176/1.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 370/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 61.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 216/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 379/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 87 و 88.

(4) الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء:176/1؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب:92.

(5) الثعالبي، خاص الخاص: 131 و132؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 378/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 87.

وتضمّنت التّوقيعات موضوع إقامة الحكم الشّرعيّ في قضايا الجنايات المرفوعة إلى الخلفاء ووزرائهم(1)، فقد وقّع الرّشيد إلى عيسى بن ماهان، وقد كتب إليه بقتل العمركي، المنسوب إلى الزّندقة: "﴿بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِيْن﴾"(2)، ومن تلك التّوقيعات توقيع المهديّ بإقامة حكم القصاص في قصّة رجل حُبس في دم بقوله تعالى: ﴿ولَكُم في القصاصِ حَيَاة يَا أُولِي الألْبَاب﴾(3)، وفي مثل هذا التّوقيع إقامة لحدّ قتل الجاني. وفي توقيع رُفع للمأمون أنّ قاضي جَبُّل(4) يعضّ رؤوس الخصوم فوقّع المأمون: " يُشنق، إن شاء الله"(5). وقد يوقّع نيابة عن الخليفة الوزير أو الوالي، فقد وقّع الفضل بن سهل في رجل شُهد عليه أنّه شتم أبا بكر وعمر– رضي الله عنهما–: " يُضرب دون الحدّ، ويُشهر ضربه"(6). فهذه التّوقيعات شاهد على عناية العبّاسيين وحرصهم على تطبيق العقوبة على مستحقّها، وإقامة الحكم الشّرعيّ في القضايا المختلفة.

وقد تشتمل التّوقيعات أحياناً على العفو عن المذنبين، والصّفح عنهم، ومن ذلك توقيع المنصور: "قد أمّنت كلَّ مذنب، وشكرت كلَّ بريء، وجبرت كلّ وليّ"(7).

---

(1) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 78.

(2) سورة هود: الآية: 44؛ الثعالبي، خاص الخاص: 131؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 377/4.

(3) سورة البقرة: الآية: 179؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 373/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 69.

(4) بُليدة بين النّعمانيّة وواسط في العراق.انظر: ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ/1984م: جَبُّل.

(5) الثعالبي، ثمار القلوب: 236؛ الآبي، نثر الدر: 112/3؛ الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء: 199/1؛ ابن حمدون، التذكرة الحمدونية: 466/1 و 222/3؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 93.

(6) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 220/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 389/4؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 79.

(7) الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 64.

وتوقيع الرّشيد في قصّة محبوس: "من لجأ إلى الله نجا"[1]. كما وقّع أيضاً لأبي العتاهية عندما كتب إليه من السّجن:

تفديك نفسي من كلّ ما كرهت نفسك إن كنت مذنباً فاغفر

يا ليت قلبي مصور لك ما فيه لتستيقن الذي أُضمر

فرقّ له الرّشيد، ووقّع في رقعته: لا بأس عليك. فأعاد عليه أبو العتاهية رقعة أخرى فيها:

أرقتُ وطار عن عيني النُّعاس ونام السّامرون ولم يُواسوا

أمينَ الله أمنُك خير أمنٍ عليك من التُّقى منه لباسُ

تُساس من السّماء بكلّ برٍّ وأنت به تسوسُ كما تُساسُ

كأنّ الخلقَ رُكبٌ فوق روح له جسدٌ وأنت عليه راسُ

أمينَ الله إنّ الحبسَ بأسٌ وقد وقّعت: ليس عليك باسُ[2]

فأمر بإطلاقه[3].

وقد تصدر التّوقيعات بتأمين من رجع إلى طاعة الخليفة من الخارجين عليه كما في توقيع المهديّ إلى يوسف البَرَم حين خرج بخُراسان: "لك أماني ومؤكّد أيماني"[4]. وتوقيع المأمون في كتاب بشر بن داود: "هذا أمانٌ عاقدت الله عليه في

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 214/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 375/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 82.

(2) أبو العتاهية، الديوان، دار صادر، بيروت، 1400هـ/1980م:233.

(3) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري(ت276هـ)، عيون الأخبار، شرحه وضبطه وعلّق عليه وقدّم له ورتّب فهارسه: يوسف عليّ طويل، دار الكتب العلمية، بيروت: 153/1؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1958م: 231؛ الزمخشري (ت538هـ)، ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، تحقيق ودراسة: عبد المجيد دياب، رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م: 1/ 522؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 83.

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 373/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 68.

مناجاتي إيّاه"[1].

وقد يتولّى الوزراء التّوقيع على الرّقاع، فقد وقّع الحسن بن سهل(ت236هـ/851م) في قصّة امرأة حُبس زوجها: "الحقّ يحبسه، والإنصاف يطلقه"[2]، ووقّع طاهر بن الحسين في قضيّة رجل دخل الحبس: "يُطلق ويُعتق"[3]..

وقد تردّ بعض التّوقيعات متضمّنة ردّ ظلامات السّجناء ومعارضتها بما يتّسع له التّوقيع الموجز، وكثيراً ما كانت تبوء محاولات الاستعطاف بالفشل وذلك حرصاً من الخلفاء على تنفيذ العقوبة بالمذنب، ومن ذلك توقيع الرّشيد عندما كتب يحيى البرمكي إلى الرّشيد قصيدة استعطاف، وبعث بها إلى الأمين فبعث بها الأمين إلى أمّه زبيدة، فأعطتها هارون، حيث وقّع أسفلها: " عظِمُ ذنبك أمات خواطر العفو عنك. ورمى بها إلى زبيدة، فلمّا رأت توقيعه علمت أنّه لا يرجع عنه"[4]، ومن ذلك توقيع جعفر البرمكي في قصّة سجين: ﴿لِكلِّ أَجَلٍ جَوَابٍ﴾[5].

ومن الأغراض البارزة للتّوقيعات، ما كان يُكتب في تلبية دعوات المتضرّرين وأصحاب الحاجات، ومن التّوقيعات التي تدلّ على وقوف الدّولة إلى جانب من أُصيبوا بنكبات تستدعي العون، توقيع المهديّ في قصّة قوم أصابهم قحط: "يُقدَّر لهم قوت سنة القحط، والسّنة التي تليها"[6]. ووقّع المأمون عندما رفع إليه أهل

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 216/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 379/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 97.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 220/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 389/4؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 81.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 222/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 392/4.

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 65/5؛ حمادة، الوثائق السياسية: 201؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 81.

(5) سورة الرعد: الآية: 38؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: 219/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 384/4؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 82.

(6) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 372/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 69.

السّواد قصّة إتيان الجراد على غلاّتهم: "نحن أولى بضيافة الجراد من أهل السّواد، فليُحَطّ عنهم نصف الخراج"[1]. وهذا يشبه ما تقوم به بعض الدّول من تحمّل المسؤولية وبعض النّفقات إذا ما تعرّضت تلك الدّول لبعض الكوارث الطبيعيّة. ومن التّوقيعات التي صدرت في قضاء الدّين عن المدينين، ما وقّع به المهديّ لرجل من الغارمين: "خذ من بيت مال المسلمين ما تقضي به دينك، وتقرّ عينك"[2]. ووقّع في قصّة رجل شكا الحاجة: "أتاك الغوث"[3].

وكُتبت التّوقيعات أيضاً في موضوع توزيع العطايا والصّلات، وقد كانت تُوزّع الهبات والعطايا على المتنفّذين في الدّولة والمقرّبين من الخلفاء، فقد وقّع المأمون في يوم عاشوراء لبعض أصحابه، وقد وافته الأموال: "يؤمر له بخمسمائة ألف؛ لطول همّته، ولثمامة بن أشرس بثلاثمائة ألف؛ لتركه ما لا يعنيه، ولأبي محمد اليزيديّ يؤمر له بخمسمائة ألف لِكبره، وللمُعَلّى بخمسمائة ألف؛ لصحيح نيّته، ولإسحاق بن إبراهيم بخمسمائة ألف؛ لصدق لهجته، وللعبّاس بخمسمائة ألف؛ لفصاحة منطقه، ولأحمد بن أبي خالد بألف ألف؛ لمخالفته شهوته، ولإبراهيم بن بُوَيه كذلك؛ لسرعة دمعته، وللمريسيّ بثلاثمائة ألف؛ لإسباغ وضوئه، ولعبد الله بن بشر بمثلها؛ لحسن وجهه"[4]، يُلاحظ أنّ الخليفة قد أغدق العطايا على أشخاص يتّسمون بسمات يُحبّ أن يتحلّى بها المقرّبون إليه.

ولم تكن هذه الصّلات قصراً على المتنفّذين لدى الخليفة، فقد كانت تطال كلّ من يمّم وجهه إلى الخليفة طالباً الصّلة والعون، وفي ذلك كتب أحمد بن يوسف

---

(1) الثعالبي، خاص الخاص: 132؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 381/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 105.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 373/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 69.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 373/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 69.

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 216/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 380/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 106.

وزير المأمون، إلى المأمون يذكّره بطلاّب الصّلات على بابه: " إنّ داعــي نــداك، ومنادي جودك، جمعا ببابك الوفود، يرجون نائلك العتيد، فمنهم من يمتُّ بحُرمــةٍ، ومنهم من يُدلي بسالف خدمة، وقد أجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيّام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعشهم بسيبه، ويحقّق حسن ظنّهم بِطَوْله، فعل، إن شاء الله.

فوقّع المأمون في كتابه: " الخير مُتّبع، وأبواب الملوك مظانٌّ لطلاّب الحاجات ومواطن لهم، ولذلك قال الشّاعر:

يسقط الطّيرُ حيثُ يُلتقط الحَبــ ـــبُ وتُغشى منازلُ الكُرماءِ

فاكتب أسماء مَن ببابنا منهم، وبيّن مرتبة كلّ واحد منهم ليصير إليــه علــى قــدر استحقاقه، ولا تُكدِّرن معروفنا عندهم بالمطل والحِجاب، وتأخير الجواب، فقد قــال الشّاعر:

فإنّك لن ترى طَرْداً لحُــرٍّ كإلصاقٍ به طَرَفَ الهَوانِ
ولم تُجلب مودّةُ ذي وفاءٍ بمثلِ الودِّ أو بذلِ اللِّسانِ[1]

وربّما طُلب في التّوقيعات من أهل الحاجات التّريّث والصّبر إلى حين النّظــر فــي مطالبهم، ونجد هذا في توقيع الفضل بن سهل إلى مســتميح: "كُــن بالبــاب يأتــك الجواب"[2].

وقد يُردّ صاحب الحاجة فلا يُستجاب له، فقد كتب زياد بن عبيد الله الحارثيّ إلى المنصور يسأله الزّيادة في عطائه وأرزاقه وأبلغَ في كتابه، فوقّع المنصور: "إنّ الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجل أبطراه، وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلــك، فاكتفِ بالبلاغة"[3].

وكُتبت التّوقيعات في الإذن والموافقة على القيــام ببعض الأعمال، أو ردّها

---

(1) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 485/2.

(2) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر،: 232/6.

(3) الآبي، نثر الدر: 90/3؛ الثعالبي، خاص الخاص: 130؛ الخطيب البغــدادي، أحمــد بــن علي(ت463هـ)، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيــروت: 56/10؛ النــويري، نهايــة الأرب: 308/3؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 371/4؛ الــدروبي، جمهــرة توقيعــات العرب: 63 و64.

وعدم التّرخيص بها، ومن التّوقيعات التي تضمّنت الموافقة على الإذن، توقيع السّفّاح في كتاب أبي مسلم الخُراسانيّ يستأذن في الحجّ والزّيارة، فكان توقيع السّفّاح: "لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام وخليفته، وإذنك لك"[1]، ووقّع المنصور إلى صرورة[2]، وقد سأله أن يَحُجَّ: "﴿ ولله على النّاس حجُّ البيت مَن استطاع إليه سبيلاً﴾"[3].

ومن التّوقيعات المكتوبة في ردّ الإذن بالحجّ ما وقّع به المأمون في أمر رجل ضرب على سكّته، فأُمر بحبسه مؤبّداً، فلبّى في الحبس؛ ليخرج، فرُفع الخبر إلى المأمون، فوقّع: "أظنّ هذا الرّجل الخائن قصد خلاف نيّته في الحجّ، وأظهر ضدّ عزيمته، وقد أخطأت أسته الحفرة، فإذا حُرِمَ الحجّ بسوء تدبيره، فلن يُعدم فتوى صادقة من فريضة محكمة، وهو محصر[4] وعليه الهَدْي، فليأخذ بتعجيله، ولا يُرخص له في تأخيره"[5].

ووقّع المنصور في ردّ الإذن إلى رجل من العامّة يسأله بناء مسجد في محلّته، فوقّع في رقعته: "إنّ من أشراط السّاعة كثرة المساجد، فزد في خطاك تزدد في الثّواب"[6].

اتّسعت التّوقيعات لتحمل في طيّاتها الثّناء على من أثبت كفايته من رجال الدّولة، حيث أبرزت هذه التّوقيعات الصّفات التي يتحلّون بها من صدق وأمانة

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 211/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 367/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 56.

(2) الصرورة: من لم يحج بيت الله. (ابن منظور، لسان العرب: صرر).

(3) سورة آل عمران: الآية:97؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 370/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 65.

(4) محصر: محبوس. (ابن منظور، لسان العرب: حصر).

(5) الآبي، نثر الدر: 109/3.

(6) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 97/8؛ التوحيدي، البصائر والذخائر: 18/2؛ الثعالبي، خاص الخاص: 130؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 369/4 و370؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 65و66.

وإخلاص، وحسن سيرة، وتحمّل مسؤولية، ونجد ذلك جليّاً في توقيعات المأمون التي يُثني بها على عبد الله بن طاهر عندما كتب إليه يزيد بن عقال يُثني على عبدالله بن طاهر، فوقّع في كتابه: "عبد الله كما ذكرت، وعلى أكثر ممّا وصفت، قد حمّله أمير المؤمنين فاحتمل، وأثقله فاضطلع"[1]، ووقّع إلى طاهر بن الحسين صاحب خُراسان: "أحمد الله، أبا الطّيب، إذا أحلّك من خليفته محلّ نفسه من نفسه، فمالك موضع تسمو إليه نفسك إلاّ وأنت فوقه عنده"[2]، ومثل هذه التّوقيعات تشير إلى علوّ مكانة الممدوح في نفس المادح، على نحو لا يخلو من المغالاة الواضحة، وقد برز في التّوقيع الثّاني أنّ المأمون استحضر ما تتوق إليه نفس طاهر بن الحسين، وملبيّاً إلى ما يتطلّع إليه، وهذا التّوقيع لا يعدو أن يكون من المجاملات السياسيّة التي كانت تشيع في المراسلات الجارية في ذلك العصر[3].

وكُتبت التّوقيعات في ردّ السّعاية وردع من يقوم بها، فقد كثُرت السّعاية لدى الخلفاء، وإظهار التّنصّح، وتنوّعت موضوعاتها، وكثيراً ما كان ردّها مصحوباً بالتّقريع والتّأنيب حرصاً من الخلفاء على الحدّ من هذه الظّاهرة السّيئة، وفي مثل هذا وقّع السّفّاح إلى بعض السُّعاة عندما جاءه متنصّحاً ويريد الثّواب، فوقّع في رقعته: "تقرّبت إلينا بما باعدك عن الله، ولا ثواب لمن آثر عليه وخالف أمره"[4]، ووقّع أيضاً لمن أراد السّعاية على بعض عمّاله: "هذه نصيحةٌ لم يُرَدْ بها ما عند الله، ونحن لا نقبل قول مَن آثرنا على الله"[5]، وتوقيعه في رقعة ساعٍ: " أنت ظاهر

---

(1) الآبي، نثر الدّر:115/3؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 102.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 379/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 379/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 103.

(3) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 85.

(4) الثعالبي، خاص الخاص: 130؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 368/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 53.

(5) ينسب هذا التوقيع إلى المنصور، الآبي، نثر الدر: 78/3؛ المقتطف: 180؛ الصفدي، خليل ابن أيبك، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، 1389هـ/1969م: 232؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 57.

السّعاية، قليل النّكاية"[1].

اشتملت التّوقيعات على توجيهات كتبها القائمون على الأمر إلى العمّال والولاة، وقد هدفت هذه التّوجيهات إلى ضمان تيسير شؤون الحكم وتحقيق التّواصل مع الرّعيّة، وتنوّعت هذه التّوجيهات بين توجيهات سلوكيّة وإداريّة، فمن التّوقيعات التي ألحّت على المنحى السّلوكي، توقيع المهديّ إلى صاحب أرمينية عندما كتب إليه يشكو سوء طاعة رعاياه: "﴿ خُذْ العفوَ وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين﴾"[2]. ومن التّوقيعات التي تنحو المنحى الإداري، توقيع الرّشيد إلى صاحب خُراسان: "داوِ جُرحك لا يتّسع"[3]. وتدعو التّوقيعات أحياناً إلى الحزم في الأمور، فقد وقّع الرّشيد إلى عامل خُراسان: "إنّ الملوك يؤثر عنهم الحزم"[4]. وقد اتّسعت التّوقيعات للتّوجيهات – بشقّيها السّلوكي والإداري– لتشمل التّهديد، والتّقريع، والتّوبيخ، والشّتم العنيف أحياناً، وبخاصّة في حقّ من أساء السّيرة من العُمّال والولاة، ومن ذلك توقيع الهادي إلى صاحب أفريقية في أمر فَرَط منه: "يا ابن اللخناء، أنّى تتمرّس"[5]. وقد تكون نبرة التّعنيف بالدّعاء على المخاطب في معرض إنكار فعلته، كما في توقيع الرّشيد إلى خزيمة بن خازم، إذ كتب إليه أنّه وضع السّيف في أهل أرمينية حين دخلها: "لا أمَّ لك! تقتُلُ بالذّنب مَن لا ذنب له"[6].

---

(1) الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء: 401/1.

(2) سورة الأعراف: الآية: 199؛ انظر النص: ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 372/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 67.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 374/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 74.

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 214/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 375/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 74.

(5) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب: 374/4؛ محمد الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 71.

(6) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 214/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 375/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 74.

وقد تنحو التّوقيعات منحى التّحذير والتّهديد، فقد وقّع الرّشيد إلى عامله على مصر: "احذر أن تُخرِّب خزانتي وخزانة أخي يوسف، فيأتيك منّي ما لا قِبَل لك به، ومن الله أكثر منه"[1]. ويلحق هذا التّهديد أحياناً بعض الإجراءات التّأديبيّة، ومن أشدّ الإجراءات التّأديبيّة العزل؛ لأنّه يشكّل إهانة شديدة في حقّ من يقع عليه، ومثال ذلك ما وقّع به المأمون إلى عامله على أرمينيّة حين كتب إليه أنّ الجند استطالوا وشغبوا في طلب أرزاقهم، حتّى كسروا أقفال بيت المال فانتهبوه: "اعتزل عملنا، فلو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا"[2]. وقد يُمنح صاحب المنصب أحياناً فرصة لتقويم اعوجاجه، ويُكتفى في مثل هذه الحال بتهديده بالعزل فحسب، ومن ذلك ما وقّع به المأمون في كتاب متظلِّم من أحمد بن هشام: "اكفني أمره وإلاّ كفيته أمرك، والسّلام"[3]. وكذلك توقيعه إلى عامل في رقعة متظلِّم: "أنصف مَن وليت أمره، وإلاّ أنصفه مَن ولي أمرك"[4]. ووقّع أيضاً إلى عامل: "لو استقامت لك الطّريقة لرضيت الخليقة، فإن لم تَدَع فيهم العدل، راعينا فيك العزل"[5]. وفي هذه الطّائفة من التّوقيعات تبدو روح السّياسة الحازمة التي كان ينهجها العبّاسيّون -خلفاء ووزراء- من أجل تحقيق ما نسمّيه اليوم بالصّالح العامّ، حتّى لو كان الأمر يستدعي صرف كبار المستخدمين من وظائفهم[6].

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 213/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 374/4؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 76.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 212/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 370/4 و371؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 92.

(3) البيهقي، المحاسن والمساوئ: 559؛ الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء: 176/1؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 88و89.

(4) الزمخشري، ربيع الأبرار: 600/3؛ العاملي، محمد بهاء الدين، الكشكول، ط1، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، 1403هـ/1983م: 14/1، الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 90.

(5) الراغب الأصبهاني،محاضرات الأدباء: 176/1؛ الدروبي، جمهرة توقيعات العرب: 92.

(6) انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 86-89.

التّعيين والعزل: تُعدُّ رسائل التّعيين والعزل من الرّسائل الرّسميّة التي يوجّهها الخليفة أو وليّ العهد إلى مَن يقع عليه الاختيار ليتقلّد منصباً من المناصب العُليا في الدّولة، كالوزارة، ورئاسة الدّواوين، وقيادة الجُند، وولاية الأمصار، والقضاء، وغيرها، ويقوم مَن يُصدر العهد بالتّعيين برسم الخطوط العريضة للمُعيَّن ليسير عليها في إدارة عمله الجديد، وتختلف عهود التّعيين من حيث الطّول والقصر، فبعضها يتجاوز عشر الصّفحات، وبعضها الآخر قد يصل إلى مرتبة التّوقيعات من حيث القصر، وخير ما يمثّل المنحى الأوّل ذلك العهد الذي كتبه طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله لمّا ولي الرّقّة، واشتمل هذا العهد على جميع التّدابير التي تتعلّق بهذا المنصب، وقد ذكروا "أنّ طاهراً لمّا عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد تنازعه النّاس وكتبوه، وتدارسوه وشاع أمره، حتّى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه، فقال: ما بقّى أبو الطّيب شيئاً من أمر الدِّين والدُّنيا والتّدبير والرّأي والسّياسة وإصلاح الملك والرّعيّة وحفظ البيضة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة إلاّ وقد أحكمه، وأوصى به وتقدّم، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العُمّال في نواحي الأعمال"[1].

ويُفتتح هذا العهد بحثّ الوالي الجديد على تقوى الله – عزّ وجلّ– وطاعته وخشيته: "عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه"[2]، ثمّ يدعوه إلى الرّأفة بالرّعيّة، وإقامة العدل بينهم، والدّفاع عنهم، وحقن دمائهم، وإدخال الرّاحة عليهم: "فإنّ الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرّأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقِّه وحدوده فيهم، والذّب عنهم، والدّفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الرّاحة عليهم في معايشهم"[3]، وأمره أن يعنى عناية شديدة بالصّلاة وما يتعلّق بها من المحافظة على مواقيتها، وسننها، وإسباغ الوضوء لها، وافتتاحها بذكر الله، وترتيل

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 591/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 34؛ الدروبي، الرسائل الفنية: 110-111.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 582/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 25.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 582/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد:25و26.

القرآن فيها، والتّمكن في الرّكوع والسّجود والتّشهد، والحرص على صلاة الجماعة وحثّ الآخرين عليها؛ وذلك لأنّ الصّلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر[1]، ويوجّه وليّ العهد إلى الأخذ بسنن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، والاقتداء بسيرته، وسيرة السّلف الصّالح، والعمل بما جاء في كتاب الله من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، والالتزام بما جاء في السُّنّة المطهّرة. ويحثّه على الاقتصاد في الأمور كلّها: " فليس شيء أبين نفعاً، ولا أحضر أمناً، ولا أجمع فضلاً من القصد... وقوام الدِّين والسُّنن الهادية بالاقتصاد، فآثره في دنياك كلّها... واعلم أنّ القصد في شأن الدّنيا يورث العزّ، ويُحصّن من الذّنوب"[2]، ويدعوه أيضاً إلى إحسان الظّنّ بالله، حتّى تستقيم له رعيّته، وكذلك إحسان الظّنّ بأصحابه والرّأفة برعيّته على أن لا يمنعه ذلك من استعمال المسألة والبحث عن أموره، والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرّعيّة والنّظر فيما يقيمها ويصلحها[3].

أمّا ما يتعلّق بالأحكام فإنّه يطلب إليه أن يأخذ بحكم الشّرع فيما يعرض له من المسائل: "وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم، وما استحقّوه، ولا تُعطّل ذلك ولا تهاون به، ولا تؤخّر عقوبة أهل العقوبة؛ فإنّ في تفريطك في ذلك لما يفسد عليك حسن ظنّك"[4]، ويدعوه إلى الوفاء بالعهد، والابتعاد عن الكذب وقول الزّور والنّميمة، وعليه أن يُحبّ أهل الصّدق والصّلاح، وإعانة الأشراف بالحقّ، ومساعدة الضّعفاء، وصلة الرّحم، واجتناب أهل الأهواء والجور، وردع النّفس عند الغضب، وإيثار الوقار والحلم، والابتعاد عن الحِدّة والطّيرة والغرور[5].

أمّا ما يتعلّق بالأموال، ترد التّوجيهات إلى الوالي بضرورة استثمارها؛ فإنّها إذا تُركت في الخزائن لا تُثمر، وإذا كانت في إصلاح الرّعيّة وإعطاء حقوقهم، وكفّ المؤونة عنهم نمت وربت، وعليه أن يُنفق هذا المال في الوجوه المختصّة

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 583/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 26.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 583/8و584؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 26.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 584/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 26و27.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك:8/ 585؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 28.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 586/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 29و30.

لإنفاقه[1].

ويطلب إليه أن يتفقّد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأن يُدرر عليهم أرزاقهم، ويُوسّع عليهم في معايشهم، حتّى يرسّخ بذلك طاعته في قلوبهم، ويجد أمره عندهم خلوصاً وانشراحاً[2].

أمّا ما يتعلّق بالقضاء فنجده يركّز عليه؛ لأنّه: "ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل، تصلح الرّعيّة، وتأمن السّبل، وينصف المظلوم، ويأخذ النّاس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويُؤدّى حقّ الطّاعة، ويرزق الله العافية والسّلامة، ويقوم الدّين، وتجري السّنن والشّرائع، وعلى مجاريها ينتجز الحقّ والعدل في القضاء"[3].

ويوجّهه أن يُوزّع الخراج بين أصحابه بالحقّ والعدل، والمساواة فيه بين النّاس، وعليه أن يستخدم عمّالاً من ذوي الرّأي والتّدبير والتّجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسّياسة والعفاف، وأن يوسّع عليهم في أرزاقهم، وأن يراقبهم في كلّ صغيرة وكبيرة، وعليه أن يجعل في كلّ كورة عاملاً أميناً يُخبره أخبار العمّال، ويكتب إليه بسيرتهم وأعمالهم، وأن يستعمل الحزم في كلّ ما يريد، وأن يستخير الله في جميع أموره، ولا يُؤجّل عمل يومه إلى غده، وأن يُباشره بنفسه، وأن ينظر في أحرار النّاس ويستخلصهم لنفسه وأن يُحسن إليهم، وأن يساعد الفقراء والمحتاجين، ويرفع الظّلم عن المظلومين[4].

وأخيراً يدعوه إلى الاعتبار من الدّنيا فيمن مضى من الأمم البائدة والقرون الخالية، وأن يعتصم بحبل الله ويعمل بشريعته وسُننه وإقامة دينه وكتابه، ويجتنب ما نهى عنه وما يؤدّي إلى سخطه[5].

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 587/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 30.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 587/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد:30.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 587/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 30و31.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/ 588و590؛ ابن طيفور، كتاب بغداد:31.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 590/8.

يبدو من خلال هذه التّوجيهات والأوامر التي تشتمل عليها هذه الرّسالة مدى عناية الدّولة بالنّواحي الإداريّة، خاصّة التّعيينات.

ويُمثّل المنحى الآخر، وهو أنّ بعض العهود قد تصل من الإيجاز إلى حدّ التّوقيعات، ذلك العهد الذي كتبه ابن الزّيات إلى الواثق لمّا ولاّه المعتصم على مكّة، ونصّه: "أمّا بعد. فإنّ أمير المؤمنين قلّدك مكّة وزمزم، تراث أبيك الأقدم، وجدّك الأكرم، وركضة جبريل، وسُقيا إسماعيل، وحفر عبد المطلب، وسقاية العبّاس، فعليك بتقوى الله تعالى، والتّوسعة على أهل بيته"[1]. ومن تلك العهود التي تتماز بالإيجاز، ذلك العهد الذي بعثه أبو العبّاس إلى الحسن بن قحطبة يخبره أنّه جعل أخاه أبا جعفر قائداً للجيش المحاصر لابن هُبيرة: "العسكر عسكرك، والقوّاد قوّادك، ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فأحسن طاعته ومؤازرته"[2].

وتلزم عهود التّعيين أحياناً بناء واحداً[3]، وتقوم على ثلاثة محاور رئيسة، المحور الأوّل: هو ذكر اسم العاهد وصفته، ثمّ ذكر اسم المعهود إليه: "هذا ما عهد به عبد الله المهديّ محمد أمير المؤمنين إلى فلان، حين ولاّه ثغر أرمينية والباب والأبواب، حربها وخراجها وصدقاتها وجميع أعمالها"[4]، ويحرص الكاتب هنا على ذكر نوع الولاية التي كُتب العهد من أجلها. أمّا المحور الثّاني، فيمثّل جوهر العهد، إذ يشتمل على مجموعة من الأوامر والتّوجيهات التي يحرص العاهد على أن يلتزم بها المعهود إليه، وتبدأ هذه التّوجيهات بكلمة "وأمره" وقد تتردّد هذه الكلمة في العهد الواحد أكثر من سبع مرّات[5]. أمّا المحور الثّالث والذي ينتهي به العهد، فيشتمل على عبارة "هذا عهدي إليك"، ويتضمّن تأكيد ما جاء في المحور الثّاني من أوامر وتوجيهات، وضرورة العمل بها: "هذا عهدي إليك، وأمري إيّاك فيما ولّيتك،

---

(1) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 1097/4؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 36/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 373.

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: 74/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 93و94.

(3) انظر: النماذج التي أوردها قُدامة في كتابه "الخراج وصناعة الكُتّاب": 39-52.

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 132/3.

(5) المرجع نفسه: 3/ 132-134؛ الدروبي، الرسائل الفنية: 115.

وأسندت إليك وقلّدتك، فامتثله، واعمل به ولا تُجاوزه"[1]، وقد تخرج عهود التّعيين عن هذه السّنّة إذ تشتمل فقط على الأمر المطلوب تنفيذه، ومثال ذلك رسالة المنصور إلى أبي مسلم بوليه مصر والشام، ونصّها: "قد ولّيتك مصر والشّام فهي خير لك من خُراسان، فوجّه إلى مصر مَن أحببت، وأقم بالشّام فتكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحبّ لقاءك أتيته من قريب"[2]، وقد وجّه في الوقت نفسه رسالة إلى أبي داود خليفة أبي مسلم على خُراسان بولاية خُراسان لقاء منعه أبا مسلم من العودة إليها: "إنّ لك إمرة خُراسان ما بقيت"[3].

وقد يبدأ العاهد في عهده بالأوامر التي ينبغي على المعهود إليه تنفيذها بعبارات موجزة دون التقيّد بذلك البناء المعهود، فعندما ولّى المهديّ الرّبيع بن أبي الجهم فارس، قال له: "يا ربيع، آثر الحقّ، والزم القصد، وارفق بالرّعيّة، واعلم أنّ أعدل النّاس من أنصف النّاس من نفسه، وأجورهم مَن ظلمهم لغيره"[4].

تأتي رسائل التّعيين تلك بعد رسائل العزل، إذ يضطر الخليفة بين الحين والحين إلى عزل عامل، ونقل آخر؛ لبعض الأسباب التي تتعلّق به أو بعمله، ويعيّن خلفاً له، وفي كلّ الأحوال فإنّه لا بُدّ من رسالة توجّه إلى العامل المعزول تبلغه قرار عزله، وتُطلعه على رغبة الخليفة بإبعاده عن عمله، وقد تذكر الرّسالة السّبب الذي عُزِل من أجله، وقد تتركه مجهولاً.

وتشير الرّسائل التي بين أيدينا إلى أسباب كثيرة تؤدّي إلى عزل العامل، وتعيين غيره، وغالباً ما توجّه هذه الرّسائل إلى المعزول نفسه بصيغة مُقتضبة أشبه ما تكون بالتّوقيعات، ولعلّ هذا الاقتضاب يُردّ في الحقيقة إلى الحالة الشّعوريّة الغاضبة التي تُرافق إنشاء مثل هذا النّوع من الرّسائل[5].

وقد تباينت دواعي العزل، فعزل المنصور صاحب أرمينية حينما كتب إليه يُخبره

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/ 134.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 7/482؛ حمادة، الوثائق السياسية: 124.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 7/485؛ حمادة، الوثائق السياسية: 128.

(4) الآبي، نثر الدر: 3/91.

(5) انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 117.

أنّ الجند قد شغبوا عليه، وكسروا أقفال بيت المال، ونهبوا ما فيه، إذ عدّ ذلك دليلاً أكيداً على ضعفه وعجزه عن السّيطرة عليهم، فكتب إليه: "اعتزل عملنا مذموماً، فلو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا"[1]. وعزل عامله على حضرموت لإهماله شؤون ولايته، وانصرافه عن مهمّته الموكلة إليه بالإكثار من الخروج في طلب الصّيد، فكتب إليه يعنّفه قائلاً: "ثكلتك أُمّك، وعدمتك عشيرتك ما هذه العدّة التي أعددتها للنّكاية في الوحش؟! إنّا إنّما استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمور الوحش سلّم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً"[2].

وتختلف صيغ العزل حسب الموقف، فقد تكون شديدة اللهجة، قويّة النبرة، ونجد هذا في كتاب المنصور السّابق إلى واليه على حضرموت، فيقول له: "ثكلتك أُمّك، وعدمتك عشيرتك"، وهذا الأسلوب فيه من الغلظة والعنف ما فيه، ثمّ يقول له: "والحق بأهلك ملوماً مدحوراً"، وتعلو هذه العبارة مسحة من التّوبيخ الممزوج بالتّهكم وفيه تأثّر بالقرآن الكريم، إذ يذكّرنا بطرد إبليس من الجنّة، وفي هذا مقارنة لحال المعزول بحال إبليس، فكلاهما عمل عملاً غير صالح استحقّ عليه الخروج من النّعمة، خروج المطرود الذّليل.

ونجد ما هو أشدّ صرامة في كتاب الرّشيد إلى عامله على خُراسان عليّ بن عيسى[3]، وقد شتمه في أوّل الكتاب، وأقذع له، لمّا ثبت عنده من خيانته وظلمه، واستخفافه بأوامره، وجحوده لفضله، فخاطبه بقوله: "يا ابن الزّانية! رفعت من قدرك، ونوّهت باسمك، وأوطأت سادة العرب عقبك، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك، فكان جزائي أن خالفت عهدي، ونبذت وراء ظهرك أمري، حتّى

---

(1) حمادة، الوثائق السياسية: 156.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 125/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 154.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 327/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 277/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 260و261.

عثت في الأرض، وظلمت الرّعيّة، وأسخطت الله وخليفته لسوء سيرتك ورداءة طعمتك، وظاهر خيانتك". يلاحظ أنّ الرّشيد خرج عن سنن كتابة الرّسائل إذ بدأ في هذه الرّسالة بالسّبّ المقذع، ساخطاً على هذا الوالي الذي أظهر الفساد والخيانة والظّلم. ثمّ أمر هرثمة بن أعين أن يشدّ وطأته عليه ويحاسبه حساباً عسيراً، ويستخلص منه كلّ ما أخذه من غير حقّه، وينصف أهل عمله من المسلمين والمعاهدين، ويردّ عليهم حقوقهم، ولا يتردّد في تعذيبه إن لزم الأمر ذلك، يقول مخاطباً ابن عيسى: "وقد ولّيت هرثمة بن أعين مولاي ثغر خُراسان، وأمرته أن يشدّ وطأته عليك، وعلى ولدك وكُتّابك وعمّالك، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً، ولا حقّاً لمسلم ولا معاهد إلاّ أخذكم به حتّى تردوّه إلى أهله، فإن أبيت ذلك وأباه ولدك وعمّالك، فله أن يبسط عليكم العذاب، ويصبّ عليكم السّياط، ويحلّ بكم ما يحلّ بمن نكث وغيّر، وبدّل وخالف، وظلم وتعدّى، انتقاماً لله – عزّ وجلّ– بادئاً، ولخليفته ثانياً، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً"[(1)].

ولم تكن رسائل الرّشيد كلّها بتلك القسوة والصّرامة، فقد أمر الرّشيد جعفر بن يحيى أن يعزل أخاه الفضل بن يحيى عن الخاتم ويقبضه إليه قبضاً لطيفاً، فكتب إلى أخيه: "قد رأى أمير المؤمنين أن تنقل خاتم خلافته عن يمينك إلى شمالك"، فكتب إليه الفضل: "ما انتقلت عنّي نعمة صارت إليك ولا خصّتك دوني"[(2)].

وقد يعمد العازل إلى اللين والملاطفة في مخاطبة المعزول، ويعطيه فرصة لإصلاح ما فسد، فالمنصور يخيّر أحد عمّاله الذي كثر شاكوه بين الاعتدال والسّير على النّهج الصّحيح، وبين العزل، وترك الأمر لمن يُحسن سياسته، يقول: "قد كثر شاكوك وقلّ شاكروك فإمّا اعتدلت، وإمّا اعتزلت"[(3)].

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 327/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 277/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 261.

(2) الجهشياري، كتاب الوزراء والكُتّاب: 207؛ ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية: 186؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 155/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 192.

(3) الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك: 62؛ حمادة، الوثائق السياسية: 156.

وتطالعنا هذه الصّيغة في كتاب المأمون إلى عبد الله بن طاهر يعزله عن مصر ويولّي مكانه إسحاق بن إبراهيم، وهي من إنشاء أحمد بن يوسف، ونصّه: "أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين قد رأى تولية إسحاق بن إبراهيم ما تتولاّه من أعمال المعاون بديار مصر، وإنّما هو عملك نقل عنك وإليك، فسلّمه من يدك إلى يدك، والسّلام"[1]. ففي هذا الكتاب من التّأدّب والتّلطف في العزل ما فيه، إذ لم يذكر لفظ العزل ولا أسبابه، وصوّره بصورة انتقال الأمر من وليّ إلى آخر دون إبداء سخط ولا إهانة.

وتتحدّث المصادر عن العديد من الرّسائل التي صدرت عن الخلفاء بالتّعيين أو العزل لكنّها في بعض الأحيان لا تُورد نصّ الرّسالة، فقد جاء في "النّجوم الزّاهرة": "تولّى صالح بن عليّ بن العبّاس من قبل أخيه السّفّاح سنة 133هـ، ثمّ ورد عليه بعد أشهر كتاب السّفّاح بإمارته على فلسطين والاستخلاف على مصر"[2]. وكتب أبو جعفر المنصور من بيت المقدس بطلب ابن أبي عون والي مصر سنة 137هـ إلى بيت المقدس وأمره أن يستخلف على مصر"[3]. وورد كتاب أبي إسحاق بن الرّشيد بولاية عُمير بن الوليد على مصر سنة 214هـ وكان أبو إسحاق والياً على مصر"[4].

ثانياً: المكاتبات الخارجيّة:

لم تكن الدّولة العبّاسيّة بمعزل عن الدّول المتاخمة لها، فقد كانت على علاقات معها، ولم تكن هذه العلاقات طيّبة على الدّوام، بل كانت شديدة الاضطراب أحياناً، فهي لا تستقرّ على حال واحدة، فهي حرب حيناً، وسلم حيناً آخر، وفي الحالتين كان للمراسلات بين الطّرفين أثر بارز وكبير في تنظيم العلاقات وتنسيقها.

---

(1) حمادة، الوثائق السياسية: 342.

(2) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب: 324/1.

(3) المصدر نفسه: 336/1.

(4) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، الولاة وكتاب القضاة، مهذبا ومصححا بقلم: رفن كَست، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بلا تاريخ: 185.

وعلى الرّغم من كثرة ما كُتب بين الدّولة العبّاسيّة وأعدائها، فإنّ هذا اللون من المكاتبات – شأنه شأن بعض الأنواع الأخرى– قد فُقد معظمه وضاع لأسباب عدّة، فلم يبق منه إلاّ القدر اليسير، الذي لا يشكّل بمجموعه مادّة كافية لبحث مستقلّ[1]، وهذه بعض المكاتبات التي يمكن أن تُشير إلى طبيعة العلاقات بين العبّاسيين وجيرانهم في هذا العصر:

مكاتبات التّهديد والوعيد: وتصوّر هذه المكاتبات العلاقة المتوتّرة بين العبّاسيين وجيرانهم، وتمتلئ بعبارات التّرهيب والوعيد، وتنذر الملاقاة والقتال، ويمثّل ذلك كتاب نقفور إلى الرّشيد ينقض فيه الصّلح الذي كان بين المسلمين والإمبراطورة إيريني، التي خلعها الرّوم، ويطلب إلى الرّشيد أن يُعيد إليه ما أخذه منها، ويفتدي نفسه، كيلا يتوجّه إلى قتاله[2]، ونصّ الكتاب: "من نقفور ملك الرّوم، إلى هارون ملك العرب، أمّا بعد، فإنّ الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرّخ[3]، وأقامت نفسها مقام البيدق[4]، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها؛ لكن ذاك ضعف النّساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فارْدُدْ ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلاّ فالسّيف بيننا وبينك"[5].

---

(1) انظر: الرّفاعي، عصر المأمون: 288/1؛ بيوض، الرسائل السياسية: 125؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي الأوّل: 184.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 192/1و 457/6؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 307/8.

(3) الرّخ: من أحجار الشّطرنج يسميه اللاعبون في الوقت الحاضر: القلعة. الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 186.

(4) البيدق: من أحجار الشطرنج يسميه اللاعبون في الوقت الحاضر: جندي المشاة. محمد الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 186.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 307/9؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 274/3و275؛ محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية: 203؛ الضناوي، موسوعة هارون الرشيد: 344/2؛ الخضري، الدولة العباسية: 86؛ إسماعيل، عز الدين، في الأدب العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975م: 134.

يقوم الكتاب على التّهديد والوعيد، إضافة لذلك فهو مشحون بأساليب الإهانة، فالرّشيد لم يكن ليحصل على الجزية من الرّوم إلاّ لأنّ الملكة امرأة يغلب عليها الضّعف والجهل، والأولى أن يدفع الرّشيد إلى الرّوم، لذا نجده يدعو الرّشيد بلهجة قاسية إلى ردّ الأموال التي دفعتها الملكة للمسلمين.

ويعجّ الكتاب بأساليب متنوّعة من الإهانة التي أبداها نقفور للرّشيد، ومن هذه الأساليب أنّه قدّم نفسه وأخّر الرّشيد في موقفين: الأوّل عندما قال: "من نقفور ملك الرّوم إلى هارون ملك العرب"، والآخر في نهاية الكتاب عندما قال: "وإلاّ فالسيف بيننا وبينك"، ومن الأساليب الأخرى أنّه نعته بـ "ملك العرب"، وهذا اللقب يشبه ألقاب ملوك الكفر، والرّشيد يأبى أن يتشبّه بملوك الكفر في ألقابهم، ومن صور الإهانة الأخرى أنّه شبّه الرّشيد بقطعة الشّطرنج التي تُحرّك من قبل الآخرين، وفي نهاية الأمر طلب إليه أن يفتدي نفسه، وفي هذا من الإهانة ما فيه.

وعندما قرأ الرّشيد الكتاب استفزّه الغضب، وكتب في جوابه: "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الرّوم، أمّا بعد، فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما ترى لا ما تسمع ﴿وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار﴾[1].

نلاحظ على الرّغم من قصر الكتاب، فإنّه مشحون بالمعارضة شديدة اللهجة، حيث استخدم ألفاظاً أشدّ وقعاً من ألفاظ الكتاب السّابق، فاستبدل عبارة "ملك الرّوم" بعبارة: "كلب الرّوم"، ونعته كذلك "بابن الكافرة"، ولهذا أثره البالغ في النّفس، ولم يكتفِ الرّشيد بالقول وتوجيه الإهانة، بل سار بنفسه في مئة ألف وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة سوى من لم يرد اسمه في الدّيوان من الأتباع والمتطوّعة، حتّى نزل هرقلة من بلاد الرّوم وحصرها ثلاثين يوماً، ثمّ فتحها، وبثّ عساكره في أرض

---

(1) سورة الرعد: الآية: 42؛ انظر النص: القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها: شوقي أبو خليل، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1418هـ/1997م: 135و136؛ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت749هـ)، تاريخ ابن الوردي، ط2، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، 1389هـ/1969م: 312/1، القلقشندي، صبح الأعشى: 192/1و457/6، صفوت، جمهرة رسائل العرب: 274/3و275؛ حمادة، الوثائق السياسية: 203.

الرّوم ففتحوا وخرّبوا، وبعث ملك الرّوم بالجزية عن رعيّته إليه[1].

ونقف أيضاً عند كتاب توفيل إلى المعتصم عندما أرسل إليه كتاباً شديد النبرة، يتهدّد فيه المعتصم، فأمر أن يكتب جوابه، فلمّا قرئ عليه لم يرضه، وقال للكاتب: اكتب. "بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، ﴿ وَسَيَعْلَم الكَفَّار لِمَنْ عُقْبَى الدَّار ﴾ [2]، وكان نهج المعتصم في موقفه هو نهج الرّشيد، إذ لم يكتفِ بالتّهديد والوعيد إنّما سرعان ما نفّذ تهديده بأن سار بجيوشه نحو بلاد الرّوم، وحاصر عموريّة حتّى فتحها وعاث فيها خراباً وهدماً[3].

مكاتبات طلب الهدنة والصّلح: كان الصّلح موضوع كثير من المكاتبات التي تُبودلت بين الطّرفين، إذ كانوا يحرصون على إقامته، لما يجدون فيه من الرّاحة، وإتاحة الفرصة للإعداد والاستعداد، على أنّه ما كان ليعقد فتؤثر المواجهة العسكريّة بين الطّرفين، وقد يُقبل الصّلح لمدّة زمنيّة محدّدة قد تكون الغاية منها إعادة التّجهيزات والاستعدادات. ولقد كان الرّوم يسارعون إلى الصّلح كلّما تراجعوا أمام المسلمين[4]، أو شعروا بضعفهم، فيرسلون الكتب يسألون الصّلح، ويُعدّ كتاب توفيل إلى المأمون من أقدم الكتب في هذا الموضوع، وينقسم الكتاب إلى شقّين، في الشّقّ الأوّل يُبدي رغبته في الصّلح وإنهاء الحرب: " وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة، وراغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنّا". أمّا الشّقّ الثّاني من الكتاب فإنّه يلوّح فيه بالقوّة والبطش إذا رفض ما يعرضه عليه، فهو لم يطلب الصّلح عن ضعف

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 308/9؛ الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية": 87؛ الدروبي، الرسائل الفنية: 188.

(2) سورة الرعد: الآية: 42؛ انظر النص: الآبي، نثر الدر: 124/3؛الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 842/3؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 192/1؛ النويري، نهاية الأرب: 261/7؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 11/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 385و386.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 57/9-70؛ الدروبي، الرسائل الفنية: 188.

(4) انظر: الدوري، العصر العباسي الأول: 119.

وجبن، يقول في كتابه: "فإن أبيت، فلا أدبُ لك في الخمر[1]، ولا أزخرف لك في القول، فإنّي خائض إليك غمارها، آخذٌ عليك أسدادها[2]، شانٌ خيلها ورجالها"[3].

وعلى الرّغم من تهديد ملك الرّوم للمأمون، ومكاشفته إيّاه بما يدور في خلده من عزمه على محاربة المسلمين، فإنّ المأمون لم يقف عند رغبته في الصّلح، بل كان ردّه مخيّباً لآمال توفيل، وقد توعّده المأمون بأشدّ ممّا توعّد به، ووجّه إليه ردّاً شديد النبرة، قدّم فيه الرّغبة في الحرب على الرّغبة في السّلم، إذ استهلّ المأمون كتابه بالوعيد: " فلولا ما رجعتُ إليه من أعمال التّؤدة والأخذ بالحظّ في تقليب الفكرة، وألاّ أعتقد الرّأي في مستقبله إلاّ في استصلاح ما أُوثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنّجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثُكلكم، ويتقرّبون إلى الله بدمائكم، ويستقلّون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثمّ أوصل إليهم من الإمداد، وأُبلغ لهم كافياً من العُدّة والعتاد، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السّلامة من مَخُوف معرّتهم عليكم، وموعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة أو كريم منقلب"[4].

يبدو أنّ المأمون لم تُعجبه تلك الطّريقة التي طلب فيها توفيل الصّلح، وأراد أن يُبيّن له أنّ تهديده ووعيده لا يُجدي أمام صلابة المجاهدين من المسلمين وشدّة بأسهم، وإعراضهم عن الدّنيا وإقبالهم على الآخرة، ونبل غايتهم من الجهاد وهو تحقيق النّصر أو الشّهادة، إضافة لذلك إمداد المأمون لهم بما يكفي من العُدّة والعتاد،

---

(1) الخمر: كلّ ما واراك من شجر أو بناء أو غيره، وهو من أمثال العرب: " يمشي له الخمر". (ابن منظور، لسان العرب: خمر).

(2) الأسداد: جمع سدّ، وهو الحاجز والجبل. (ابن منظور، لسان العرب: سدد).

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 629/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 446/3و447؛ الرفاعي، عصر المأمون: 291/1؛ الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية": 145وما بعدها، فازيليف، العرب والروم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، راجعه: فؤاد حسنين علي، دار الفكر العربي، 1934م: 109؛ حمادة، الوثائق السياسية: 365.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 629/8و630؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 448/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 365و366.

وهذه الصّورة التي رسمها لجيشه وعُدّته وعتاده كافية لبثّ الرّعب والفزع في قلوب الأعداء.

ويُخيّر المأمون الملك الرّوميّ بعدد من الخيارات، فيدعوه أوّل الأمر إلى الدخول هو ومن معه في الإسلام، وهذا شأن خلفاء بني العبّاس إذ يرون أنّ الهدف من قتالهم هو نشر الدِّين الإسلامي، سيراً على نهج من سبقهم من الفاتحين، أمّا الخيار الثّاني وهو دفع الجزية مقابل الدّخول في عهد الذّمّة والحماية، والخيار الثّالث هو الحرب، وقد سار المأمون في طلبه على مبادئ الشّريعة الإسلاميّة التي تبدأ بدعوة أعدائهم إلى الدّخول في الإسلام أو دفع الجزية، فإن رفضوا فالخيار الثّالث وهو القتال.

وعلى الرّغم من أنّ عرض المأمون على توفيل أن يدخل الإسلام لم يكن حريّاً أن يؤدّي إلى سلام بين الطّرفين؛ لأنّ المأمون كان قد جهّز كلّ شيء لحملة على حصن عموريّة، وأراد بلوغ عاصمة الرّوم نفسها[1].

وكان يُرافق طلب الصّلح أحياناً إرسال الوفود للتّفاوض، أو لتقديم الأعذار عن الأخطاء والجرائم التي ارتكبها العدو، كما فعل توفيل حين أرسل إلى المعتصم قبل أن يفتح عموريّة هدايا ورسالة، يعتذر فيها عن مذابح زِبطرة، مؤكّداً أنّها حصلت دون رغبته، متعهّداً بأن يُعيد بنائها، ويرجع من سبى من أهلها، ويُطلق جميع الأسرى، على أن يقبل المعتصم بعقد الصّلح، ولكن المعتصم رفض مقابلة الرّسول إلى أن تسقط عموريّة، وبذلك أخفقت محاولة التّفاوض، ولم تُحقّق غرضها[2].

ويتّضح من الرّسائل السّابقة أنّ المسلمين كثيراً ما كانوا يرفضون طلب الرّوم، ولا يُحقّقون رغباتهم إلاّ في الوقت الذي يضطرون فيه إلى الصّلح لانشغالهم بمشكلات داخليّة تصرفهم عن الاهتمام بالجبهة الخارجيّة، وتضعفهم عن الإعداد

---

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 469/2؛ فازيليف، العرب والروم: 109.

(2) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 55/9 وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل: 480/6 وما بعدها؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 581/2؛ فازيليف، العرب والروم: 143؛ إسماعيل، في الأدب العباسي: 140؛ بيوض، الرسائل السياسية: 135.

وأخذ الأهبة، كما حصل في عهد المنصور الذي كان في أكثر مدّته مهادناً للـروم؛ لأنّه كان منصرفاً إلى القضاء على خصومه المناوئين في الدّاخل[1].

يُعدّ موضوع الفداء وفكّ الأسرى من الموضوعات التي كانت تستأثر باهتمـام الطّرفين خلال مباحثات الصّلح، ونادراً ما عُقدت هدنة ولم يُرافقها تبادل للأسرى، وقد جرت أوّل مفاداة للأسرى في عهد المنصور سنة 139هـ[2]، وجرت أيضاً في عهد المهديّ مفاداة سنة 165هـ[3]، وفي الصّلح الذي جرى بين ملكة الرّوم إيريني وبين الرّشيد نراه يشترط عليها تسليم الأسرى لإقامة الصّلح[4]، ويذكر الطبـري أنّ الفداء الذي تمّ في عهد الرّشيد سنة 189هـ كان عامّاً وشاملاً، فلم يبـق بـأرض الرّوم مسلم إلاّ فودي به[5]، والفداء الذي كان في عهد الواثق سنة 231هـ[6]، وكان عدد من فودي به من المسلمين أربعة آلاف رجل وستمائة من النّسـاء والصّـبية، وكان من بين الرّجال خمسمائة من أهل الذّمّة، فوقّع الفداء كلّ نفـس عـن نفـس، صغيراً أو كبيراً[7].

ومن صور رسائل المفاداة تلك الرّسالة التي كتبها نقفور إلى الرّشيد يتودّد إليه في ردّ خطيبة ابنه التي سباها الرّشيد عندما فتح هِرَقْلة سنة 190هـ، وقد حملهـا إلى الرّشيد اثنان من عظماء بطارقة الرّوم، ونصّـها: "لعبـد الله هـارون أميـر المؤمنين، من نقفور ملك الرّوم، سلام عليكم، أمّا بعد، أيّها الملك، فإنّ لي إليـك

---

(1) انظر: الدوري، العصر العباسي الأول: 240؛ عمر، العباسيون الأوائل: 240/2.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 500/7؛ كنعان، تاريخ الدولة العباسية ومـا رافقهـا مـن الممالك: 29/1؛ الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية": 55؛ إسـماعيل، فـي الأدب العباسي: 132.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 153/8.

(4) عمر، العباسيون الأوائل: 248/2.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 318/8؛ الخضـري، تـاريخ الأمـم الإسـلامية "الدولـة العباسية": 87.

(6) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 141/9و142؛ فازيليف، العرب والروم: 175.

(7) إسماعيل، في الأدب العباسي: 152.

حاجة لا تضرّك في دينك ولا دُنياك، هيّنة يسيرة؛ أن تهب لابني جارية من بنات أهل هِرقلة، كنتُ خطبتها على ابني، فإن رأيتَ أن تُسعفني بحاجتي فعلت، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته"[1].

نلاحظ أنّه يُظهر في رسالته هذه ضروباً من الملاينة والملاطفة على خلافِ تلك الرّسالة التي أرسلها إليه يتوعّد ويتهدّد، وتختلف أساليب كتابة هذه الرّسالة عن تلك؛ لأنّ نقفور في هذه الرّسالة يبدو صاحب حاجة، وجُلّ همّه أن يحصل على حاجته، فكان التزامه بالرّسوم الجارية في الكتابة لدى الطّرف الآخر وسيلة لتحقيق حاجته[2].

مكاتبات التّبليغ والدّعوة: وجّه الخلفاء العبّاسيّون مكاتبات إلى زعماء الرّوم يدعونهم فيها إلى الدّخول في الإسلام، وقد اشتملت هذه المكاتبات على دعوة صريحة وواضحة إلى الإسلام ونبذ ما سواه من عقائد وديانات، إضافة إلى أنّ هذه المكاتبات كانت تحمل في طيّاتها التّعريف بالدّين الإسلامي، ومقارنته بالدّيانات الأخرى، لتجعل من يدخله على بصيرة من أمره وبيّنة.

ويُعدّ كتاب الرّشيد إلى قسطنطين خير نموذج لما نذهب إليه، حيث تحدّث فيه عن الإسلام والقرآن الكريم والوحي والرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، وحثّهم على قبول هذا الدّين، وقد بدأ الرّشيد كتابه داعياً قسطنطين إلى ما دعا إليه القرآن الكريم أهل الكتاب: "فرأى أمير المؤمنين من أحسن قوله، وأفضل فعله، أن يكون إلى سبيل ربّه داعياً، وبرسوله– صلّى الله عليه وسلّم– متأسيّاً، ولقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحَاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِيْنَ﴾[3] موافقاً، وكنتَ – من كُتُب الله المنزّلة، وآياته المفسّرة، وخلقهِ الكثير– بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته، وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشر كثير، وخلق عظيم، قد بُؤت بأوزارهم مع

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 320/9؛ حمادة، الوثائق السياسية: 204.

(2) انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي الأول: 200و201.

(3) سورة فصلت: الآية: 33.

وزرك، واحتملت من آثامهم إلى إثمك، فأحبّ أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك، ﴿إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألاّ نَعْبُد إلاّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذ بعْضنَا بعْضاً أرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللهِ﴾[1].

وتقوم المكاتبة على عرض الأدلّة التي تثبت وحدانية الله وتفرّده في الخلق والصّنع، وتتنوّع هذه الأدلّة بين عقليّة ونقليّة، ولكن الكاتب يركّز على الأدلّة النقليّة التي يستقيها من التّوراة والإنجيل، ليقيم الحجّة على النّصارى معتمداً على النّصوص التي يعتقدون صحّتها، ثمّ يعزّز حُججه بالأدلّة الواردة في القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف، والهدف الذي يسعى الكاتب من أجل تحقيقه هو إثبات بطلان عقائد النّصارى وزيفها[2].

ويُوجب المأمون على نفسه في كتابه إلى توفيل أن يعرض عليه الدّخول في الإسلام هو ومن عنده ممّن هم في ظلّ حكمه وسيطرته، ليقيم عليه الحُجّة أمام الله، ويسقط عن نفسه ما افترض عليه من مهمّة التّبليغ، قبل إعلان القتال: "غير أنّي رأيتُ أن أتقدّم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحُجّة، من الدّعاء لك ولمن معك إلى الوحدانيّة والشّريعة الحنيفيّة"[3].

وتؤكّد هذه الدّعوة أنّ المسلمين لم يكن هدفهم الرّئيس هو قتال الأعداء وتحقيق النّصر عليهم، إنّما كان وسيلة يسعون من خلالها تحقيق أسمى الغايات وهي نشر الإسلام، وإتاحة الفرصة لمن عرف طريق الهداية أن يُلبّي الدّعوة ويدخل في دين الله، فإن أبى جرى عليه حكم الشّريعة في أصحاب الذّمّة في دفع الجزية، فإن أبى فالسّيف[4].

وعلى الرّغم من أنّ هذا كان هو الهدف أو الدّافع الأوّل لجهاد العدو- الدّعوة إلى الإسلام- ، فإنّ ذلك لا ينفي وجود دوافع أخرى منها: توسيع رقعة الدّولة

---

(1) سورة آل عمران: 92؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 218/3.

(2) انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 202.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 268/3.

(4) المرجع نفسه: 448/3؛ إسماعيل، في الأدب العباسي: 137.

الإسلاميّة، وتحقيق الانتصارات، وغيرها.

مكاتبات طلب الجزية: تُعدّ الغاية الثّانية التي يُقاتل المسلمون من أجلها بعد قيامهم بمهمّة التّبليغ، فهم يعرضون على أعدائهم الإسلام، فإن أبوا وأصرّوا على التّمسّك بدينهم، فإنّهم يطالبونهم بالجزية، وإلاّ فالحرب. لقد أكّد الرّشيد لقسطنطين في كتابه إليه إنّه ما لم يستجب لنصح أمير المؤمنين، ويُعلن قبوله للإسلام، ويتّخذ منه ديناً له، فليس أمامه مفرّ من دفع الجزية إلاّ الحرب: "وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين، فيما فيه الحظّ في آخرتك، فإنّ أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصّلاح في عاجلتك: من عطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم، ويحرم سباءكم، ويجعلها قواماً لمعاشكم، وصلاحاً لبلادكم، وتوفيراً لأموالكم، وأمناً لجنابكم، وسعة لسربكم، وبركة على فقرائكم، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم"[1]. بيّن له إنّهم بدفع الجزية يحقّقون منافع عظيمة منها: أنّهم يحمون أنفسهم، ويأمنون على أرواحهم، ويحصنون أموالهم، ويغتني الفقير والمعوز منهم. ثمّ أنذره بالقتال، واستباحة بلاده، إن هو استمرّ في عناده، وأعرض عن الحقّ: "ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ما قد أزمع أمير المؤمنين، وعزم عليه، وقذف الله في قلبه: من الإرادة والنيّة والرّغبة في إيطاء الجيوش بلادكم ... حتّى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون، وتؤدّوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فكونوا على عدّة من الجزية، ويقين من الانتجاع الذي لا طاقة لكم إن شاء الله به"[2].

يُعدّ هذا الكتاب بمنزلة إنذار يوجّهه الرّشيد قبل أن يسير بجيوشه ليترك جيش الأعداء بين أسير وقتيل، ثمّ يعود مرّة أخرى ويطلب إليهم دفع الجزية شفقة على الضّعفاء والمساكين من الجلاء والسّباء والقتل والأسر والقهر: "وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده، ومقدمه – إن شاء الله– من جيوشه، إلاّ أن تؤدّوا الجزية التي دعاك أمير المؤمنين إليها، وحداك ومن قبلك عليها، رحمة للضّعفاء

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 268/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 251و252.
(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 272/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 255.

الذين لا ترحمهم، وتوجّعاً للمساكين ممّا لا توجّع منه لهم، من الجلاء والسّباء والقتل والأسر والقهر"[1].

وبعد أن اختار قسطنطين البقاء على دينه، أمره الرّشيد بتقوى الله، وقبول ما فرض عليه من الجزية، وبيّن له أنّه لا يُطالبه بالجزية لاحتياجه إليها هو ورعيّته، وإنّما يفعل ذلك طاعة لله، وامتثالاً لأوامره: " فاتّقِ الله، واقبل ما عُرض عليك من الجزية، ولا يمنعنّك ما فيه الحظّ لك ولأهل مملكتك ... فابذل من الجزية ما شئت، وسمِّ منها ما هويت، واعلم أنّ أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين، ولكن طاعةً لربّه، وأثرة لحقّه، وليجعلها سبباً لما يُريد أن يجري فيما بينه وبينكم"[2].

وقد كان بعض ملوك الرّوم يرون أنّ دفع الجزية رمز لضعفهم وهوانهم، إذ سرعان ما يمتنعون عن أدائها إذا أصبحوا قادرين على التّصدي للمسلمين، وربّما طالبوا بإعادة الأموال التي دُفعت سابقاً للمسلمين كجزية، وهذا ما فعله نقفور، إذ هدّد الرّشيد بنقض الصّلح، ما لم يردّ عليه ما أخذه منهم في عهد الملكة إيريني، وأرسل إليه: " ... فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلاّ فالسّيف بيني وبينك"[3].

وعاد نقفور واستجاب لأمر الرّشيد وأرسل إليه بالطّاعة وحمل الخراج والجزية، حتّى عن رأس ولده ورأسه، وأهل مملكته، في كلّ سنة خمسة عشر ألف دينار، وبعث يطلب من الرّشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هِرقلة، فبعث بها الرّشيد مع هدايا وتُحف وطيب بعث يطلبه من الرّشيد، واشترط عليه الرّشيد أن يحمل معه في كلّ سنة ثلاثمائة ألف دينار، وأن لا يعمر هِرقلة[4].

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 273/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 256.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 268/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 251و252.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 308/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 275/3؛ بيوض، الرسائل السياسية: 131وما بعدها.

(4) كنعان، تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك: 89/1؛ الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية": 88.

ويضع المأمون في كتابه إلى ملك الرّوم توفيل خياراً ثانياً هو دفع الجزية مقابل الدّخول في عهد الذّمّة والحماية، يقول: "غير أنّي رأيت أن أتقدّم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحُجّة؛ من الدّعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشّريعة الحنيفيّة، فإن أبيت ففدية تُوجب ذمّة، وتثبتُ نظرة ..."[1].

مكاتبات السّلم: يبدو أنّ طبيعة العلاقات الخارجيّة للدّولة العبّاسيّة لم تجرِ جميعها في نسق واحد، بل كانت تتّخذ طابع الالتحام العسكريّ في أكثر الأحيان خاصّة مع الرّوم الذين كانوا يشكّلون العدوّ الأوّل للدّولة الإسلاميّة منذ نشأتها؛ لأنّ الرّوم خسروا عدّة أقاليم غنيّة من إمبراطوريتهم بعد الفتوحات الإسلاميّة مثل الشّام ومصر[2]، وفي المقابل وجدت علاقات تترسّم سبيل السّلم، وتدلّ دلالة واضحة على الصّداقة وحسن التّعاون بين المسلمين وتلك الدّول.

تذكر بعض الدّراسات أن تقارباً دبلوماسياً كان بين العبّاسيين وملوك الفرنجة يقوم على أهداف سياسيّة مؤدّاها أنّ الدّولة العبّاسيّة أرادت أن تتعاون مع الفرنجة ضدّ عدوّهم المشترك في الغرب وهو الدّولة الأمويّة في الأندلس في الوقت الذي تتعاون فيه الدّولتان ضدّ عدوّهم المشترك في الشّرق وهو الإمبراطوريّة البيزنطيّة[3]، وتشير دراسات أخرى إلى أنّه على الرّغم من وجود اتّصال بين العبّاسيين والفرنج منذ عهد الرّشيد، فإنّ أصداء هذه الاتّصالات تبدو خافتة في نصوص الرّسائل التي بين أيدينا[4]، وتُعدّ رسالة ملكة الفرنج برتا بنت الأوتاري – حفيدة شارلمان– إلى المكتفي أهمّ هذه الرّسائل[5]، وهي خارج نطاق دراستنا هذه.

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 630/8.

(2) عمر، العباسيون الأوائل: 237/2.

(3) المرجع نفسه: 260/2؛ الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية": 88و89.

(4) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 203.

(5) انظر: الخالديان، أبو بكر محمد الخالدي (ت380هـ)، وأبو عثمان سعيد الخالدي (ت290هـ)، التحف والهدايا، تحقيق: سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، 1375هـ/1956م: 165-168.

ومن العلاقات التي تقوم على أساس سلميّ، تلك العلاقة التي كانت بين العبّاسيين وملوك الهند، فقد كانت بينهما مراسلات وهدايا منذ عهد الرّشيد[1]، وخير ما يمثّل ذلك تلك المراسلة المتبادلة بين دُهمي ملك الهند والمأمون والتي أرسلها مع هديّة جليلة، وكتاب ترجمته "صفوة الأذهان"، وقد استهلّ هذه الرّسالة بالحديث عن نفسه وعظم مُلكه قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم. من دُهمي ملك الهند، وعظيم أركان المشرق، وصاحب بيت الذّهب وأركان الياقوت، وفرش الدُّرّ، الذي قصره مبنيٌّ من العود الرّطب الذي خُتم عليه قَبلَ الصّورة قبول الشّمع، والذي توجد رائحة قصره من عشرة فراسخ، والذي في خزانته ألف تاج من الجوهر لألف أب كانوا له ذهبوا، والذي يسجد له أمام البدّ الأكبر[2]، الذي وزنه ألف ألف مثقال من الذّهب وعليه ألف حجر من الياقوت الأحمر ... "[3].

يُلاحظ أنّ الكاتب في هذه الرّسالة يبدأ بنفسه ويبيّن تلك المكانة العظيمة التي هو عليها، ويعدّد صفاته ومناقبه، وما يتحلّى به من شمائل، ويصف النّعيم الذي يتمتّع به، ثمّ إنّه يفتتح رسالته بذكر الله – عزّ وجلّ– والهنود لا يستفتحون بذكر الله إلاّ في العبادة، إجلالاً وتعظيماً له[4]، وربّما كان الهدف من ذلك تقديم الاعتذار للمأمون إذ لم تكن رسالته جارية على سنن المراسلات الإسلاميّة التي تُفتتح بذكر الله وحمده والثّناء عليه[5]، ولعلّ هذه السّنة الجارية عندهم في كتابة الرّسائل، حيث يبدأ بذكر اسمه قبل اسم المُرسَل إليه، ويعدّد مناقبه ومآثره.

ويفصح ملك الهند في رسالته عن سبب مكاتبته للمأمون، والسّعي إلى إقامة

---

(1) ابن الزبير، الرشيد (القرن الخامس الهجري)، الذخائر والتحف، حققه: محمد حميد الله، قدم له وراجعه: صلاح الدين المنجد، ط2، مطبعة حكومة الكويت، 1984م: 20.

(2) البد: بيت فيه أصنام وتصاوير، وقيل: البد الصنم نفسه الذي يعبد، فارسي معرب. (ابن منظور، لسان العرب: بدد).

(3) ابن الزبير، الذخائر والتحف: 22.

(4) المصدر نفسه: 23.

(5) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 208.

علاقة وديّة معه، وذلك ما بلغه من علم المأمون وحُبّه للعلم ورسوخ معرفته، وتقدير ملك الهند أيضاً للعلم والعلماء، وهذا ما دفعه إلى أن يهدي للمأمون كتاباً يُعدّ من نوادر الكتب الهنديّة التي تناسب ما كان عليه المأمون من العلم والثّقافة: "وقد افتتحنا باب المكاتبة وطلب الفائدة بأن أهدينا إليك كتاباً ترجمته " صفوة الأذهان" والتّصفّح له يشهد على صواب التّسمية"[1]، وكان الكتاب في لحاء شجرة تنبت بالهند يقال لها: "الكاذي"، أحسن من الكاغد والقرطاس، لونه إلى الصّفرة، والخطّ لازورديّ مفتّح بالذّهب[2].

وأرسل إلى جانب الكتاب هدايا نفيسة اشتملت على ضروب من الياقوت والفرش النّادرة، والدّرّ، والذّهب، والأطياب من العود الرّطب والكافور، وجارية سنديّة غاية الجمال[3].

ويلتمس ملك الهند في آخر رسالته العذر من المأمون، لعلمه أنّ هديّته مهما كانت فإنّها لن تفي بحقّ المُهدَى إليه ويرجوه بأسلوب لطيف أن يقبل الهديّة: "ونحن نسألك أيّها الأخ أن تُنعم في ذلك بالقبول، وتوسع عذراً في التّقصير، إن شاء الله"[4].

وقد ردّ المأمون على ملك الهند برسالة سار فيها على سنن المكاتبات الإسلاميّة حيث بدأ فيها بذكر اسمه أوّلاً ولقبه "أمير المؤمنين"، وذكر فيها منقبة واحدة هي اتّصال نسبه بالرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، ويفتتح هذه المكاتبة بالحمد والثّناء والصّلاة على الرّسول الكريم، صلّى الله عليه وسلّم، مقدّماً الاعتذار لملك الهند بتقديم اسمه وتأخير اسم ملك الهند؛ لأنّ ذلك سُنّة جارية في المكاتبات عند المسلمين على عدم تقديم من كان على غير التّوحيد: "ولولا أنّ السّنّة جارية، بترك تقديم من لم يكن لنا على الشّريعة موالياً، وبها آخذاً ما تركنا ما يحسنُ من مبرّتك بالتّقديم"[5].

---

(1) ابن الزبير، الذخائر والتحف: 23.

(2) المصدر نفسه: 25.

(3) المصدر نفسه: 25.

(4) المصدر نفسه: 24و25.

(5) المصدر نفسه:26.

يسير المأمون في مكاتبته على نهج رسالة ملك الهند، حيث تضمّنت الإشارة إلى هديّة مشابهة للهديّة السّابقة وهي كتاب عنوانه: "ديوان الأدب وبستان نوادر العقول"، وعنوان الكتاب يُفصح عمّا به، وينطوي تحته من الهدايا: " ومطالعتك ترجمته تحقّق عندك فضيلة النّعمة، ومشاهدتك له تحقّق عندك ما أسميناه به، وجعلنا لذلك عنواناً من الهديّة، وهو لُطَفٌ استقللنا قدرها لك، ولو كانت الملوك تتهادى على أقدارها لما اتّسعت لذلك خزائنها، وإنّما يجري ذلك بينها على قدر ما يدلّ على حسن النّيّة، وجميل الطّويّة"[1]، وهو بذلك يُبيّن منزلة ملك الهند عنده، ويُبدي العذر عن مدى التّقصير في قيمة الهديّة.

---

(1) المصدر نفسه: 26و27؛ انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 209و210.

الفصل الخامس

الخصائص الفنية للمكاتبات الرّسميّة الصّادرة عن ديوان الرّسائل

أوّلاً- عناصر الشّكل:

استهلال الرّسالة واختتامها:

1- البسملة:

تباينت آراء الكُتّاب حول افتتاح الرّسائل بالبسملة، وقد ذهبوا في ذلك ثلاثة مذاهب، يرى الأوّل منهم ضرورة الالتزام بالبسملة في صدور المكاتبات جرياً على سُنّة النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، الذي كان يفتتح بها صدور كتبه التي كان يوجّهها إلى الملوك والأمراء والقوّاد، وقد رُويت عدّة أحاديث تحثّ على احتذاء هذه السُّنّة، وتُبيّن فضائل الاستهلال بها، وتُرشد إلى الحكمة من الإتيان بها في أوائل الرّسائل، فقالوا: "إنّه لا يصلح كتاب إلاّ أن يكون أوّله "بسم الله الرّحمن الرّحيم"[1]، كما حثّوا الكُتّاب على تحسينها في الكتابة ما استطاعوا تعظيماً لله تعالى"[2].

وتطّرد البسملة اطّراداً لافتاً في المراسلات الدّيوانيّة التي تُعالج أموراً خطيرة، كالمنشورات[3]، والمبايعات[4]، والمخالعات[5]، والأمانات[6]، والعهود[7]، وقد التزمت أيضاً الكثير من الرّسائل البسملة في بدايتها، كما في الرّسائل المتبادلة

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 219/6و220.

(2) المصدر نفسه: 221/6.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 283/8-286؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 206/3-209، و6/4.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 14/8.

(5) المصدر نفسه: 126/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 138/3-141.

(6) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 240/2-244؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 11/3-13.

(7) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 327/8؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 85/14؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 195/3وما بعدها، 340/3-343.

بين المنصور والنّفس الزّكيّة[1]، والرّسائل المتبادلة بين المنصور وعيسى بن موسى[2]، مع أنّ بعض المكاتبات التي جرت بينهما قد خلت من البسملة[3]، والتزمت بالبسملة الرّسائل المتبادلة بين الرّشيد وهرثمة بن أعين(ت200هـ/815م)[4]، والكتب المتبادلة بين الأمين والمأمون[5].

وترد البسملة في البدء، ولا يتقدّمها كلام آخر، تبرّكاً وتيمّناً، وسيراً على سُنّة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقول القلقشندي: "فيجب تقديمها في أوّل الكلام المقصود: من مكاتبة أو ولاية أو منشور إقطاع أو غير ذلك، تبرّكاً بالابتداء بها، وتيمّناً بذكرها، عملاً بالأخبار والآثار المتقدّمة في الجملة الأولى"[6].

وينبغي للكاتب أيضاً أن يفردها في سطر وحدها، تبجيلاً لاسم الله تعالى، وإعظاماً وتوقيراً له[7]، على أنّنا وجدنا رسائل لم تفردها وإنّما تبعها نصّ الرّسالة[8].

أمّا المذهب الثّاني، فقد رأى أصحابه التّخلص من ذكر البسملة، إذ تحرّرت بعض الرّسائل الدّيوانيّة من الاستفتاح بهذا الرّسم من رسوم الكتابة، فقد حُذفت من موضوعات محدّدة مثل: التّوقيعات، وقد بيّن القلقشندي سبب خلوّ التّوقيعات من البسملة، فقال: "وما يُكتب في التّواقيع والمراسيم الصّغار ليس من الأمور المهمّة،

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 7/566-571؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 1/231 وما بعدها؛ الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك: 70؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/78-86؛ حمادة، الوثائق السياسية: 130-134.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/ 14-19؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/89-97؛ حمادة، الوثائق السياسية: 141-145.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/95و96و98.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/327-337؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/277و279و283.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/295وما بعدها.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى: 6/222.

(7) المصدر نفسه: 6/224.

(8) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/11.

فناسب ترك البسملة في أوّلها"[1]، ويمكن القول إنّ السّبب في حذفها غير ذلــك، إذ لاحظنا أنّ بعض التّوقيعات تحمل في طيّاتها أموراً في غاية الأهمّية مــن إنصــاف للمتظلّمين وإزالة شكاياتهم، وإقامة للحكم الشّرعي، أو الدّعوة إلى محاربة الخارجين على أمر الخليفة وغيرها، ولعلّ السّبب في ذلك هو تلك الحالة الشّعوريّة الغاضــبة التي يكون عليها كاتب التّوقيع تدفعه إلى عدم الالتفات إلى تلك المقدّمات[2]، علــى الرّغم من أنّ بعض أهل العلم ذمّوا ترك البسملة من التّواقيع[3].

وحُذفت البسملة من الرّسائل التي تحمل أخبار الحرب والدّمار والقتــل، إذ لا يستقيم مع مثل هذه الموضوعات ذكر الرّحمة، ومن هنا خلت رسالة صالح بن عليّ إلى السّفّاح بمقتل مروان بن محمد – وهي أشبه بالتّوقيع – من البسملة، ونصّها: " إنّا اتبعنا عدو الله الجعدي، حتّى ألجأناه إلى أرض عدوّ الله شــبيهه فرعــون، فقتلتــه بأرضه"[4]، كما لم تجد البسملة مكاناً لها في رسالة أحمد بــن يوســف فــي قتــل الأمين[5].

وقد تُترك البسملة ومقدّمات الرّسائل تخفّفاً من النّسخ، إذ يعمد الكُتّــاب إلــى تركها وعدم إيرادها، وقد أدّى هذا الأمر إلى ضياع عناصر مهمّــة مــن عناصــر المقدّمة في كثير من الرّسائل[6].

أمّا المذهب الثّالث، فيراوح دعاته بين الالتزام بالبسملة وتركها، ويخضع ذلك لطبيعة الموضوع الذي تعالجه الرّسالة، والحالة الشّعوريّة التي تُكتب فيها الرّســالة، فقد كانت الرّسائل المتبادلة مع غير المسلمين تقوم على هذا المذهب، فتثبت البسملة فيها، وذلك سيراً منهم على نهج ما كتبه رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، إلى أهــل

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 220/6.
(2) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 455.
(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 220/6.
(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 441/7؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 14/3.
(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 507/8و508؛ الجهشــياري، الــوزراء والكتــاب: 304؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 316/3و317.
(6) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 458.

الكفر، كما في الرّسالة التي وجهها الرّشيد إلى نقفور ملك الرّوم يتهدّده ويتوعّده[1]، ورسالة المعتصم إلى توفيل يتوعّده[2]، على أنّهم لم يلتزموا بالبسملة في رسائل أخرى، ومن ذلك رسالة الرّشيد التي كتبها محمد بن الليث إلى قسطنطين يدعوه إلى الإسلام[3]، ورسالة المأمون إلى توفيل يتوعّده بالحرب[4].

2- العنوان:

يأتي العنوان في مراسلات هذا العصر بعد البسملة، على هذه الصّورة: "بسم الله الرّحمن الرّحيم، من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان"، وقد اتّبعوا بذلك سُنّة من سبقهم في مكاتباتهم، قال ابن المدبر في رسالته: "وأمّا صدور السّلف فإنّما كانت: من فلان بن فلان إلى فلان. كذلك جرت كتب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، إلى العلاء الحضرميّ، وإلى أقيال اليمن، وإلى كسرى وقيصر، وكُتب أصحابه والتّابعين كذلك"[5].

ويمكننا أن نطالع هذه الصّورة في رسالة أبي جعفر المنصور إلى النّفس الزّكيّة: "بسم الله الرّحمن الرّحيم، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله..."، وكذلك في ردّ النّفس الزّكيّة على أبي جعفر: "بسم الله الرّحمن الرّحيم، من عبد الله المهديّ محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد"[6]، وفي

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 307/9؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 275/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 203و204.

(2) الحصري، زهر الآداب، وثمر الألباب، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه وشرحه ووضع فهارسه: علي محمد البجاوي، ط2، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه: 786/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 11/4؛ حمادة، الوثائق السياسية: 385و386.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 217/3وما بعدها.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 194/7؛ حمادة، الوثائق السياسية: 366.

(5) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 15.

(6) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 566/7-571؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 232/1؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 77/3-87.

الرّسائل المتبادلة بين أبي جعفر المنصور وعيسى بن موسى[1]، وكتاب المنصور عند موته يوصي بالمهديّ[2].

وينقطع الاتّصال بين البسملة والعنوان في العهود، وتُكتب بين البسملة والعنوان عبارة: "هذا كتاب كتبه"، أو عبارة: "هذا كتاب لفلان كتبه فلان"، ونجد ذلك في العهد الذي كتبه المنصور لابن هُبيرة بالأمان: "بسم الله الرّحمن الرّحيم، هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن عليّ أبي جعفر وليّ أمر المسلمين، ليزيد بن هُبيرة ومن معه من أهل الشّام والعراق ... "[3]، ونجد ذلك أيضاً في كتاب عيسى ابن موسى بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادي[4]، وفي نسخة عهد الأمين على نفسه للرّشيد[5].

ويأتي العنوان على عدّة صور منها: إثباته بعد البسملة، وهذا ما لاحظناه في العبارات السّابقة، وقد يأتي متحللاً من البسملة كما ورد في ردّ أبي جعفر المنصور على عبيد الله العمريّ: "من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن عمر ابن حفص"[6]، ورسالة محمد بن الليث التي كتبها للرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم: "من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الرّوم"[7].

وقد يُحذف العنوان في بعض المكاتبات، فتذكر البسملة، ويبدأ في موضوع الرسالة الرئيسي دون ذكر للعنوان، ومن ذلك كتاب الرّشيد إلى عليّ بن عيسى، إذ بدأه بالبسملة، ولم يلبث أن انهال موبّخاً ومقرعاً: "بسم الله الرّحمن الرّحيم، يا ابن

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/124وما بعدها؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/89-94.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/111و112؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/128.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/11.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/24و25؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/138وما بعدها.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/195.

(6) المرجع نفسه: 3/99و100.

(7) المرجع نفسه: 3/217-274.

الزّانية ... "[1]، ورسالة الأمين إلى أخيه صالح[2].

وقد تخلو الرّسالة من البسملة والعنوان كما ورد في رسالة المأمون إلى توفيل[3]، ورسالة المعتصم إلى ملك الرّوم[4].

وقد تعدّدت صيغ العنوان وتنوّعت، ويرجع ذلك إلى شيوع أساليب التّفخيم والإجلال في المكاتبات، فكانت الصّيغة الأولى هي الصّيغة البسيطة التي تكون عليها المكاتبات الدّيوانيّة الجارية من الأعلى إلى الأدنى، وهذه الصّيغة تنوّعت بدورها، وصورة هذه الصّيغة هي: "من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان"، ونجد هذه الصّيغة في رسالة المنصور إلى عيسى بن موسى[5]، وقد يطرأ على هذه الصّيغة بعض التّغيير فيقال: "من فلان بن فلان لفلان بن فلان"، كما في أمان المنصور لابن هُبيرة[6].

وقد يُقدّم المُرسل اسمه على اسم الخليفة؛ لأنّه يرى نفسه الأعلى، ونجد مثل ذلك عند الخارجين على الخلفاء، ويظهر هذا في مكاتبات "النّفس الزّكيّة" إلى المنصور إذ يُقدّم نفسه ولقبه مجرّداً المنصور من لقبه: "من عبد الله، المهديّ، محمد ابن عبد الله، أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن محمد"[7]. وأمّا الصّيغة الثّانية، فصورتها: "لفلان بن فلان من فلان بن فلان"، أي بتقديم اسم المُرسَل إليه على اسم المُرسِل، وتجري في مكاتبات الأدنى إلى الأعلى، وهذا يكون في مكاتبات الرّعيّة

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 327/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 277/3.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 368/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 291/3 وما بعدها.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 629/8 وما بعدها؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 448/3.

(4) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 786/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 11/4.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 14/8-17؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 88/3-92.

(6) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 241/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 11/3.

(7) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 567/7؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 232/1؛ المبرد، الكامل: 294/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 79/3.

إلى الخليفة، ومن الرّسائل التي كانت على هذه الصّورة رسالة عيسى بن موسى إلى المنصور: "لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى"[(1)]، وفي ردّ المأمون على الأمين[(2)].

ومن الصّيغ الأخرى، تلك الصّيغة التي استخدمت في مخاطبة الأنداد، وصورتها: "من عند فلان بن فلان إلى فلان بن فلان"، ونجد هذه الصّيغة في كتاب الأمين إلى المأمون: "من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين"[(3)].

وتُكتب عهود التّعيين على صيغة: "هذا ما عهد فلان بن فلان إلى فلان بن فلان حين ولاّه كذا"، ومثل ذلك نجده في عهد المهديّ إلى أحد ولاته[(4)]، وعهد الرّشيد لهرثمة بن أعين حينما ولاّه ثغر خُراسان وأعماله وخراجه[(5)]، وكانت صورة عهود الأمانات: "هذا كتاب كتبه فلان بن فلان لفلان بن فلان"[(6)]، ومن الصّيغ الأخرى: "هذا كتاب لفلان بن فلان من فلان بن فلان"، ومثالها نسخة الشّرط الذي كتبه عيسى بن موسى على نفسه[(7)]، أو "هذا كتاب من فلان بن فلان لفلان (أو إلى فلان) بن فلان"، ومثالها ما جاء في كتاب أبي جعفر المنصور لابن هُبيرة بالأمان[(8)]، وآخر صيغته: "هذا كتاب لفلان بن فلان، كتبه فلان بن فلان"، ومثاله

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك:8/17-19؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب:3/92-95.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/306و307.

(3) المرجع نفسه: 305و306.

(4) المرجع نفسه: 3/132وما بعدها.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/327و328؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/277و278.

(6) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/132.

(7) الطبري، تاريخ الأمم والملوك:9/333؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب:3/139.

(8) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 2/241؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/11-13.

نسخة عهد الأمين على نفسه للرّشيد[1]، أو "هذا كتاب لفلان كتبه له فلان بن فلان"[2].

ومن الصّيغ الأخرى للعنوان أن توجّه من مرسلين كما في رسالة المأمون ووليّ عهده المعتصم إلى عامل دمشق: "من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحق ابن أمير المؤمنين الرّشيد"[3]، وقد توجّه إلى مجموعة، أي عامّة المسلمين[4]، أو أهل مدينة، كما في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف[5]، ورسالة المنصور إلى أهل المدينة[6].

وتُعنى صيغ العنوان أيضاً بذكر الألقاب أو الكُنى أو نحو ذلك، كما في أمان المنصور لابن هُبيرة[7]: "من عبد الله بن محمد بن عليّ، أبي جعفر، وليّ أمر المسلمين ليزيد بن هُبيرة..."، ونلاحظ كتابتها عند الطّرفين في رسالة الأمين إلى المأمون: "من عبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين"[8]، وتظهر في هذه الصّيغة صفة العبوديّة لله عز وجل قبل ذكر الخليفة: "من عبد الله الأمين"، ونجدها في رسائل أخرى كما في رسالة الرّشيد إلى نقفور: "من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الرّوم"[9]، وكثيراً ما كانت رسائل المنصور تثبت صفة العبوديّة قبل اسمه، كما في رسائله إلى النّفس الزّكيّة[10].

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 73/10؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 195/3.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى:89/14؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب:203/3-205.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 646/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 471/3.

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 646/3.

(5) المرجع نفسه: 317/3 وما بعدها.

(6) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: 375/2؛ حمادة، الوثائق السياسية: 136.

(7) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 241/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 11/3.

(8) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 400/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 305/3.

(9) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 308/9؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 231/1و232؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب:275/3.

(10) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 566/7؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 78/3و81.

3- التّحيّـــة:

يقول القلقشندي: "جُعل السّلام في ابتداء الكتب وصــدورها؛ لأنّــه تحيّـــة الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب، فكما أنّه يُفتتح به الكلام طلباً للتأليف، كذلك تُفتــتح به المكاتبات، وتُصدّر طلباً للتأليف"[1]، وتختلف صيغ التّحيّة، ففي الرّسائل الموجّهة إلى غير المسلمين تُخالف الصّيغة المعهودة، إذ تكون فيها: "سلام على مــن اتّبــع الهدى"، وهو ما نجده في رسالة الرّشيد إلى قسطنطين عظــيم الــرّوم[2]، ووردت بلفظ: "سلام عليك"، في رسالة المأمون إلى رُهمي ملك الهند[3]، وقد تخلو من التّحيّة كما في رسالة الرّشيد إلى نقفور[4]، ورسالة المأمون إلى توفيل[5].

أمّا صيغ التّحيّة في الرّسائل الدّاخليّة فمنها صيغة: "سلام عليك"، بتنكير اللفظ الأوّل وإفراد اللفظ الثّاني، وتوجّه هذه التّحيّة إلى المفــرد، ونجــدها فــي رســالة المنصور إلى عيسى بن موسى يطلب منه أن يخلع نفسه من ولاية العهــد[6]، وقــد تكون بلفظ الجمع: "سلام عليكم"، كما في رسالة الخميس التي كتبها أحمد بن يوسف عن المأمون إلى أهل خُراسان[7].

وقد ترد صيغة التّحيّة بلفظ: "السّلام عليك ورحمة الله وبركاته"، ووردت في الرّسائل الموجّهة من المنصور إلى عيسى بن موسى[8]، ورسالة عبيد الله بن عمــر ابن حفص إلى المنصور في الموعظة التي جاء فيها: "سلام عليك ورحمة الله التــي

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 229/6.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 217/3-274.

(3) الرشيد بن الزبير، التحف والهدايا: 163و164؛ الخالديان، الذخائر والتحف: 25-27.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى: 231/1و232؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 275/3.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 629/8، صفوت، جمهرة رسائل العرب: 448/3.

(6) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 275/6.

(7) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 317/3-334.

(8) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 275/6؛ صفوت، جمهرة رســائل العــرب: 87/3-92؛ حمادة، الوثائق السياسية: 143-145.

اتّسعت فوسعت من شاء"[1]، وتكون بصيغة: "وسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله"[2]، وترد أيضاً: "فالسّلام عليك أيّها الأمير ورحمة الله وبركاته"[3].

وكما تُفتتح المكاتبات بالتّحيّة تُنهى أيضاً بعبارة "السّلام" ليس غيره، وهذه العبارة قد تكون كاملة، كما في كتاب المهديّ إلى عامله محمد بن سليمان: "السّلام عليك ورحمة الله وبركاته[4]، ورسالة نقفور إلى الرّشيد بعد أن هاجم هرقلة[5]، وقد تقتصر على كلمة " والسّلام"، كما في الرّسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النّفس الزّكيّة[6]، وكثيرة تلك الرّسائل التي خُتمت بهذه اللفظة، وقد تُختم الرّسائل بعبارة: "والسّلام على من اتّبع الهدى"، كما في المراسلات مع الملوك على غير الإسلام، كما في رسالة الرّشيد إلى قسطنطين[7]، ورسالة المأمون إلى ملك الرّوم[8].

ولا بُدّ أن يكون السّلام الأخير معرفة، كما أنّ الأوّل يكثر فيه أن يكون نكرة، وإلى ذلك أشار أحمد بن يوسف بقوله: "اكتب في أوّل كتابك "سلام عليك" واجعله تحيّة، وفي آخره "والسّلام عليك"، واجعله وداعاً"[9].

4- الحمدلة:

افتتح الكُتّاب مكاتباتهم بالحمد لله بعد البسملة، قال القلقشندي[10]: "وأتوا

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: 275/2و276؛ حمادة، الوثائق السياسية: 151و152.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 275/6-279؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 94/3، 317؛ حمادة، الوثائق السياسية: 145.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 313/3.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 364/6؛ حمادة، الوثائق السياسية: 169.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 510/6؛ حمادة، الوثائق السياسية: 204.

(6) حمادة، الوثائق السياسية: 131، 132، 135.

(7) الرفاعي، عصر المأمون: 188/2؛ حمادة، الوثائق السياسية: 257.

(8) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 194/7؛ حمادة، الوثائق السياسية: 366.

(9) القلقشندي، صبح الأعشى: 229/6و230؛ بيوض، الرسائل السياسية: 179.

(10) القلقشندي، صبح الأعشى: 225/6.

بالحمد لله بعد البسملة تأسياً بكتاب الله، من حيث إنّ البسملة آية من الفاتحة، كما هو مذهب الشّافعيّ، رضي الله عنه، أو فاتحةٌ لها – وإن لم تكن منها– كما هو مذهب غيره، أمّا سائر المكاتبات والولايات المفتتحة بغير الحمد، فإنّما حُذف منها الحمد استصغاراً لشأنها، إذ كان الابتداء بالحمد إنّما يكون في أمر له بال".

وتُفتتح المكاتبات بالحمد طلباً للتّيمن والتّبرك، وحتى لا تكون المكاتبات جذماء يعتورها هذا العيب حرص الكُتّاب على تثبيت الحمدلة في فواتح مكاتباتهم، إضافة لذلك فإنّ النّفوس تتشوّف للثّناء على الله تعالى، والافتتاح بما تميل إليه النّفوس مطلوب.

وقد تعدّدت صورها في بداية المكاتبات في العصر العبّاسيّ الأوّل، ومنها: أن تأتي في مطلع الرّسالة كما هو في رسالة عليّ الرّضيّ إلى المأمون: "الحمد لله الفعّال لما يشاء"[1]، وفي تحميد لابن المقفّع[2]، وتحميدات إبراهيم بن العبّاس[3].

ومن صور الحمدلة: أن يتكرّر التّحميد، كما في تحميد أبي جعفر المنصور في رسالته إلى عيسى بن موسى، وصورته: "سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد، فالحمد لله ذي المن القديم، والفضل العظيم، والبلاء الحسن الجميل"[4].

أمّا صيغ الحمدلة فتأتي على صيغتين هما: صيغة الفعل التي تفيد تأكيد نسبة الفعل إلى قائله، كقولهم في المكاتبات: "فإنّي أحمد إليك (أو إليكم) الله الذي ..."[5]، و"فإنّ أمير المؤمنين يحمد إليك (أو إليكم) الله الذي..."[6]. والصّيغة الثّانية، هي صيغة الاسم التي تفيد الاستغراق والاستمرار والبقاء، ومن صور استعمالها:

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 9/391و392؛ حمادة، الوثائق السياسية: 322و323.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/53.

(3) المرجع نفسه: 4/154-157.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 8/14؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/89؛ حمادة، الوثائق السياسية: 141.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/89، 92، 161.

(6) المرجع نفسه: 3/318؛ حمادة، الوثائق السياسية: 205.

"الحمـــد لله... "[1] و"الحمـــد لله الذي... "[2] و"الحمـــد لله ذي..."[3].

وتُختم المكاتبات أيضاً بالحمدلة، وربّما يكون هذا آتٍ من تمثّلهم قوله تعالى: ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُم أن الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْن﴾ [4]، واتّخـــذت الحمدلـــة فـــي الخاتمـــة صورتين، صورة الفعل وصورة الاسم، ومن أمثلة صورة الفعل ما جاء في رسالةِ المنصور إلى عبد الله بن عليّ[5]. أمّا الصّورة الثّانية فتكون بكتابة عبارة: "الحمد لله ربّ العالمين"[6]، وقولهم: "والحمد لله"[7].

5- الصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم:

تشير بعض الدّراسات العربيّة إلى أنّ هارون الرّشيد استحدث الصّلاة علـــى النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، في الرّسائل، وأمر أن تُزاد بعد تحمد البدء[8]، وذلـــك سنة إحدى وثمانين ومائة[9]، وهذا لا يعني أنّ الرّشيد هو أوّل مـــن أمـــر بـــإدراج الصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، في الرّسائل، وإنّما كانـــت معروفـــة فـــي مكاتبات السّابقين، حيث أشار ابن المدبر إلى أنّ بني أميّة أمروا بطرحها من كتبهم: "ولا تُغفل الصّلاة على النّبيّ، عليه الصّلاة والسّلام، فقد قال أبو العيناء: إنّ بني أميّة

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 308/3، 335، 345.

(2) المرجع نفسه: 108/3، 142، 145، 165، 334.

(3) المرجـــع نفســـه: 3/ 145، 308، 334، 335؛ ينظـــر: القلقشـــندي، صـــبح الأعشـــى: 225/6و226؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 479و480.

(4) سورة يونس: الآية: 10.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 22/3.

(6) حمادة، الوثائق السياسية: 292.

(7) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 7/86-89، القلقشندي، صـــبح الأعشـــى: 400/6-404؛ حمادة، الوثائق السياسية: 298؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 505و506.

(8) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 268/8؛ ابن تغري بـــردي، النجـــوم الزاهـــرة: 177/2؛ الصولي، أدب الكتاب: 40؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 228/6و229.

(9) كنعان، تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك: 80/1؛ ضـــيف، العصـــر العباســـي الأول: 468.

هم الذيـــن كانوا أمـــروا كُتّابهم، فطرحوا ذلك من كتبهم، فجرت عادةُ الكُتّاب إلـــى يومنا هذا على ما سنّوه"[1]، ولم يكن دور الرّشيد أكثر من مجرّد دعوة الكُتّاب إلـــى الالتزام بإضافة الصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، بعد الحمدلة، وترسيخ هذا النّهج في رسائلهم[2].

وعلى الرّغم من قلّة الرّسائل التي التزمت الصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ تلك الرّسائل اطّرد فيها مجيء هذا العنصر البنائيّ بعد تحميـــد البـــدء، ولعلّ سبب هذا الاطّراد هو نظر الكُتّاب إلى مدى المناسبة بين حمد الله –عزّ وجلّ– أوّلاً، والصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، ثانياً، وقد أشار القلقشندي إلى ذلك بقوله: " فإذا أُتي بالحمد في أوّل كتاب، ناسب أن يُؤتى بالصّلاة على النّبيّ، صـــلّى الله عليه وسلّم، في أوّله، إتياناً بذكره بعد ذكر الله تعالى"[3].

وكما كان ميل الكُتّاب إلى حمد الله –عزّ وجلّ– طلباً لليمن والبركـــة، كـــان ميلهم إلى الصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، امتثالاً لقوله تعـــالى: ﴿ إنَّ اللهَ ومَلاَئِكَتَهُ يصلُّوْنَ عَلَى النَّبِيّ. يَا أيّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا صَلُّوا عَلَيْه وَسَلِّمُوْا تَسْلِيْماً ﴾[4].

وتأتي الصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، على عدّة صيغ منهـــا: مـــا يباشر –بعد الحمدلة– وتكون بالدّعاء إلى الله أن يُصلّي على عبده ورسوله، محمد، صلّى الله عليه وسلّم، كما في رسالة الخميس التي كتبها أحمد بـــن يوســـف عـــن المأمون إلى أهل خُراسان: "سلام عليكم، فإنّ أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يُصلّي على محمد عبده ورسوله"[5]، ووردت صيغة أخـــرى هي: "والله أسأل أن يُصلّي على محمد عبده ورسوله"[6].

---

(1) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 25و26.

(2) انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 482–486.

(3) صبح الأعشى: 227/6؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 486و487.

(4) سورة الأحزاب: آية: 56.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 318/3.

(6) المرجع نفسه: 134/3.

وتُنهى بعض الرّسائل بالصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وقد وردت هذه الصّيغة في بعض الرّسائل منها: عهد المهديّ إلى عامله على أرمينية[1]، ومنشور المتوكّل إلى أهل الذّمّة[2].

6- التّخلّص:

وتُستخدم فيه صيغة: "أمّا بعد"، وهي مركّبة من لفظين أحدهما: "أمّا"، والثّاني "بعد"، فأمّا "أمّا" فحرف شرط، و"بعد" ظرف زمان إذا أُفرد بني على الضمّ[3]. وقد اختلف في أوّل من قالها، فقيل: داود، عليه السّلام، وقيل: كعب بن لؤي –جدّ النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وقيل أوّل من قالها: قُسّ بن ساعدة الإياديّ[4]، ومهما يكن من أمر اختلاف الرّوايات في نسبة هذه الصّيغة، فإنّ هذه الصّيغة كانت مستعملة في المكاتبات قبل مجيء الإسلام، وورثتها الرّسائل الإسلاميّة، وبقيت هذه الصّيغة أثيرة في مكاتبات العصور اللاحقة[5].

حافظ الكُتّاب على استخدام هذه الصّيغة في مكاتباتهم، على الرّغم من محاولة بعضهم حذفها من رسائلهم، وقد أشار العسكري إلى هذا الأمر حين قال: "وكان النّاس فيما مضى يستعملون في أوّل فصول الرّسائل "أمّا بعد" وقد تركها اليوم جماعة من الكُتّاب فلا يكادون يستعملونها في شيء من كتبهم"[6]، وقد ابتدع الكُتّاب الذين تخلّصوا من هذه الصّيغة صيغاً جديدة كقولهم: "كتابي إليك "[7]، أو "كتبت"[8].

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 134/3.

(2) المرجع نفسه: 128/4.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 231/6.

(4) الصولي، أدب الكتاب: 36؛ القلقشندي، صبح الأعشى:231/6.

(5) الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 489.

(6) العسكري، الصناعتين: 165.

(7) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 430/3، 431.

(8) المرجع نفسه: 60/3، 61، 120، 285.

ويقول الكاتب عند كتابته ردّ الجواب أو: "وصل "[1]، أو "ورد "[2]، أو "بلغني"[3]، أو "أتاني "[4].

وتأتي على صيغ عدّة، منها: بعد البسملة والعنوان والتّحيّة والحمدلة[5]، وقد تـــأتي بعد البسملة والعنوان والتّحيّة[6]، أو بعد البســـملة والعنـــوان[7]، أو بعـــد العنـــوان والتّحيّة[8]، أو بعد العنوان مباشرة[9]، أو قبل السّلام[10]، أو قبل الحمدلة[11]، وقـــد تأتي أوّل شيء في الرّسالة، والرّسائل في هذا الموضع كثيرة لا مجال لحصـــرها.

وتأتي هذه الصّيغة مرتبطة بالفاء الواقعة في جواب الشّرط، يقول الصّـــولي: "ولا بُدّ من مجيء الفاء بعد أمّا؛ لأنّ أمّا لا عمل لها إلاّ اقتضاء الفاء واكتسابها، فإنّ الفاء تصل بعض الكلام ببعض وصلاً لا انفصال بينه، ولا مُهلة فيه، ولمّـــا كانـــت "أمّا" فاصلة، أتيت بالفاء لتردّ الكلام على أوّله"[12]، وكان الارتباط بالفاء مباشرة في أكثر الأحيان[13]، وأحياناً ترتبط الفاء مع صيغة البعديّة مع اعتـــراض جملـــة[14]، وكثيراً ما تقترن الفاء بأداة التّوكيد "إن"، وأداة التّحقيق: "قد".

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب:3/315، 336.

(2) المرجع نفسه: 3/290، 291، 369.

(3) المرجع نفسه: 3/107، 118، 141، 164، 296، 448.

(4) المرجع نفسه: 3/451.

(5) المرجع نفسه: 3/89، 92.

(6) المرجع نفسه: 3/99.

(7) المرجع نفسه: 78، 79، 81، 128.

(8) المرجع نفسه: 3/99، 217.

(9) المرجع نفسه: 3/306.

(10) المرجع نفسه: 3/395.

(11) المرجع نفسه: 3/308، 318، 345.

(12) الصولي، أدب الكتاب: 27.

(13) صفوت، جمهرة رســـائل العـــرب: 3/78، 81، 88، 89، 92، 98، 99، 147، 160، 206.

(14) المرجع نفسه: 3/79.

7- **الاستثناء بالمشيئة:**

يُستحبّ للكاتب أن يكتب عند انتهاء مكاتبته عبـــارة: "إن شـــاء الله تعـــالى" تبـــرّكاً ورغبـــة في نجاح مقصده[1]، وإقراراً بأنّ الأمـــور لا تسير إلاّ بإرادته - عزّ وجلّ-، وتُكتب في خواتم المكتوب[2]، أي في نهاية المكاتبة، وقـــد تـــرد فـــي مواضع متعدّدة منها ما هو قبل الدّعاء كما في كتاب الأمين إلى أخيه صـــالح[3]، أو قبل الحسبلة كما في كتاب الرّشيد إلى عمّاله[4]، أو قبل تحيّة الوداع كما في كتـــاب المنصور إلى عيسى بن موسى[5].
أمّا صورها فأشهرها عبارة: " إن شاء الله"[6]، و "إن شاء الله تعالى"[7].

الذّيـــل:

ويشتمل ذيل المكاتبة على ثلاثة موضوعات رئيسة هي: ذكر اسم الكاتب، وأســـماء الشّهود، وتأريخ إنشائها، وقد اقتضت العادة أن تُكتب هذه العناصـــر فـــي خاتمـــة المكاتبة، فيثبّت الكاتب اسمه في أسفل الرّقعة خاصّة إذا كانت هذه الرّقعة ذات قيمة مثل: العهود، والأمانات، والمنشورات، ونحوه.

أمّا صيغ كتابة اسم الكاتب فقد تنوّعت، منها: "كتب فـــلان"، ومثـــال ذلـــك: "وكتب إسماعيل بن صُبَيح بين يدي أمير المؤمنين"[8]، "وكتب معاوية بن عبيـــد الله

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 232/6.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 233/6؛ صفوت، جمهرة رســـائل العـــرب: 96/3/3، 278، 297، 298، 302، 304، 343، 446.
(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 294/3.
(4) المرجع نفسه: 208/3.
(5) المرجع نفسه: 98/3، 301، 307.
(6) المرجع نفسه: 96/3، 98، 297، 298، 301، 302، 304، 307، 427.
(7) المرجع نفسه: 343/3، 364.
(8) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 284/3.

سنة 159هـ"[1]، وورد أيضاً: "وكتب بكر بن المعتمر بين يديّ وإملائي في شوّال سنة 192هـ"[2].

وأمّا الصّيغة الثّانية، فيكتفي الكاتب فيها بتوكيد الكتابة بخطّ يده، دون تصريح باسمه، كما جاء في ذيل عهد الرّشيد إلى هرثمة بن أعين: "وكتب أمير المؤمنين بخطّه"[3].

وقد لا يُصرَّح باسم الكاتب على نحو ما جاء في العهد الذي خلع بموجبه عيسى بن موسى نفسه من ولاية العهد[4]، وورد: "وكُتب يوم الأحد لأربع بقين من المحرم سنة 198هـ"[5].

ويلجأ الكُتّاب أحياناً إلى إشهاد الشّهود على ما يكتبون، خاصّة في رسائل المبايعات، والمخالعات، والأمانات، فقد يشهد الله وملائكته، وصورته ما جاء في عهد الرّشيد لهرثمة بن أعين: "هذا عهدي بخطّي، وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه، وسكّان سماواته، وكفى بالله شهيداً[6]، وقد يشهد الله على نفسه، ويشهد الشّهود أيضاً، كما في ردّ عليّ الرّضيّ على عهد المأمون: "وأشهدت الله على نفسي بذلك وكفى بالله شهيداً. وكتبت بخطّي في حضرة أمير المؤمنين- أطال الله بقاءه- والفضل بن سهل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكثر، وبشر بن المعتمر، وحماد بن النّعمان، في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين"[7]. وقد يأخذ الكاتب على غيره موثقاً بالوفاء مثال ذلك ما جاء في الرّسالة التي شهد بها قوم على عيسى بن موسى حين

---

(1) حمادة، الوثائق السياسية: 169.

(2) المرجع نفسه: 281، 283.

(3) المرجع نفسه: 262.

(4) المرجع نفسه: 165.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 7/86-89.

(6) المصدر نفسه: 328/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 277/3؛ حمادة، الوثائق السياسية: 262.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى: 9/391و392؛ حمادة، الوثائق السياسية: 323.

خلع نفسه من ولاية العهد[1]، ونصّها: "وشهد على عيسى بن موسى بإقراره بما في هذا الشّرط أربعمائة وثلاثون من بني هاشم، ومن الموالي والصّحابة من قريش والوزراء والكُتّاب والقضاة".

ويرتبط أحياناً بذكر اسم الكاتب، وأسماء الشّهود، ذكر التّأريخ الذي حُرّرت به المكاتبة، حيث يستدلّ من التّأريخ على بُعد مسافة المكاتبة وقربها، وتحقيق الأخبار على ما هي عليه"[2]. وفي مثل هذا ما ذكره الصولي بقوله: "كاتبت أبا خليفة في أمور أرادها فأغفلت التأريخ منها في كتابين، فكتب إليّ بعد نفوذ الثّاني: وصل كتابك- أعزّك الله- مبهم الأوان، مُظْلم المكان، فأدّي خيراً ما القرب بأولى من البُعد؛ فإذا كتبت- أكرمك الله تعالى- فلتكن كتبك مرسومة بتاريخ؛ لأعرف أدنى آثارك، وأقرب أخبارك، إن شاء الله تعالى"[3]. وقال بعض الكُتّاب: "التّاريخ عمود اليقين، ونافي الشّك، به تُعرف الحقوق، وتحفظ العهود"[4].

وقد ظهرت العناية بضرورة تأريخ المكاتبات عند العديد من نَقَدة النّثر العربي، يقول ابن المدبر: "ولا تدع التأريخ فإنّه يدل على تحقيق الأخبار وقربها"[5]، ويقول القلقشندي: "وقد اصطلح الكُتّاب على أنّهم يؤرّخون المكاتبات والولايات ونحوها ممّا يصدر عن الملوك والنّواب والأمراء والوزراء وقضاة القضاة ومن ضاهاهم، بخلاف المكاتبات الصّادرة عن آحاد النّاس، فلم تجرِ العادة فيها بكتابة تاريخ"[6].

وعلى الرّغم من أهميّة التّأريخ وفائدته، فإنّ بعض المكاتبات تفتقر إليه، إذ لم يُشَر إليه إلاّ في بضع رسائل، وقد جاء على عِدّة وجوه، الأوّل منها: أن يقتصر الكاتب على ذكر السّنة، كما جاء في نهاية كتاب المهديّ إلى عامله على البصرة،

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 328/8؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 323/3، 141.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 235/6.

(3) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 881/3و882.

(4) الصولي، أدب الكتاب: 184

(5) ابن المدبر، الرسالة العذراء: 26.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى: 235/6.

وصورته: "وكتب معاوية بن عبيد الله، سنة تسع وخمسين ومائة"[1].

وقد لا يُكتفى بذكر السّنة، وإنّما يذكر معها الشّهر، وصورته في كتاب عيسى ابن موسى بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادي: "وكتب في صفر، سنة ستين ومائة، وختم عيسى بن موسى"[2]، وكذلك جاء في نهاية عهد الأمين والمأمون[3].

وقد يكون تأريخ المكاتبة أكثر دقّة وتحديداً، فيضاف اليوم إلى الشّهر والسّنة، ومن ذلك ما جاء في كتاب الرّشيد إلى عمّاله، حيث ذكر في آخره: "وكتب إسماعيل ابن صُبيح، يوم السبت، لسبع ليال بقين من المحرم، سنة ست وثمانين ومائة"[4].

وثّق الكُتّاب تأريخ مكاتباتهم بالحروف لا الأرقام، وكان تأريخهم بالليلة لا النّهار، ويعود ذلك إلى اعتمادهم الحساب القمري، وقد بيّن القلقشندي ذلك بقوله: "ومداره الليالي دون الأيّام؛ لأنّ سِنيّ العرب قمريّة، والقمر أوّل ما يظهر للأبصار هلالاً في الليل، فتكون الليالي بهذا الاعتبار سابقة للأيّام، إذ اليوم عندهم عبارة عن النّهار"[5]، وقيل: "وإنّما حُمِل على الليالي دون الأيّام لأنّ أوّل الشّهر ليلة، فلو حُمِل على الأيّام سقطت منه ليلة"[6].

ويعتمد الكُتّاب في تأريخ اليوم بالنّظر إلى ما مضى من الشّهر وما بقي منه، فإن كانت الكتابة في الليلة الأولى منه يكتب: "كتبت غُرّة شهر كذا، أو أوّل ليلةٍ من كذا، أو مُستهلّ شهر كذا، أو مُهَلّ شهر كذا، ولا يجوز حينئذٍ لليلة خلت ولا مضت لأنّهم في الليلة بعد"[7]، وإن كانت الكتابة في اليوم الأوّل وهو النّهار الذي يلي الليلة الأولى من الشّهر، كتب لليلة خلت أو مضت من شهر كذا، وهكذا يؤرّخ بِعدّة الليالي

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 132/8؛ حمادة، الوثائق السياسية:169.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 128/8؛ حمادة، الوثائق السياسية: 165.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: 85/14و89.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 283/8؛ حمادة، الوثائق السياسية: 192؛ بيوض، الرسائل السياسية: 180.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى: 243/6.

(6) المصدر نفسه: 243/6.

(7) ابن النحاس، صناعة الكتاب: 138.

المنصرمة، كأن يقول: لثلاث خلت، أو أربع[1]، وهكذا، ومن ذلك ما كتب في ذيل كتاب المأمون إلى قثم بن جعفر: "وكتب يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة 210هـ"[2]. وإن كانت الكتابة واقعة في الشّطر الآخر من الشّهر، أرّخ الكاتب بالتأريخ الباقي فيكتب لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر كذا، ثمّ لثلاث عشرة ليلة بقيت، وهكذا إلى الليلة الأخيرة من الشّهر، فيكتب لليلة بقيت، ومثال ذلك ما جاء في كتاب الرّشيد إلى عمّاله إذ أرّخ فيه: "وكتب إسماعيل بن صُبيح يوم السبت، لسبع ليالٍ بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة"[3]. أو أن يعلّق التّأريخ بالباقي على شرط، فيكتب لأربع عشرة إن بقيت، وعلى ذلك في الباقي، فِراراً من إطلاق التّأريخ بما لا يُعلم تمامه أو نقصه، وتعليقاً له على حكم التّمام.

ويُستحسن في التّأريخ أنّه إذا وقعت الكتابة في يوم مشهور كأيّام المواسم أرّخ به، مع قطع النّظر عن عدد ما مضى من الشّهر أو بقي منه[4]، فيكتب في اليوم الأوّل من شوّال: "كتبت في يوم عيد الفطر"، وفي تاسع ذي الحجّة: "كتبت في يوم عرفة"، وفي عاشره: "كتبت في يوم عيد النّحر، أو في يوم عيد الأضحى"، وفي حادي عشرة: "كتبت في يوم القَرّ[5]"، وفي ثاني عشرة: "كتبت في يوم النّفر الأوّل"، وورد هذا في كتاب موسى بن عيسى إلى الأمين: "وإنّي كتبتُ إلى أمير المؤمنين يوم النّفر الأوّل، وقد قضى الله مناسكنا، وتمّم حجّنا"[6]، أمّا في ثالث عشرة فيكتب: "كتبت في يوم النّفر الثّاني"، وهكذا[7].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 244/6.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 427/3.

(3) المرجع نفسه: 209/3.

(4) المرجع نفسه: 294/3.

(5) سمّي بذلك لأنّ النّاس يستقرّون فيه بمنى. (لسان العرب: قرر).

(6) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 295/3.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى: 249/6.

المضمون:

يُعدّ المضمون العنصر الرّئيس الذي تقوم عليه المكاتبة، حيث يعرض فيه الكاتب القضية التي يريد أن يتناولها، إضافة لذلك فهو يعرض فيه قدرته على الإبداع واستخدام الأدوات الفنيّة التي تُحقّق المتعة للقارئ. ويعتمد المضمون على محورين هما: التّنوّع، والوحدة، أمّا بالنّسبة للتّنوّع فقد كانت الرّسائل السّياسيّة تعبّر عن وجوه العمل الرّسمي في الدّولة، إذ كُتبت هذه الرّسائل في موضوعات متنوّعة منها: المخاطبات الإعلاميّة كالمنشورات والمبايعات والمخالعات والأمانات والبشارات والتوقيعات، ومنها ما كان يتعلّق بالتّنظيمات الإداريّة كالتّعيين والعزل والتّكليف، ومنها ما كان يتعلّق بالمنازعات الدّاخلية كتلك الرّسائل المتبادلة بين الحكّام أنفسهم وبين الحكّام والخارجين على السّلطة، ومنها ما يتعلّق بالعلاقات الخارجيّة كالعلاقات مع الرّوم والفرنج والهنود. ومن خلال ذلك يتبيّن لنا مدى ما كانت عليه الرسائل السّياسيّة من الغنى والثّراء، فهي لا تترك مجالاً من مجالات الحكم والإدارة دون أن تُحيط به، فقد احتفلت بسائر وجوه الحياة الرّسميّة في الدّولة.

أمّا بالنّسبة للمحور الثّاني فإنّ سمة التّنوّع لم تحل دون تحقيق وحدة الموضوع، فقد عالجت بعض الرّسائل -خاصّة القصيرة منها- موضوعاً واحداً، وحتّى تلك الرّسائل التي اتّسمت بتعدّد الموضوعات فإنّ الكاتب كان يحرص على إيجاد الرّابط المقنع بينها وبين موضوع الرّسالة الرّئيس، وبالتّالي فإنّ تعدّد الموضوعات في إطار الرّسالة الواحدة لم يكن ليؤثّر في وحدة مضمونها أو بنائها، ويتّضح ذلك جليّاً في عهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله[1]، ورسالة الرّشيد إلى قسطنطين[2].

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 582/8؛ ابن طيفور، كتاب بغداد: 25 وما بعدها.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 218/3 وما بعدها، الدروبي، الرسائل الفنية: 492-500.

ثانياً- الظّواهر الأسلوبيّة:

الأساليب:

تنوّعت أساليب الكتابة في العصر العبّاسيّ، وكان لكلّ كاتب أسلوبه وطريقته في الأداء والتّعبير، وكان لكلّ رسالة أسلوبها وطوابعها الخاصّة التي تميّزها عن غيرها، وهذه الأساليب التي استعملها الكُتّاب في العصر العبّاسيّ الأوّل هي:

أوّلاً- الأسلوب المرسل: وهو أسلوب أكثر الرّسائل التي بين أيدينا، إذ يأتي فيها الكلام على سجيّته، دون تكلّف، قصير الفقرات، لا خيال فيه ولا تنسيق، ولا زخرفة ولا تعقيد، حيث يجعل الكاتب المعنى هدفه، والتّعبير عن مقاصد الرّسالة بأوضح الأساليب وأيسرها، ومن تلك الرّسائل ذات الأسلوب المرسل رسالة المعتصم إلى عبد الله بن طاهر، ونصّها: "عافانا الله وإيّاك، وقد كانت في قلبي منك هفوات غفرها الاقتدار، وبقيت حزازات أخاف منها عليك عند نظري إليك، فإن أتاك ألف كتاب أستقدمك فيه فلا تقدم، وحسبك معرفة بما أنا منطوٍ لك عليه، إطلاعي إيّاك على ما في ضميري منك. والسّلام"[1]. نلاحظ أنّ هذا النّصّ يخلو من المحسّنات اللفظيّة، حيث تحرّر الكاتب منها، وأرسل الكلام إرسالاً، فجاءت الفكرة واضحة لا لبس فيها.

وتردّد هذا الأسلوب في الرّسائل المتبادلة بين الأمين والمأمون[2]، فقد ردّ الأمين على المأمون في إحدى رسائله قائلاً: "أمّا بعد: فقد بلغني كتابك عامطاً[3] لنعمة الله عليك فيما مكّن لك من ظلّها، متعرّضاً لحرَاقِ نارٍ لا قِبل لك بها، ولَحظُكَ عن الطّاعة كان أودع، وإن كان قد تقدّم منّي متقدّم فليس بخارج من مواضع نَفْعِك، إذ كان راجعاً على العامّة من رعيّتك، وأكثر من ذلك ما يمكّنُ لك من منزلة السّلامة، ويثبّت لك من حال الهُدنة، فأعلمني رأيك أعمل عليه إن شاء الله"[4].

وعلى الرّغم من ورود السّجع في هذه الرّسالة، فإنّه جاء دون قصد أو استدعاء؛

---

(1) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 9/3.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 295/3-307.

(3) عمط نعمة الله وغمطها: بطرها وكفرها ولم يشكرها. (لسان العرب: عمط).

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 298/3.

لأنّ الموقف الذي كتبت فيه لا يسمح للكاتب أن يتأنّق في ردِّه على أخيه، وذلـك أنّ المأمون أرسل كتاباً إلى الأمين، فلمّا وصل كتاب المأمون إلى الأمين غضب وتغيّظ وأمر بالإمساك عن الدّعاء له على المنابر، ومثل هذه الحالة الشّعوريّة الغاضبـة لا مجال فيها للتّنسيق ولا الزّخرفة، فقد جاءت الرّسالة بأسلوب واضح وسهل[1].

ثانياً- الأسلوب المتوازن: وهو الأسلوب الذي تتعادل فيه الجمل على نحو السّجع، غير أنّه يختلف بعدم تقيده بالفواصل، وقد يُسمّى أسلوباً مزدوجاً[2]، حيـث يتماثـل الكلام في السّجع والوزن، وقد تُعدّ براعة الكاتب في اعتماده المزاوجة في كتابتـه، إحدى المقاييس البلاغيّة التي يُحكم فيها عليه، إذ "لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو، حتّى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنّه في نظمه خارج من كلام الخَلْق، وقد كَثُر الازدواج فيه، حتّى حصل في أوساط الآيات، فضلاً عمّا تزاوج في الفواصل منه..."[3].

وقد شاع هذا الأسلوب في رسائل بني العبّاس، وغلب على كثير منها، ومـن الأمثلة على ذلك ما ورد في عهد المهديّ إلى أحد ولاته: "ولا يُحابي شريفاً لشرفه، ولا يتعدّى على وضيع لضعته... وأمره بحسن الولاية، ورفق السّياسـة، وإظهـار العدل، والعمل بالحقّ، وكفّ الظّلم، وإبطال الجور..."[4]. يتّضح من ذلك أنّ الكاتب عمد إلى الإتيان بالفواصل على وزن واحد، دون أن تتّفق على رويّ بعينـه، كمـا عمد إلى استعمال الاعتدال بين الجمل بحيث لا تتجاوز الجملة الواحدة لفظتين.

وما وقع في كتاب إسماعيل بن صُبيح إلى المأمون، علـى لسـان الأمـين يستقدمه بغداد- من المزاوجة واضح يدركه القارئ بأيسر مراجعة-: "وعلِم أميـر المؤمنين أنّ مكانك بالقرب منه أسَدُّ للثّغور، وأصلح للجنود، وآكَدُ للفيء، وأردُّ على العامّة، من مقامك ببلاد خُراسان، منقطعاً عن أهل بيتك، متغيّباً عن أمير المؤمنين،

---

(1) الدروبي، الرسائل الفنية: 500وما بعدها.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى: 283/2.

(3) العسكري، الصناعتين: 261.

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 134/3.

وما يُحبّ الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك... فأقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أمل، وأفسح رجاء، وأحمد عاقبةٍ، وأنفذ بصيرة..."[1].

وتبدو المزاوجة واضحة أيضاً في ردّ المنصور على أبي مسلم الخُراساني: "أرُوم ما رُمتَ، وأزُول حيث زُلتَ، ليس لي دونك مَرْمى، ولا عنك مقصَر، الرّأيُ ما رأيتَ...، فأنا غير كافر بنعمتك، ولا منكر لإحسانك، لا تَحمِل عليّ إصر غيري، ولا تلحق ما جناه سواي بي،... الأمر أمرك، والسّلطان سلطانك"[2]. نلاحظ أنّ الازدواج يسير في وتيرة واحدة، ونسق ثابت، لا يكاد يتبدّل أو ينحرف.

وقد تعادلت الجمل وتماثلت في أوزانها في رسالة المأمون إلى عليّ بن عيسى، التي يصف فيها ما بلغه من النّفوذ والسّلطة، يقول: "... حتّى بلغ الله بك في نفسك أن كنت قريع أهل دعوتك، والعَلَم القائم بمعظم أمر أمّتك، إن قلتَ أدنُوا دَنَوْا، وإن أشرتَ أقبِلوا أقبَلوا، وإن أمسكتَ وقّفوا وقرُّروا..."[3].

تُضفي المزاوجة على الرّسائل بعض الجمال ما لم تكن ثقيلة مستكرهة، وقد بيّن أبو الهلال العسكري ذلك بقوله: "واعلم أنّ الذي يلزمك في تأليف الرّسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السّجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد"[4].

ثالثاً- الأسلوب المسجوع: وهو الكلام الموقّع الذي فواصله على رويّ واحد، مثل فواصل الشّعر[5]، إلاّ أنّها ساكنة الأعجاز، موقوف عليها[6].

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 306/3.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: 252/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 21/3.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 303/3.

(4) أبو هلال العسكري، الصناعتين: 159.

(5) الكلاعي، إحكام صنعة الكلام: 235؛ ابن الأثير، المثل السائر: 271/1؛ جار الله الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(ت538هـ)، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1979م: 203.

(6) الحلبي، حسن التوسل: 206.

وقد طغى هذا الأسلوب على الأساليب الأخرى؛ لأنّه كان مقبولاً ومُستحسناً فيما ينسج الكُتّاب من رسائل، ويدلّ دلالة واضحة على عناية الكُتّاب الفنيّة برسائلهم، وأنّ الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء، ومن ذلك ما جاء في ردّ المنصور على عيسى بن موسى: "لولا أنّك تُسَامُ النّزولَ عن حقٍّ لك، وواجب في يديك، لزال الضَّرَعُ إليك، والتّحمّلُ عليك، ولولا أنّي أخاف أن تسبق أيدي هذه العصبة من أهل الدّولة إليك،... ولكنّي عندك- بالنّصح لك، والإشفاق عليك- في جَنَبةِ من لا يرضى منك إلاّ بإرادته، ولا يستمهل أيّامك لسرعته، وما الذي أسمو بك إليه بدون الذي يستنزلونك عنه"[1].

ومنه ما جاء في كتاب الرّشيد إلى عليّ بن عيسى بن ماهان: "... رفعتُ من قدرك، ونوّهتُ باسمك، وأوطأتُ سادة العرب عَقِبَكَ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خَوَلَك[2] وأتباعك،... وأسخطتَ الله وخليفته بسوء سيرتك، ورداءة طُعمتك، وظاهر خيانتك"[3].

نلاحظ أنّ الغالب على هذه السّجعات تعادل مقاطع الكلام، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتّفاق الفواصل على حرف بعينه، إضافة إلى تساوي الفقرات وقِصَرها، حيث اقتصر كلّ مقطع على لفظتين اثنتين، وهذا الأمر مستحبٌّ في السّجع، حيث: "قِصَر الفقرات تدلّ على قوّة التّمكّن، وإحكام الصّنعة"[4].

تنوّعت ضروب السّجع التي ظهرت في رسائل هذا العصر، فقد تأتي الرّسالة مسجوعة كلّها، ومن ذلك كتاب المنصور إلى الحسن بن زيد: "فإذا بلغك كتابي هذا فورّثهم من جَدّهم، فإنّي قد رددت عليهم أموالهم، صلة لأرحامهم، وحفظاً لقرابتهم"[5]. وقد يراوح بين عِدّة سجعات، ومثال ذلك ما جاء في رسالة المأمون إلى إسحق بن إبراهيم، يقول: "أمّا بعد: فإنّ من حقّ الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 96/3.

(2) الحاشية والحشم. (ابن منظور، لسان العرب: خول).

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 277/3.

(4) الحلبي، حسن التوسل: 213.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 88/3.

على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رعاية خلقه، وإمضاء حكمه وسُننه، والائتمام بعدله في بريته، أن يُجْهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلّدهم، ويدلّوا عليه تبارك اسمه وتعالى، بفضل العلم الذي أودعهم،..."[1]، التزمت هذه الرّسالة عِدّة سجعات، الهاء، والتّاء، والميم، دون أن يظهر على كاتبها علامات التّكلّف.

وقد يأتي الكاتب –أحياناً– بسجعة، ثمّ يأتي بعدها بسجعات مختلفة، ويعود بعدها إلى السّجعة الأولى، ونجد ذلك في رسالة أبي الرّبيع محمد بن الليث التي كتبها للرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم: "... والعجبُ: كيف يصف مخلوق ربّه، أو يجعل معه إلهاً غيره، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء، صنعةً ظاهرةً، وحكمةً بالغةً، وتأليفاً متّفقاً، وتدبيراً متّصلاً، من السّماء والأرض، لا يقوم بعضه إلاّ ببعض، مُتجلياً بين يديه، ماثلاً نصب عينيه، يُناديه إلى صانعه، ويدلّه على خالقه، ويشهد له على وحدانيته، ويهديه إلى ربوبيّته"[2]. والكاتب هنا بنى سجعته على حرف الهاء، ولكنّه استخرج وسطها في المرّة الأولى سجعتين هما: "ظاهرةً، بالغةً"، واستخرج أيضاً: "متّفقاً، متّصلاً"، و" الأرض، ببعض"، ثمّ عاد إلى السّجعة الأصليّة.

وهذه الأسجاع وما يماثلها لم تكن مقصودة لذاتها، وهي ليست من السّجع المستكره الذي يأباه الطّبع، ولا يستطيع الكاتب الاستغناء عنها، لأنّها ظاهرة مميّزة، وسمة أصيلة من سمات العربيّة.

الاقتباس والتّضمين:

أوّلاً– القرآن الكريم:

حرص الكُتّاب على تزيين رسائلهم بالآيات القرآنيّة الكريمة، واقتباسهم منها، وهذا يُضفي على رسائلهم الرّفعة والجزالة، ويُعينهم على تأييد أفكارهم وتأكيدها، وقد

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 458/3 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه: 221/3.

بيّن ابن الأثير ذلك بقوله: "إذا ضمّنت الآيات أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرّونق"[1].

وقال الشّهاب محمود الحلبي: "ومن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحجّة، وقطع النّزاع، وإذعان الخصم... وأيضاً فإنّ الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض، وتوفية المقاصد، ما لا تقوم به الكتب المطوّلة، والأدلّة القاطعة"[2]. لذا فإنّنا قلّما نجد رسالة قد خلت من آية أو معنى مستمدّ من كتاب الله، فهي إضافة لما تضفيه من جزالة ورونق تكون دليلاً قاطعاً في يد الكاتب لدحض آراء الخصم، كما أنّها تؤدّي المعنى بإيجاز وسهولة.

وقد اتّخذ الكُتّاب عدّة صور في اقتباسهم من القرآن الكريم، منها: اقتباس آية أو أكثر، وتضمينها الرّسالة، وهذه الصّورة هي الأكثر شيوعاً واستعمالاً، حيث يورد الكاتب كلامه، ثمّ يدعّمه ببعض آي القرآن الكريم، وربّما افتتح رسالته بالقرآن الكريم، ثمّ يأتي كلام صاحب الرّسالة معقّباً ومفسّراً، فقد افتتح المنصور رسالته إلى النفس الزكية(محمد بن عبد الله) بآيتين من سورة المائدة، متّهماً إيّاه بالفساد، ومحاربة الله-عزّ وجلّ-، فقال:﴿إنّمَا جَزَاءُ الَّذِيْنَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أنْ يُقَتَّلُوْا أو يُصَلَّبُوْا أو تُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أو يُنْفَوا مِنَ الأرْضِ ذلكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنْيَا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيْمٌ. إلاَّ الّذِيْنَ تَابُوا مِن قَبْلِ أنْ تَقْدِرُوا عليهم فَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ﴾ [3].

وكان ردّ النّفس الزّكيّة على المنصور بالأسلوب نفسه، إذ افتتح رسالته بصدر سورة القصص: ﴿ طسم. تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ المُبِيْنِ. نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَبَأ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ. إنَّ فِرْعَونَ عَلاَ فِي الأرضِ وَجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم يُذَبِّحُ أَبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحي نِسَاءَهُم إنّه كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ. وَنُرِيْدُ أنْ

---

(1) ابن الأثير، المثل السائر: 200/3.

(2) الحلبي، حسن التوسل: 75و76.

(3) سورة المائدة: الآية: 33و34؛ انظر النص: القلقشندي، صبح الأعشى: 231/1؛ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك: 70؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 78/3.

نَمُنَّ عَلَى الَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا في الأرضِ وَنَجْعَلَهُم أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِيْنَ.وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأرضِ ونُرِيَ فِرْعونَ وهَمانَ وَجُنُدَهُمَا مِنهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

ومنه ما ورد في ردّ عيسى بن موسى على المنصور: "بسم الله الرّحمن الرّحيم: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوْا وَالصَّابِرِيْنَ في البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِيْنَ البَأْسِ﴾[2]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَأَوفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[3]".

ومن المواضع التي دعّم فيها الكاتب كلامه ببعض آي القرآن الكريم ليقيمه حُجَّة على خصمه ردّ المنصور على النّفس الزّكيّة، يقول: "وأمّا قولك: إنّكم بنو رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ الله عزّ وجلّ قد أبى ذلك. فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُوْلَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ﴾[4]، ولكنّكم بنو ابنته، وإنّها لقرابة قريبةٌ، غير أنّها امرأة لا تجوز الميراث..."[5]. ويكاد المنصور في هذه الرّسالة لا يترك موقفاً يدحض فيه حجج خصمه إلاّ واستشهد بآية قرآنيّة تدعم رأيه وموقفه.

ويأتي النّص القرآني في سياقه مناسباً للموقف المقتبس من أجله، ومن ذلك ما جاء في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف التي كتبها للمأمون: "أمّا بعد: فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذي العزّ والسّلطان، والنّور والبرهان، ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾[6] وما بينهما، والمتقدّم بالمنّ والطَّول على أهلهما"[7]. وما جاء في عهد المأمون إلى عليّ بن موسى الرّضيّ: "حتّى انتهت نبوّة الله إلى محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، على فترة من الرّسل، ودُرُوسٍ من العلم، وانقطاع من الوحي، واقتراب

---

(1) سورة القصص: من الآية: 1–6؛ انظر النص: القلقشندي، صبح الأعشى: 232/1؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 79/3.

(2) سورة البقرة: من الآية: 177.

(3) سورة الإسراء: من الآية: 33 ؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 97/3.

(4) سورة الأحزاب: الآية: 40.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 83/3.

(6) انظر: سورة الأنعام: الآية: 14؛ سورة يوسف: الآية: 101؛ سورة إبراهيم: الآية:10؛ سورة فاطر: الآية: 1؛ سورة الزمر:الآية:46؛ سورة الشورى: الآية: 11.

(7) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 318/3.

من السّاعة، فختم الله به النّبيين، وجعله شاهداً لهم ومُهيمناً عليهم، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي ﴿لا يَأْتِيْهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾[1]، فأحلّ وحرّم، ووعد وأوعد، وحذّر وأنذر، وأمر ونهى، لتكون له الحجّة البالغة على خلقه، و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾[2].

ومنه ما جاء في منشور المعتصم: "ويسأله أن يُصلّي على محمّد عبده ورسوله، وصفوته من عباده، الذي ارتضاه لنبوّته، وابتعثه بوحيه، واختصّه بكرامته، فأرسله بالحقّ ﴿شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً. وَدَاعِياً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيْراً﴾[3]".

ومن صور تضمين القرآن الكريم أن يُشعِر الكاتب بأنّ النّص المدرج لاحقاً هو من آي الذّكر الحكيم، كأن يؤتى بما يفيد القول، من مثل ما جاء في عهد المهديّ إلى أحد ولاته: "وأمره أن يصلّي الصّلوات لمواقيتها في مسجد الجماعة، ولا يتشاغل عنها بغيرها؛ فإنّ الله جعلها عمود الدّين، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا اطمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيْمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى المُؤمِنِيْنَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾[4]". وورد في كتاب المهديّ إلى محمّد بن سليمان: "... وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ﴾[5].

وقد يرد ما يشير إلى التّنزيل كما جاء في رسالة أبي الرّبيع محمّد بن الليث التي كتبها للرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم: "فإنّ الله جلّ ثناؤه، وتباركت أسماؤه، قال لنبيّه، صلّى الله عليه وسلّم، فيما أنزل من آيات الوحي إليه: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالموْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِيْنَ﴾[6]". وقوله في موضع آخر من الرّسالة نفسها: "ثمّ بلغهم

---

(1) سورة فصلت: الآية: 42.

(2) سورة الأنفال: الآية: 42؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 340/3.

(3) سورة الأحزاب: الآية: 45و46؛ انظر النص: القلقشندي، صبح الأعشى: 400/6؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 7/4.

(4) سورة النساء: الآية: 103؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 133/3.

(5) سورة القصص: الآية: 50؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 136/3.

(6) سورة النحل: الآية: 125؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 218/3.

ونقرر قبلهم أنّه يقول: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُوْنَ﴾[1]".

وقد يقصُّ الكاتب شيئاً من ملابسات النّص المقتبس، ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن المقفّع في الصّحابة: "... وقد قصّ الله عزّ وجلّ علينا من نبأ يوسف بن يعقوب: أنّه لمّا تمّت نعمة الله عليه، وآتاه الملك، وعلّمه من تأويل الأحاديث، وجمع له شمله، وأقرّ عينه بأبويه وإخوته، أثنى على الله عزّ وجلّ بنعمته، ثمّ سلا عمّا كان فيه، وعرف أنّ الموت وما بعده هو أولى، فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين﴾[2]". ومثل ذلك في رسالة المهديّ إلى محمّد بن سليمان: "وقال لداود، صلّى الله عليه وسلّم، وقد آتاه الحكم والنّبوّة والمال والخلافة: ﴿يَا دَاوُدَ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً في الأرضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيْلِ اللهِ إنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْد بِمَا نَسُوْا يَوْمَ الحِسَابِ﴾[3]". ومن ذلك أيضاً ما ورد على سبيل التّمثيل والمقارنة، فالمنصور في بعض رسائله إلى عيسى ابن موسى يحمد الله أن وهب له ابنه المهديّ ليكون من بعده، فيرث الخلافة، لذا نجده يشبّه نفسه بزكريّا، عليه السّلام، الذي سأل ربّه أن يهب له غلاماً يرثه بعد موته: "وحمد الله إذ جعل في ذريّته مثل ما سألت الأنبياء قبله، إذ قال العبد الصّالح: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَّاً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيَّاً﴾[4]، فوهب الله لأمير المؤمنين وليّاً، ثمّ جعله مباركاً مهديّاً"[5].

ويعمد الكاتب إلى إجراء بعض التّغيير في النّص القرآني، كأن يُغيّر في الضّمائر فينقلها من الجمع إلى الإفراد أو العكس، ومن ذلك ما ورد في رسالة محمّد ابن الليث التي كتبها للرّشيد: "إنّ الله تبارك اسمه، وتعالى جدّه، وصف فيما أنزل

---

(1) سورة العنكبوت: الآية: 48؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 235/3.

(2) سورة يوسف: الآية: 101؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 31/3.

(3) سورة ص: الآية: 26؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 136/3؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 527.

(4) سورة مريم: الآية: 5و6.

(5) انظر: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 91/3.

من آياته، وشرح من بيّناته، الأمم الماضية، والقرون الخالية، والملل المتفرقّة، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها، ولا حجّة لهم فيها"[1]. فقد حوّر الكاتب هنا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[2]، ناقلاً ما في هذه الآية من ضمائر المفرد إلى الجمع.

وقد يُغيّر في النّص بأن يُقدّم الكاتب ويؤخّر على نحو لا يضرّ معه بالمعنى الذي يتضمّنه النّص القرآني المقتبس، ومثل ذلك ما جاء في رسالة محمّد بن الليث للرّشيد: "أنّ الله عزّ وجلّ خلق للأنام الأرض، وجعلها موصولة بالخلق، فليس يدحوها إلاّ لهم"[3]، وفي كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾[4].

وقد يُضمّن الكاتب رسالته شيئاً من القرآن الكريم، بأسلوب لا يشعر بأنّه قرآن، حتّى ليظنّ أنّه من كلامه وقوله، فهو يأتي بالآية دون أن يذكر ما يشير إلى أنّ ذلك من القرآن الكريم، ففي رسالة محمّد بن الليث ورد: "فاتّقوا الله يا أهل الكتاب، فإنّ الله عزّ وجلّ ليس بأب، ولا ابن، ولا اسم، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها"[5]، وهو من قوله تعالى: ﴿وَلِلّه الأَسْمَاء الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[6].

ويدخل الكاتب -أحياناً- بعض العبارات على النّص لإيضاح الفكرة وإتمامها، ومن ذلك قول محمّد بن الليث في رسالته عن الرّشيد: "... فأحبّ أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك، ﴿إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئَاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضَاً أَرْبَابَاً مِنْ دُوْنِ اللهِ﴾[7]، فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه، أو تركتموه زهادةً فيه، فـ ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾[7].

ويلجأ الكاتب إلى حلّ الآيات الكريمة وإعادة نثرها من جديد، يقول محمّد بن

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/218و219.

(2) سورة المؤمنون: الآية: 117.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/220.

(4) سورة الرحمن: الآية: 10.

(5) صفوت، جمهرة رسائل العرب:3/ 219.

(6) سورة الأعراف: الآية: 180.

(7) سورة آل عمران: الآية: 64.

الليث: "... ووصل الأزمنة التي جعلها متصرّفة متلوّنة بمسير الشّمس والقمر الدّائبين لكم، المختلفين بالليل والنّهار عليكم، وجعل مسيرهما الذي لا تعرفون عدد السّنين إلاّ به، ولا مواقع الحساب إلاّ من قبله، متّصلاً بدوران الفلك الذي فيه يسبحان"[1]، فهو ينظر هنا إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوْرَاً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ﴾[2].

ويتحدّث في موضع آخر من الرّسالة عن خلق الإنسان ومراحل نموّه، يقول: "فإنّهم يرون في أنفسهم بأعينهم، ويجدون بقلوبهم، أنّها مخلوقة صنعة بعد صنعة، ومحوّلةٌ طبقةً عن طبقة، ومنقولةٌ حالاً إلى حال: سُلالة من طين، ثمّ نُطفة من ماء مهين، ثمّ علَقَةً، ثمّ مُضغةً، ثمّ عظماً كساه الله عزّ وجلّ لحماً ونفخ فيه روحاً فإذا هو خَلْقٌ آخر، فتبارك الله أحسنُ الخالقين"[3]، وفي هذا الموضع يستمدّ كلامه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِيْنٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِيْنٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامَاً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمَاً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقَاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ﴾[3].

ويمكن أن تظهر ألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته فيما يكتب الكُتّاب؛ لأنّ التّعبير القرآني أضحى قارّاً في أذهانهم، والشّواهد على ذلك كثيرة في الرّسائل التي بين أيدينا، ومن تلك الألفاظ والتّعبيرات: ﴿بظلاّمٍ للعبيد﴾[4]، و﴿إلاّ ولا ذِمّة﴾[5]، و﴿اختلاَف الليل والنّهَار﴾[6].

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 220/3.

(2) سورة يونس: الآية: 5.

(3) سورة المؤمنون: الآية: 12-14.

(4) سورة آل عمران: الآية: 182، سورة الأنفال: الآية: 51، سورة الحج: الآية: 10، سورة فصلت: الآية: 46، سورة ق: الآية: 29؛ انظر النص: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب: 28/3و284.

(5) سورة التوبة: الآية: 10؛ انظر النص: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب: 81/3.

(6) سورة البقرة: 164، آل عمران: 190، يونس: 6، المؤمنون: 80، الروم: 22، الجاثية: 5؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب:99/3.

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿السَّرَّاء وَالضَّرَّاء﴾[1]، و ﴿بِقَدَرٍ مَعْلُوم﴾[2]، و﴿قَرَارٍ مَكِين﴾[3]، و﴿أَفَّاك أَثِيم﴾[4]، و﴿تخسروا الميزان﴾[5]، و﴿صَبَّ عليهم سَوْطَ عذَاب﴾[6]، و ﴿وضَعت الحَرْبُ أوْزارَها﴾[7]، و﴿فصل الخطاب﴾[8]، و﴿العروة الوثقى﴾[9]، و﴿نزغ الشّيطان﴾[10].

ثانياً- الحديث النّبويّ الشّريف:

يبدو أنّ الاقتباس من الأحاديث النّبويّة الشّريفة كان قليلاً إن لم يكن نادراً، ولم ترد سوى بعض الإشارات منها ما ورد في رسالة المهديّ إلى واليه على البصرة في ردّ آل زياد إلى نسبهم: "وقد قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم،: "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، وقال: "من ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً"[11]". نلاحظ أنّ الكاتب قد مهّد لهذا التّضمين بعبارات مشعرة بالنّقل عن حديث

---

(1) سورة آل عمران: الآية: 134؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 112/3و140.

(2) سورة الحجر: الآية: 21؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 220/3.

(3) سورة المرسلات: الآية: 21؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 221/3.

(4) سورة الشعراء: الآية: 222؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 226/3.

(5) سورة المطففين: الآية: 3؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 240/3.

(6) سورة الفجر: الآية: 13؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 277/3و278.

(7) سورة محمد: الآية: 4؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 311/3.

(8) سورة ص: الآية: 20؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 318/3.

(9) سورة البقرة: الآية: 256، سورة لقمان: الآية: 22؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 325/3.

(10) سورة يوسف: الآية: 100؛ انظر النص: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/ 342؛ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 535.

(11) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، اعتنى به فريق بيت الأفكار الدولية، رقم الحديث(5115): 551؛ انظر: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 135و136؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: 1174/3.

رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ومنه أيضاً ما ورد في رسالة الرّشيد إلى قسطنطين: "... أم قول النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، لأصحابه: "إنّ الله عز وجل يؤمّن خوفكم ويعزّ نصركم على الأمم"[1].

وقد استمدّ الكُتّاب من تعبيرات الحديث النّبويّ الشّريف ومعانيه، وضمّنوها في ثنايا رسائلهم، ومن أمثلتها: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"[2]، والكاتب هنا ينظر إلى قول رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: "... لا طاعة لمخلوق في معصية الله"[3]، وقوله: "وينصرون بالرعب"[4]، وينظر فيه إلى قول الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم،: "نصرت بالرّعب مسيرة شهر"[5].

وجاء في رسالة المأمون إلى أعيان العسكر ببغداد: "أمّا بعد: فإنّ أمر المؤمنين كأعضاء البدن: تحدث العلّة في بعضها، فيكون كره ذلك مؤلماً لجميعها، وكذلك الحدث في المسلمين"[6]. وقد أخذ الكاتب المعنى من الحديث الشّريف: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد، بالسّهر والحمّى"[7].

نلاحظ أنّ أصداء الحديث الشّريف لم تكن بارزة في كتابات كُتّاب العصر العبّاسيّ، ولعلّ السّبب في ذلك هو أنّ حفظهم للأحاديث الشّريفة قليل إذا ما قورن بحفظهم للقرآن الكريم، لذا نجدهم لا يجدون صعوبة في الاستشهاد بآياته، بينما يصعب عليهم- أحياناً- استدعاء الحديث الشّريف بلفظه، وبالتّالي يحجم الكاتب عن الاستشهاد بالأحاديث الشّريفة.

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 247/3.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 34/3.

(3) أبو داود، سنن أبي داود، رقم الحديث(2625): 296؛ أحمد بن حنبل، المسند: 132/1(1095)؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: 890/3.

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 90/3.

(5) البخاري، صحيح البخاري: 212/3و3/13.

(6) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 301/3و302.

(7) البخاري، صحيح البخاري: 171/20.

ثالثاً- الكتب السّماويّة:

لم يقتصر اقتباس الكُتّاب وتضمينهم على آيات القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة الشّريفة، إنّما تعدّاه إلى الكتب السّماويّة الأخرى، فقد أورد محمد بن الليث في رسالته التي كتبها للرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم اقتباسات عِدّة، فهو عندما يطلب إلى ملك الرّوم التّفكّر في بطلان عقيدتهم، وضرورة البحث عن الحقيقة، تلك الحقيقة التي تُنجيه من عقوبة الله، يقول: "فاتّق عقوبة الله ربّك، ولا تمش مكبّاً على وجهك، ولكن اطلب والتمس وابحث، فقد قال عيسى، عليه السّلام، في الإنجيل: "من سأل أُعْطِيَ، ومن طلب وجد، ومن استفتح فُتِحَ له"[1].

ويُورد أيضاً أدلّة من الإنجيل ذُكرت فيها علامات سيّدنا محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، وصدق نبوّته، يقول: "من ذلك ما قد شهد به عيسى، عليه السّلام، عندكم، وبيّنه في الإنجيل لكم، إذ قال للحواريين: أنا أذهب وسيأتيكم البارقليط رُوح الحقّ الذي لا يتكلّم من قِبَلِ نفسه، إنّما يقول كما يُقال له، وهو يشهد عليَّ وأنتم تشهدون، لأنّكم معي من قبل النّاس بالخطيئة، وكلّ شيء أعدّ الله لكم يخبركم به"[2]، وترجمة البارقليط: أحمد، هذا ما لا شكّ ولا مرية فيه، وهو الذي يخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحي الحواريين في القرآن"[3].

ولم يكتفِ الكاتب بذكر أقوال عيسى، عليه السّلام، ليستشهد بها على صدق نبوّة محمّد، عليه الصّلاة والسّلام، بل أورد أقوالاً أخرى لأنبياء آخرين، ومن ذلك قول أشعيا النّبيّ، عليه السّلام: "قيل لي: أقم بطارا ما ترى بخبري؟ قال: أرى راكبين مُقْبِلَين أحدهما يقول لصاحبه: سقطت بابل وأصنامها المنحوتة، ولسنا نعلم نبيّاً ركب بعد موسى، عليه السّلام، بعيراً إلاّ محمّداً، صلّى الله عليه وسلّم كثيراً"[4].

---

(1) ورد في إنجيل متى(الإصحاح 5 آية: 42)، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 261/3.

(2) ورد في إنجيل يوحنا(الإصحاح 14 آية: 26)، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 262/3.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 263/3.

(4) المرجع نفسه: 263/3.

ويذكر قول داود، عليه السّلام: "اللهمّ ابعث جاعل السُّنّة كي يعلم النّاس أنّهم بشر"[1]، يقول: "كي يتبيّن النّاس أنّ عيسى، عليه السّلام، إنسان، ولسنا نعلم نبيّا وضع سُنّة تنسب إليه إلاّ محمّداً، صلّى الله عليه وسلّم، أمّا عيسى فإنّه نَصَب سُنّة موسى، عليه السّلام"[2].

يُلاحظ أنّ الكاتب يقتبس من الكتب السّماوية الأقوال التي يُدعّم بها رأيه، ثمّ يبيّن ما جاء فيها من تأييد للموضوع الذي سيقت من أجله، فعند حديثه عن الأمّة الإسلاميّة يقتبس قول داود الوارد في الزبور: "صدّقوا وسبّحوا الرّبّ تسبيحاً حديثاً، سبّحوا الذي هلّله الصّالحون، ليفرح إسرائيل بخالقه، ويتوب صهيون من أجل أنّ الله اصطفى له أمّته، وأعطاه النّصر، وسدّد الصّالحين بالكرامة، يسبّحونه على مضاجعهم، ويكبّرون الله بأصوات عالية، بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثمّ يقيّد ملوكهم بالقيود، وأشرافهم بالأغلال"[3]، ثمّ يذكر أنّ هذه الصّفات إنّما هي صفات أمّة محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، فيقول: فأيّتما أمّة يكبّرون الله بأصوات وأذان الصّلوات الدّائمة، وعلى كلّ شرف، وعند كلّ حرب، وأيّتما أمّة كانت سيوفها ذات شفرتين إلاّ أمّة محمّد، صلّى الله عليه وسلّم"[4].

رابعاً- الشّعر:

ضمّن كُتّاب العصر العبّاسيّ بعض رسائلهم شيئاً من الشّعر، ولم يكن هذا الشّعر كثير الدّوران فيها، إنّما جاء في بعض المواضع ليزيد الأفكار تأييداً وتوضيحاً، وليمنحها دعماً وتقريراً، وقد يُكتفى بالبيت الواحد ليكون جواباً كافياً، فالمنصور عندما ولي الخلافة، وأراد عمّه عبد الله بن عليّ الخروج عليه، وبايعه

---

(1) ورد في سفر المزامير(مزمور 9 آية: 20)، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 263/3.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 263/3.

(3) سفر المزامير(مزمور 149 آية: 1-9)، نقلاً عن: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 264/3.

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 264/3.

بعض أهل الشّام بالخلافة، لمّا بلغ المنصور ذلك من فعل عبد الله كتب إليه:

سأجعل نفسي منك حيثُ جعلتها   وللدّهر أيّام لهنّ عواقبُ[1]

وقد أخذ المنصور بيت عمرو بن معد يكرب، وبدأ به إحدى رسائله إلى عبد الله بن الحسن فقال له:

أريد حياته، ويريد قتلي   عَذيرَك من خليلك مِن مُرَادِ[2]

وقد أتى به على سبيل النّصح والتّحذير، وكان عليّ بن أبي طالب قد تمثّل به، وهو ينظر إلى عبد الرّحمن بن ملجم المرادي لعنه الله[3].

وردّ عليه عبد الله بن الحسن بالطّريقة نفسها، فقد ابتدأ كتابه إليه ببيتين من الشّعر عبّر له فيهما عن صلة القربى بينهما، مُستغرباً منه سوء الظّنّ فيه، فيتّهمه بأنّه يُدبِّر قتله:

وكيف أُريد ذاك وأنت منّي   وَزَنْدُك حين تَقْدحَ من زِنادي

وكيف أُريد ذاك وأنت منّي   بمنزلة النّياط من الفؤادِ[4]

ووقّع المأمون في كتابه إلى أحمد بن يوسف عندما أرسل إليه يخبره بكثرة طُلاّب الصّلات ببابه[5]: " الخير مُتّبعٌ، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبي الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشّاعر:

يَسقُط الطّيرُ حيثُ يلتقطُ الحَبـ   ـبَ وتُغشَى منازلُ الكُرماء

وطلب إليه في الرّسالة نفسها أن يسجّل أسماء من بالباب، وإعطاء كلّ واحد منهم قدر استحقاقه، وألاّ يُؤخّر لهم العطايا، وختمها بقول الشّاعر:

فإنّك لن ترى طَرْداً لِحُرٍّ   كإلصاقٍ به طَرَفَ الهَوَانِ

---

(1) المسعودي، مروج الذهب: 234/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 24/3.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: 304/8.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 76/3.

(4) النياط: عرق متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه. (ابن منظور، لسان العرب: نيط)؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: 29/3؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 77/3.

(5) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 39/2؛ النويري، نهاية الأرب: 260/7؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 364/3.

ولم تجلب مودّةَ ذي وفاءٍ بمثلِ الودِّ أو بذلِ اللسانِ

وأنهى المأمون رسالته التي أجاب بها عبد الله بن طاهر، موعزاً إليه بالبعد عنه، والبقاء في عمله حرصاً عليه: " فالزم مكانك، واتّبع قول الشّاعر:

رأيتُ دنوَّ الدّارِ ليس بنافعٍ إذا كان ما بين القلوب بعيدا[1]

فهذا البيت هو من قبيل الحكمة التي يُراد بها الاعتبار والموعظة.

وإذا كانت بعض الرّسائل قد خلت من الشّعر، فلم تتمثّل به لبعض الأسباب، فإنّ رسائل أخرى جاءت شعراً صرفاً، وهي ما يمكن أن نسميّه بالرّسائل الشّعريّة، التي آثر مرسلوها أن تكون رسائلهم بضعة أبيات، يختارونها، أو ينظمونها في الموضوع الذي يريدون معالجته، فتقوم مقام الرّسالة النّثريّة، فالمأمون لم يكتب إلى عنبسة بن إسحق عامله على الرّقّة –عندما كتب إليه عند خروج الأعراب بناحية سنجار وعبثهم بها– سوى بيتين من الشّعر، حملا في طيّاتهما ما يكفي لتأديب الأعراب وردعهم، وهما:

أَسْمَعتَ غير كَهَامِ السّمعِ والبَصرِ لا يقطعُ السّيفُ إلاّ في يدِ الحَذِرِ

سَيُصْبِحُ القومُ من سيفي وضَاربهِ مثلَ الهَشيم ذَرَته الرّيحُ بالمطرِ

وكما توقّع المأمون، فلم يسمع بهما الأعراب حتّى تفرّقوا، وانفضّت جموعهم[2].

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر:

أعزز عليّ بأن أراك عليلا أو أن يكون بك السّقام نزيلا

فوددتُ أنّي مالكٌ لسلامتي فأعيرها لك بكرةً وأصيلا

فتكون تبقى سالماً بسلامتي وأكون ممّا قد عَرَاك بديلا

هذا أخٌ لك يشتكي ما تشتكي وكذا الخليل إذا أحبّ خليلا[3]

وكتب المنصور ردّاً على رسالة عيسى بن عليّ حول قتل أبي مسلم:

---

(1) البيهقي، المحاسن والمساوئ: 444.

(2) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 387/3؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 402/3و403؛ انظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 187-192.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد: 230/1؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب:6/4.

إذا كنتَ ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ   فإنّ فساد الرّأي أن تتردّدا

ولا تمهل الأعداء يوماً لقدرة   وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا[1]

استشهد الكُتّاب ببعض الشّعر، وقد يكون هذا الشّعر من نظم الكاتب نفسه، أو يكون مقتبساً من شعر غيره، وقد كان سبب إدراجه في الرّسالة إضفاء الوضوح والبيان على المعاني، ومنحها الرّونق والبهاء.

خامساً- الأمثال:

أمّا الأمثال فلم يكن لها الحظّ الوافر في الرّسائل الدّيوانيّة، ومن الأمثال القليلة التي وردت ما جاء في عهد طاهر إلى ابنه عبد الله: "وافرغ من عمل يومك ولا تؤخّره لغدك"[2]، وقد أشار في ذلك إلى المثل المعروف: "لا تؤخّر عمل اليوم إلى الغد"[3]. ومن ذلك أيضاً ما ورد في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف: "ورفع به عنهم من سير الجواد، وبسط به يده من إثابة أهل البلاء، وتغمُّد الجرائم لأولي الزّلل، والإبلاغ في دعاء مَن عاند وشاقّ إلى التّوبة، والإنابة، وإقالة العثرة بعد القدرة..."[4]، وهو من المثل القائل: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم"[5].

وورد في رسالة الرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم: "فقد يعلم أمير المؤمنين- وأنتم بذلك من العالمين- أنّ خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرّحى: ليست العلماء بمخطئة إلاّ المرّة والثّنتين، كما لا تُخطئ الرّحى إلاّ الحبّة والحبّتين"[6].

---

(1) الأربلي، خلاصة الذّهب المسبوك: 65؛ حمادة، الوثائق السياسية: 124.

(2) ابن طيفور، كتاب بغداد: 32؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 413/3.

(3) خلايلي، كمال، معجم كنوز الأمثال والحكم العربية، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998م: 375.

(4) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 332/3.

(5) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد(ت518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط3، دار الفكر، 1972م: 123/2.

(6) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 237/3.

وورد فيها أيضاً: "فلقد كانت الهزيمة في أوّل وقعة أوقعها الله، ثمّ لقد دالت الحرب فيما بعد سجالاً فيما بينه وبينهم، تارة عليه لهم، وأخرى له عليهم"[1]، وهو ينظر إلى المثل القائل: "الحرب سجال"[2].

ولم يقف الاقتباس والتّضمين عند حدّ الأشعار والأمثال، بل تجاوزها إلى أقوال الصّحابة والتّابعين، ونجد ذلك في عهد المأمون لعليّ بن موسى الرّضيّ: " وبلغنا أنّ عمر بن الخطّاب قال: "لو ضاعت سخلة بجانب الفرات لتخوّفت أن يسألني الله عنها"، وأيم الله إنّ المسؤول عن خاصّة نفسه، الموقوف على عمله، فيما بين الله وبينه، لمتعرّض لأمر كبير، وعلى خطر عظيم، فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمّة"[3].

مظاهر الصّنعة:

أولاً- الإيجاز والإطناب:

تتفاوت الرّسائل من حيث طولها وقصرها تبعاً لطبيعة الموضوع الذي تُكتب فيه، فهنالك موضوعات وقضايا يمكن التّعبير عنها بكلمات معدودة، دون الإخلال بشيء منها، وفي الوقت نفسه نجد موضوعات تحتاج إلى نفس طويل، تستغرق عشرات الصّفحات. وتتراوح الرّسائل الموجزة بين الجملة والعبارة الواحدة، وبين بضعة أسطر، ونجد ذلك في رسالة أبي جعفر إلى أبي داود، يقول: "إنّ لك إمرة خُراسان ما بقيت"[4]، لم تتجاوز هذه الرّسالة الجملة الواحدة، لكنّها نصّت على ما رآه السّلطان ودبّره، وأكّدت على امتثال أمره وإنفاذه بإقصاء أبي مسلم الخُراسانيّ عن إمرة خُراسان، وتولية أمرها لأبي داود.

وكتب المأمون في ردّه على عمرو بن مسعدة، عندما كتب إليه في أمر رجل

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 244/3.

(2) الميداني، مجمع الأمثال: 214/1.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 341/3.

(4) المرجع نفسه: 29/3.

من بني ضبّة يستشفع له بالزّيادة في منزلته[1]- فكتب المأمون: "قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك، وأجبناك إليهما، ووافقناك عليهما". فهذه الرّسالة تتضمّن جملة من النّقاط الرئيسة التي أراد المأمون أن يوصلها إلى عمرو بن مسعده، بأسلوب موجز، فلم تتجاوز السّطر الواحد.

وقد تكون الرّسائل متوسّطة الطّول، حيث لا تتعدّى الموضوع الواحد، ولكنّها تحوي جملة من النّقاط الأساسيّة التي يتناولها ذلك الموضوع، وهي تتراوح بين فقرة وبضع فقرات، وأكثر الرّسائل يمكن إدراجها في هذا النّوع[2]، ومن هذه الرّسائل رسالة الأمين إلى المأمون عندما مات الرّشيد، وهو يتناول مجموعة من الأفكار، أولاها: تقديم العزاء لأخيه ودعوته بالصّبر: "وإيّاك أن يغلب عليك الجزع، فإنّه يحبط الأجر، ويُعقب الوِزْرَ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيّاً وميتاً، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون"[3].

أمّا الفكرة الثّانية، فهي طلب الأمين إلى المأمون أخذ البيعة: "وخذ البيعة على من قبلك من قوّادك وجندك وخاصّتك وعامّتك لأخيك، ثمّ لنفسك، ثمّ للقاسم ابن أمير المؤمنين"[4].

والفكرة الثّالثة، هي إخبار الرّعيّة بأنّ الأمين سيقوم على صلاحهم وسدّ خلّتهم، والتّوسعة عليهم، ومن أنكر ذلك منهم فعليك أن لا تتوانى في قتله: "وأعلم مَن قِبَلك رأيي في صلاحهم وسدّ خلتهم والتّوسعة عليهم، فمن أنكرته عند بيعته، أو اتّهمته على طاعته، فابعث إليّ برأسه مع خبره، وإيّاك وإقالته"[5].

كما يطلب إليه أن يرسل بخبر موت الرّشيد إلى عمّال الثّغور وأمراء الجند، ويأمرهم أن يضبطوا ثغورهم، ويحافظوا عليها، ويأخذوا له بالبيعة، ويخبرهم أيضاً بأنّه سيتفقّد أمورهم، ويلمّ شعثهم ويوسّع عليهم.

---

(1) المرجع نفسه: 428/3.

(2) انظر: صفوت، جمهرة رسائل العرب: 10/3، 21، 27، 77، 96، 97، 99، 100، 132، 277، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 305، 306....

(3) المرجع نفسه: 290/3.

(4) المرجع نفسه: 290/3. (5) المرجع نفسه: 291/3.

ونجد الإطناب سمة بارزة في بعض الرّسائل، خاصّة ما كان يتعلّق بأمر جليل، وفي أكثر الأحيان تسهب هذه الرّسائل في الشّرح والوصف، وتهتمّ بتفصيل الجزئيات، وتميل إلى التّقسيم والتّعداد، وتعتمد على المقارنات والموازنات، وتستخدم التّرادف والتّكرار، ويبدو ذلك واضحاً في رسالة ابن المقفّع في الصّحابة والتي كتبها للمنصور[1]، وفي ردّ أبي جعفر على النّفس الزّكيّة[2]، ورسالته أبي جعفر إلى عيسى بن موسى[3]، ورسالة الرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم التي زادت على سبعين صفحة[4]، ورسالة الخميس لأحمد بن يوسف التي كتبها للمأمون، والتي بلغت عشرين صفحة[5]، ورسالة المعتصم إلى الآفاق عندما قبض على بابك الخرّميّ في ست صفحات[6].

وعلى الرّغم من شيوع الإيجاز، فإنّنا نجد من يميل إليه ويفضّله على الإسهاب والإطالة، فقد قال جعفر بن يحيى البرمكي للكُتّاب: "لو استطعتم أن تكون كتبكم كالتّوقيعات فافعلوا"[7]. ومع ذلك فإنّنا نجد في هذا العصر اجتماع الإيجاز والإطالة في المكاتبات، فقد قال محمد كرد علي: "إنّ القرن الثّاني قرن التّطويل والإيجاز معاً"[8].

ثانياً- الجناس:

وهو استعمال الكاتب لكلمتين متآلفتي الحروف، مختلفتي المعنى، ويأتي على نوعين، أولهما: الجناس التّام، وهو ما اتّفق فيه اللفظان في نوع الحروف وترتيبها،

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 3/30-48.
(2) المرجع نفسه: 3/81-87.
(3) المرجع نفسه: 3/88-92.
(4) المرجع نفسه: 3/217-274.
(5) المرجع نفسه: 3/317-334.
(6) المرجع نفسه: 4/11.
(7) الصولي، أدب الكتاب: 134.
(8) كرد علي، أمراء البيان: 9؛ بيوض، الرسائل السياسية: 203.

وحركاتها، وعددها مع اختلاف المعنى، وكان هذا اللون من الجناس قليل الاستعمال مقارنة مع الجناس النّاقص الذي استخدم مقروناً بالسّجع في نهايات الجمل، بحثاً عن تنغيم النّص، وإشاعة الإيقاع فيه[1].

أكثر الكُتّاب من الجناس النّاقص في مكاتباتهم، وتفنّنوا في ضروبه، وشاع في رسائلهم، حتّى كان له الحظّ الأوفر من بين المحسّنات اللفظيّة الأخرى، وممّا ورد من ضروب الجناس: الجناس اللاحق، الذي يتمثّل باختلاف أحد الأحرف، ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن المقفع في الصّحابة: "وقلّما ضعف الرّجاء إلاّ ذهب الرّخاء"[2]، فقد اختلف حرفي الجيم والخاء في لفظي "الرّجاء" و"الرّخاء".

وفي كتاب عيسى بن موسى بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادي: "وكلّ مملوك عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وكلّ مالٍ لي نقد أو عرض، أو قرض أو أرض، أو قليل أو كثير، تالد أو طارف..."[3]، ورد جناس لاحق في الحرف الأوّل في "قرض" و"أرض"، حيث الاختلاف في حرفي "القاف" و"الهمزة".

كما ورد هذا اللون من الجناس في رسالة الرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم: "وكان أكثر دهره صائماً، وأطول ليله قائماً"[4]، حيث الاختلاف في حرفي: "الصّاد" و"القاف"، في "صائماً" و"قائماً". وورد في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف: "وآثار صُنعه فيما برأ وذرأ... فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد"[5]، والاختلاف في حرفي "الباء" و"الذّال" في لفظي "برأ" و"ذرأ"، و"الضّاد" و"النّون" في لفظي"الأضداد" و"الأنداد"، ولعلّ هذا اللون من الجناس هو الأكثر شيوعاً في مكاتبات هذا العصر.

ومن ضروب الجناس النّاقص الشّائعة في الرّسائل جناس الاشتقاق، وهو توافق

(1) العسكري، الصناعتين: 321؛ ابن الأثير، المثل السائر: 342/1؛ الكلاعي، أحكام صنعة الكلام: 183وما بعدها.

(2) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب: 32/3.

(3) المرجع نفسه: 140/3.

(4) المرجع نفسه: 237/3.

(5) المرجع نفسه: 320/3.

الحروف في اللفظ مع الاشتراك في الاشتقاق[1]، ومن ذلك ما ورد في ردّ الرّشيد على هرثمة بن أعين: "حتّى تصير إلى استنظاف ما وراء ظهورهم، ولا تبقي من نفسك في ذلك بقيّة، وفي إنصاف النّاس منهم في حقوقهم ومظالمهم حتّى لا تبقي لمتظلِّم منهم قِبلهم ظُلامة إلاّ استقضيت ذلك"[2]، فقد جانس بين لفظي "متظلِّم" و"ظُلامة" الذي يرجع اشتقاقهما إلى أصل واحد هو "ظلم".

ومن ذلك ما جاء في عهد المأمون لعليّ بن موسى الرّضي: "... عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم، ممّن هو أشبكُ به رحما، وأقربُ قرابة، وسمّاه "الرّضيّ" إذ كان رضيّاً عند أمير المؤمنين"[3]، فقد جانس بين "الرّضيّ"، و "رضيّاً"، مع اشتراكهما في أصل الاشتقاق وهو "رضي".

ثالثاً- الطّباق:

وهو الجمع بين متضادّين، أي معنيين متقابلين في الجملة، بأن بينهما تقابل وتنافر، ولو في بعض الصّور، سواء أكان التّقابل حقيقياً، كتقابل القدم والحدوث، أم اعتباريّاً كتقابل الإحياء والإماتة[4].

ويقتصر الطّباق على المطابقة بين لفظين، واشترطوا فيه التّقابل: "فلا تجيء باسم مع فعل، ولا فعل مع اسم"[5].

ومن ذلك ما ورد في رسالة أبي جعفر لابن هُبيرة بالأمان: "وأذنتَ لك ولهم في المسير والمقام... أو تابع على خلافه أحداً من المخلوقين في سرٍّ أو علانية، أو أضمر لك في نفسه غير ما أظهر لك"[6]، فقد طابق بين "المسير والمقام" و"سرٍّ وعلانية" مطابقة الاسم للاسم، وطابق بين "أضمر وأظهر"، مطابقة الفعل للفعل.

---

(1) طبانة، بدوي، معجم البلاغة العربية، ط2، دار العلوم للطباعة والنشر، 1982م: 446/1.

(2) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 284/3.

(3) المرجع نفسه: 343/3.

(4) طبانة، معجم البلاغة العربية: 447/1.

(5) الحلبي، حسن التوسل: 200.

(6) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 12/3.

ومن ذلك ما ورد في كتاب أبي جعفر إلى وليّ عهده: "فإنّ نعم الله على أمير المؤمنين باطنة وظاهرة"[1]، فقد طابق بين "باطنة وظاهرة". وفيه: "وأمير المؤمنين يحمد الله على قديم نعمه عنده وحديثها، وباطنها وظاهرها"[2]، جاءت المطابقة هنا بين: "قديم وحديثها" و"باطنها وظاهرها".

وجاء في كتاب أبي جعفر إلى محمد بن سليمان: "أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث، أحرِّم فيها الحلال، وأُحلُّ فيها الحرام، والله لقد فطّرتكم في يوم صومكم، وصوّمتكم في يوم فطركم، فضُربت عنقه"[3]، حيث طابق بين: "أحرِّم وأُحلّ" و"فطّرتكم وصوّمتكم" مطابقة الفعل للفعل، كما طابق بين "الحلال والحرام" و"صومكم وفطركم" مطابقة الاسم للاسم.

ويدلّ توفر الكُتّاب على الطّباق، وشدّة عنايتهم به على مدى اهتمامهم بالصّنعة اللفظية.

رابعاً- التّرادف:

أكثر كُتّاب العصر العبّاسيّ من استخدام التّرادف في رسائلهم، ولعلّ السّبب في ذلك هو ما يتركه من توقيع صوتي، وتعادل موسيقي، وتجاوب إيقاعي، بين الألفاظ والعبارات. ومن الرّسائل التي ورد فيها التّرادف رسالة الرّشيد إلى عليّ بن عيسى، وفيها يقول: "... رفعتُ من قدرك، ونوّهتُ باسمك، وأوطأتُ سادة العرب عقبِك، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك، فكان جزائي أن خالفتَ عهدي، ونبذتَ وراء ظهرك أمري..."[4].

وورد في رسالة الرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم: "... ثمّ لو لم تكن النّجوم آية دامغة، وحجّة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة قاطعة،

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 21/3.

(2) المرجع نفسه: 22/3.

(3) المرجع نفسه: 10/3.

(4) المرجع نفسه: 277/3.

وبيّنة عادلة، وداعية قائمة، تُبطل أظانين المشركين، وتردع أقاويل المنـــافقين، لَمَـــا كان النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، ليُعظم أمرها، ولا ليكرّر في آي القرآن ذكرهـــا، رهبة لمناهضة أحياء العرب، ومعرفة بمجادلة إخوان الكتب، الذين لو وجدوا فيمـــا كتب به إليك أمير المؤمنين من أمر النّجوم، واحتجّ به عليك من ذكر الرّجوم، موْقِعاً لظنٍّ، أو معْلَماً بطعنٍ، أو مغمزاً لقول، لناصبوه إذن بالمجادلة، وكاشفوه بالمنازعة، وجاهروه بالقول الذي لا يستطيع له ردّاً، ولا يُطيق له جحداً، ولكنّها آيـــات مـــلأت الأقطار كثرةً، وحسرت الأبصار قوّةً، قد وجلت العقول، وولهت القلوب"[1]، ففي كلّ هذه المترادفات نلاحظ أنّ المعنى الواحد يعبّر عنه بأكثر من لفظة أو عبارة، وفـــي هذا ما يساعد على إكساب المعنى وضوحاً، ويزيل ما به من غموض.

خامساً- التّصوير الأدبي:

يُعدّ التّصوير الفنيّ من السّمات البارزة في العمل الأدبي، وتبدو هذه السّـــمة حاضرة في الرّسائل الدّيوانيّة في العصر العبّاسيّ، إذ راح الكُتّاب يستقون صورهم من موارد عِدّة، فمنهم من كان يستمدّ صورته من القرآن الكريم، ومن ذلك ما ورد في كتاب أبي جعفر إلى عيسى بن موسى: "إذ قال العبد الصّالح : ﴿فَهَبْ لِـــي مِـــن لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[2]. فوهـــب الله لأميـــر المؤمنين وليّاً، ثمّ جعله تقيّاً مباركاً مهديّاً، وللنّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، ســـميّاً"[3]، فالمنصور يشبّه نفسه بزكريّا، عليه السّلام، الذي سأل ربّه أن يهب له غلاماً، يرثـــه بعد موته، ويرث آل يعقوب، وقد وهب الله سبحانه وتعالى للمنصـــور ابنـــه الـــذي اختاره له خليفة من بعده، وكان تقيّاً مباركاً.

ومن ذلك ما ورد في رسالة طاهر بن الحسين إلى المـــأمون: "... واســـتقام لأمير المؤمنين شرقيّ ما يلي مدينة السّلام وغربيّه، وأرباعه وأرباضـــه ونواحيـــه،

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 239/3.

(2) سورة مريم: الآية: 5و6.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 91/3، الدروبي، الرسائل الفنية: 567.

وقد وضعت الحربُ أوزارها"[1]، والكاتب ينتزع صورة انتهاء الحرب من بعض آي القرآن الكريم، فهو ينظر إلى قول الله تعالى: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[2].

وقد يستمدّ الكاتب صورته من الحديث النّبويّ الشّريف، فقد جاء في رسالة المأمون إلى أعيان العسكر ببغداد: "أمّا بعد، فإنّ أمر المؤمنين كأعضاء البدن، تحدث العلّة في بعضها فيكون كُرْه ذلك مؤلماً لجميعها، وكذلك الحدثُ في المسلمين، يكون في بعضهم فيصل كُرْه ذلك إلى سائرهم"[3]، والكاتب ينظر هنا إلى حديث رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم،: "مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى"[4].

وقد يستمدّ الكاتب صورته من الشّعر، ومن ذلك ما جاء في توقيع المأمون في كتاب أحمد بن يوسف الذي كتبه للمأمون حين كثر طلاب الصّلات ببابه: "الخير مُتّبع، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبي الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشّاعر:

يَسْقُطُ الطّيرُ حيثُ يلتقطُ الحَـ ـبَّ وتُغشى منازلُ الكُرماء[5]

فالكاتب يصوّر طُلاّب الصّلات وتكاثرهم ببابه للحصول على العطايا، بالطّير يسقط ليلتقط الحبَّ.

ويعمد الكاتب -أحياناً- إلى بعض الأدوات الحضاريّة ليستقي منها صوره، فملك الرّوم نقفور شبّه الرّشيد بقلعة الشّطرنج، وشبّه إيريني ملكة الرّوم السّابقة بجندي الشّطرنج الذي يقف أمام القلعة يحرسها، وذلك بقوله: "فإنّ الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرّخ، وأقامت نفسها مقام البيدق"[6]، والرّخ هو القلعة من قطع الشّطرنج، والبيدق هو الجندي.

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 311/3.

(2) سورة محمد: الآية: 4.

(3) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 302/3.

(4) مسلم، صحيح مسلم: 4/1999- 2000 حديث رقم(2586/66)؛ انظر النص: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي: 568.

(5) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: 39/2؛ صفوت، جمهرة رسائل العرب: 364/3.

(6) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 274/3و275، الدروبي، الرسائل الفنية:570.2

ويميل الكُتّاب –أحياناً– في صورهم إلى تصوير غير المحسوس بالمحسوس، فقد صوّر الكاتب جمال آيات القرآن الكريم ووقعها بفقاقيع الماء التي تطفو كأنّها القوارير، وشبّهها أيضاً بالزِّينة والوشي والجوهر، ونجد ذلك في رسالة الرّشيد إلى قسطنطين ملك الرّوم، حيث يقول: "... أتانا محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، بكلام لم تسمع الآذان بمثله، ولم تقع القلوب على لغته، له رَونق كَحَباب الماء، وزِبرج يعلو ولا يُعلى، وعجائب لا تَبلى ولا تفنى، وجِدّة لا تتغيّر"[1].

---

(1) صفوت، جمهرة رسائل العرب: 233/3.

الخاتمة

لقد أوضحت لنا الصّفحات السّابقة أنّ ديوان الرّسائل بدأ عربي النّشأة، فقد ظهرت بدايات هذا الدّيوان في عهد الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، حيث كان يُكاتب أمراءَه وأصحاب سراياه من الصّحابة -رضوان الله عليهم- ويكاتبونه، كما كان يكاتب الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

وعلى الرّغم من اختلاف الباحثين حول نشأته، أكانت في عهد الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، أم كانت في عهود متأخّرة؟ فإنّ ما ورد عن الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم من أخبار وروايات يُبيّن وجود الأساس الذي بُني عليه ديوان الرّسائل حتى تطوّر ووصل إلى ما وصل إليه من تقدّم وازدهار في عهد العبّاسيين، إذ تدخّل العنصر الفارسي الذي قام بدور فعّال في تطوّر هذا الدّيوان واستقلاله عن الوزارة، حيث أصبح يشرف عليه رئيس خاصّ به يساعده مجموعة من الكُتّاب يقوم كلّ منهم بعمل خاصّ به.

وقد ازداد الاهتمام بهذا الدّيوان في العصر العبّاسي الأوّل؛ لأنّه يتولّى مهمّة عظيمة هي الإشراف على تحرير رسائل الخلفاء ومكاتباتهم ومواثيقهم وعهودهم وأوامرهم إلى الولايات الإسلاميّة والبلدان الخارجيّة، والرّسائل القادمة إلى عاصمة الخلافة، لذا لا بُدّ أن يشرف على ديوان الرّسائل من تثبت كفاءته للقيام بهذه المهمّات، وقد اشترطوا فيمن يتولاّه أن يكون على قدر واسع من الثّقافة، الأمر الذي دفع عبد الحميد الكاتب، وابن قتيبة والعسكري وابن النحاس وابن المدبر وغيرهم وضع الكتب التي توجّه الكُتّاب في ديوان الرّسائل إلى المعارف والعلوم التي يحتاجونها في عملهم.

وقد قام الكُتّاب بتثقيف أنفسهم بشتّى ألوان المعارف سعياً للوصول إلى منصب كاتب رسائل في ديوان الرّسائل، إذ غالباً ما كان يرقى من يبرع منهم إلى مناصب عليا في الدّولة، وقد كان الفرس أصحاب السّبق في هذا المجال لمَا يتمتّعون به من ثقافة عالية، وقدرة ونبوغ في السّياسة وإدارة الدّولة.

وبيّنت الدّراسة أيضاً المؤثّرات الأجنبيّة في ديوان الرّسائل، فقد وجدت ثلاث ثقافات هي الفارسيّة واليونانيّة والهنديّة أخذت طريقها لتؤثّر فيه، وقد ساعدت على

انتشارها عدّة عوامل منها: الفتوح الإسلاميّة، والاحتكاك المباشر عن طريق التّجارة والسّفر، إضافة لذلك ساهمت حركة التّرجمة والنّقل التي شجّعها الخلفاء أنفسهم مساهمة عظيمة في نشر هذه الثّقافات، كما شارك بعض الكُتّاب في التّرجمة والنّقل من أمثال ابن المقفّع وسالم مولى هشام، وغيرهم.

وتناولت الدّراسة أنواع المكاتبات الرّسميّة الصّادرة عن ديوان الرّسائل في العصر العبّاسي الأوّل، وأظهرت صوراً من العلاقات المتبادلة بين الحكّام والرّعيّة، وعكست صدى الأحداث التي جرت في هذا العصر، وتمثّلت المكاتبات في المنشورات والمبايعات والمخالعات والأمانات والبشارات وكتب التّعيين والعزل، وغيرها، كما عكست لنا طبيعة العلاقات الخارجيّة في السّلم والحرب.

أمّا ما يتعلّق بالخصائص الفنيّة، فقد التزمت الرّسائل برسوم تقليديّة شكليّة سار عليها معظم الكُتّاب في مكاتباتهم، على الرّغم من محاولة بعض الكُتّاب التّخلص من بعضها، وتمتاز هذه الرّسائل بظواهر أسلوبيّة غنيّة عكست لنا قدرة الكاتب وبراعته الإنشائيّة.

المصادر والمراجع

الآبي، أبو سعيد منصور بن الحسين(ت421هـ): 1408هـ/1988م،**نثر الدّر**، تحقيق: محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

ابن الأثير، أبو الحسن، عز الدين علي بن أبي الكرم(ت630هـ): 1402هـ/1982م، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت.

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد(ت637هـ): 1358هـ/1939م، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر،.

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله(ت241هـ): 1419هـ/1998م، **المسند**، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد(ت223هـ): 1403هـ/1983م، **أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار**، ط3، دار الأندلس، بيروت،

إسماعيل، عز الدين: 1975م، **في الأدب العباسي، الرؤية والفن**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين(ت356هـ): د.ت، **مقاتل الطالبيين**، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

أمين، أحمد: د.ت، **ضحى الإسلام**، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت.

أيوب، إبراهيم: 1989م، **التاريخ العباسي السياسي والحضاري**، ط1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت.

بابتي، عزيزة فوال: 1986م، **الإطار الأدبي في مطلع العصر العباسي**، ط1، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.

الباشا، حسن: 1992م **دراسات في الحضارة الإسلامية**، دار النهضة العربية، القاهرة.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(ت256هـ): 1405هـ/1985م، **صحيح**

البخاري بشرح الكرماني، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
بدوي، عبد الرحمن: 1940م، **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، مصر.
براون، إدوارد:1996م، **تاريخ الأدب في إيران**، ترجمة وتعليق: أحمد كمال الدين حلمي، ط1، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت.
بيوض، حسين: 1996م، **الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول**، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق.
ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت874هـ): 1383هـ/1963م، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.
التليسي، بشير رمضان وجمال هاشم الذويب: 2002م، **تاريخ الحضارة العربية الإسلامية**، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت.
التوحيدي، أبو حيان، علي بن محمد(ت414هـ): 1408هـ/1988م، **البصائر والذخائر**، تحقيق: وداد القاضي، ط1، دار صادر، بيروت.
الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت430هـ): 1405هـ/1985م، **الإيجاز والإعجاز**، ط3، دار الغصون، بيروت.
الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت430هـ): 1965م، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت430هـ): 1414هـ/1994م، **خاص الخاص**، شرحه وعلق عليه: مأمون بن محيي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر(ت255هـ): د.ت، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط4، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ): 1357هـ، **الحيوان**، بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي

الحلبي وأولاده بمصر،.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ): 1411هـ/1991م، **رسائل الجاحظ**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ): 1406هـ/ 1986م، **المحاسن والأضداد**، (منسوب)، قدم له وراجعه عاصم عيتاني، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت.
جار الله الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(ت538هـ): 1979م، **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
جمعة، بديع: 1983م، **من روائع الأدب الفارسي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
الجميلي، رشيد: د.ت، **حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي في القرنين الأول والثاني للهجرة**، منشورات جامعة قاريونس.
الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس(ت331هـ): 1401هـ/1980م، **الوزراء والكُتّاب**، تحقيق: مصطفى السّقا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله: د.ت، **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتاب العربي، بيروت.
حتاملة، عبد الكريم: 1406هـ/1985م، **البنية الإدارية للدولة العباسية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي**، ط1، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان.
حجاب، محمد نبيه: 1381هـ/1961م، **مظاهر الشعوبية في الأدب العربي**، ط1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
حسن، حسن إبراهيم: 1964م، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
حسن، حسين الحاج: 1414هـ/1994م، **حضارة العرب في العصر العباسي**، ط1،

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
حسين، طه: 1965م، **من حديث الشعر والنثر**، دار المعارف بمصر.
الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي(ت453هـ): 1989م، **زهر الآداب وثمر الألباب**، مفصّل ومضبوط ومشروح بقلم: زكي مبارك، حققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت،.
الحلبي، شهاب الدين محمود(ت725هـ):
حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، وزارة الثقافة، بغداد، 1980م.
حمادة، محمد ماهر: 1406هـ/1985م، **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول(132-247هـ)**، دراسة ونصوص، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت.
ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي: 1996م، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، ط1، دار صادر، بيروت.
حمزة، عبد اللطيف: 1937م، **ابن المقفّع**، دار النشر الحديث، مصر.
ابن حنبل، أحمد(ت241هـ): 1419هـ/1998م، **المسند**، بيت الأفكار الدولية، الرياض.
الحوفي، أحمد محمد: 1968م، **تيارات ثقافية بين العرب والفرس**، ط3، دار نهضة مصر، القاهرة.
الخالديان، أبو بكر محمد الخالدي(ت380هـ)، وأبو عثمان سعيد الخالدي(ت390هـ): 1375هـ/1956م، **التحف والهدايا**، تحقيق: سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة.
الخزاعي، علي بن محمد: 1405هـ/1985م، **تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
الخضري، محمد: د.ت، **الدولة العباسية**، طبعة جديدة منقحة ومزيدة، تقديم

ومراجعة: أحمد حطيط، دار الفكر اللبناني، بيروت.

الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي(ت463هـ): ، د.ت، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة 463هـ**، دار الكتب العلمية، بيروت.

خلايلي، كمال: 1998م، **معجم كنوز الأمثال والحكم العربية**، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ): 1998م، **المقدمة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن خلف، علي الكاتب(ت في مطلع القرن الخامس الهجري): 1407هـ/1986م، **مواد البيان**، طبع بالتصوير عن مخطوطة فاتح(4128)، مكتبة السليمانية، استانبول.

ابن خلكان، أبو العباس، شمس الدين، أحمد بن محمد(ت681هـ): د.ت، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، حققه: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

أبو خليل، شوقي: 1415هـ/1994م، **الحضارة العربية الإسلامية**، ط1، دار الفكر، دمشق.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني(ت275هـ): د.ت، **سنن أبي داود**، اعتنى به فريق بيت الأفكار الدولية، الرياض.

لدروبي، محمد، صلاح جرار: 1402هـ/2000، **جمهرة التوقيعات الفارسيّة المعربة**، منشورات جامعة آل البيت، الأردن.

الدروبي، محمد: 1420هـ/1999م، **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان.

الراغب الأصبهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد(ت502هـ): 1381هـ/1961م، **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

الرفاعي، أحمد فريد: 1346هـ/1927م، **عصر المأمون**، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

الصفدي، خليل بن أيبك(ت764هـ): 1389هـ/1969م، **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.

صفوت، أحمد زكي: 1938م، **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**، المكتبة العلمية، بيروت.

ابن الصيرفي، علي بن منجب بن سليمان(463-542هـ): 1410هـ/1990م، **القانون في ديوان الرسائل، والإشارة إلى من نال الوزارة**، حققهما وكتب مقدمتهما وحواشيهما ووضع فهارسهما: أيمن فؤاد سيد، ط1، الدار المصرية اللبنانية.

ضناوي، سعدي: 1421هـ/2001م، **موسوعة هارون الرشيد**، ط1، دار صادر، بيروت.

ضيف، شوقي: د.ت، **العصر الإسلامي**، ط7، دار المعارف بمصر.

ضيف، شوقي: 1966م، **العصر العباسي الأول**، ط6، دار المعارف بمصر.

ضيف، شوقي: د.ت، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، ط1، دار المعارف، القاهرة.

طبانة، بدوي: 1982م، **معجم البلاغة العربية**، ط2، دار العلوم للطباعة والنشر.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ):د.ت، **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار المعارف، مصر.

الطراونة، نعمات، 2004، 2004، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك.

ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا: د.ت، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، بيروت.

ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن طاهر(ت280هـ): 1908م، **كتاب بغداد**، دار الجنان، بيروت.

العاكوب، عيسى: 1989م، **تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي في العصر العباسي الأول**، قدم له: محمد حموية، ط1، دار طلاس، دمشق.

العاملي، محمد بهاء الدين: 1403هـ/1983م، **الكشكول**، ط1، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة.

عباس، إحسان: 1988م، **عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسالة ورسائل سالم أبي العلاء**، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.

عباس، إحسان: 1993م، **ملامح يونانيّة في الأدب العربي**، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

العباسي، الحسن بن عبد الله: 1409هـ/1989م، **آثار الأول في ترتيب الدول**، حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الرحمن عميرة، ط1، دار الجيل، بيروت.

عبد الباقي، أحمد: 1991م، **معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

ابن عبد البر، أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد(ت463هـ):
1412هـ/1992م، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، بيروت.

ابن عبد البر، أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد(ت463هـ):
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، قدم له وقرظه: محمد عبد المنعم البري وجمعة طاهر النجار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م.

ابن عبد ربه، أبو عمر، أحمد بن محمد الأندلسي(ت328هـ):
العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، 1359هـ/1940م.

عبد العال، محمد: 1996م، **في النثر العربي، قضايا وفنون ونصوص**، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان.

عبد الفتاح، صفاء: 1406هـ/1985م، **نظم الحكم في الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويه بغداد**، دار الفكر العربي، القاهرة.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله(ت395هـ): ، د.ت، **الأوائل**، الناشر: أسعد طرابزوني الحسيني، حققه وعلق عليه: محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة.

علي، سيد أمير: 1981م، **مختصر تاريخ العرب**، نقله إلى العربية: عفيف البعلبكي، ط4، دار العلم للملايين، بيروت.

عمر، فاروق:د.ت، **العباسيون الأوائل 97هـ/716م-170هـ/786م**، ساعدت جامعة بغداد على طبعه.

العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله(ت748هـ): 1413هـ/1992م، **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق: سمير الدروبي، ط1، منشورات جامعة مؤتة، الكرك.

غوتاس، ديمتري: 2003م، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، ترجمة وتقديم: نقولا زيادة، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان،.

فازيليف: 1934م، **العرب والروم**، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، راجعه: فؤاد حسنين علي، دار الفكر العربي.

ابن الفرات(ت807هـ): 1942م، **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت.

الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف: 1417هـ/1997م، **تاريخ الفكر الإسلامي**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة.

الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف: 1987م، **الدولة العباسية**، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت276هـ):

أدب الكاتب، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة بمصر، 1382هـ/1963م

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت276هـ): 1980م، **الإمامة والسياسة، المعروف "بتاريخ الخلفاء"**، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت276هـ): 1958م، **الشعر والشعراء**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت276هـ):د.ت، **عيون الأخبار**، شرحه وضبطه وعلّق عليه وقدّم له ورتّب فهارسه: يوسف عليّ طويل، دار الكتب العلمية، بيروت.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج(ت329هـ): 1981م، **الخراج وصناعة الكتابة**، شرح

وتحقيق: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، العراق.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(ت821هـ): 1383هـ/1963م، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستاتسوماس وشركاه، القاهرة،.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(ت821هـ): 1418هـ/1997م **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها: شوقي أبو خليل، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر(ت751هـ): 1381هـ/1961م، **أحكام أهل الذمة**، حققه وعلق حواشيه: صبحي الصالح، ط1، مطبعة جامعة دمشق.

الكتبي، محمد بن شاكر(ت764هـ): د.ت، **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

كرد علي، محمد: 1331هـ/1913م، **رسائل البلغاء**، ط2، دار الكتب العربية الكبرى.

الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور، من أهل القرن السادس الهجري: 1405هـ/1985م، **إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس**، حققه وقدم له: محمد رضوان الداية، ط2، عالم الكتب.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف: د.ت، **الولاة وكتاب القضاة**، مهذبا ومصححا بقلم: رفن كَست، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

كنعان، محمد بن أحمد: 1419هـ/1998م، **تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك** "خلاصة تاريخ ابن كثير"، ط1، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت.

ماجد، عبد المنعم: 1972م، **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

ماجد، عبد المنعم: 1973م، **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب(ت450هـ): د.ت، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، دار الكتب العلمية، بيروت.

المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد(ت285هـ): 1406هـ/1986م، **الكامل**، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: محمد أحمد الدالي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

متز، آدم:

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، أعدّ فهارسه: رفعت البدراوي، ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

مجهول: من أهل القرن الثالث الهجري: 1391هـ/1971م، **أخبار الدولة العباسية**، تحقيق: عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت.

محمدي، محمد: 1964م، **الترجمة والنقل عن الفارسيّة في القرون الإسلامية الأولى**، منشورات قسم اللغة الفارسية وآدابها في الجامعة اللبنانية، بيروت.

ابن المدبر، إبراهيم(ت279هـ): 1350هـ/1931م، **الرسالة العذراء**، مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب في القرن الثالث، بقلم: زكي مبارك، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين(ت346هـ): د.ت، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن علي(ت421هـ): د.ت، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري(ت261هـ): د.ت، **صحيح مسلم**، بشرح النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، توزيع مكتبة الغزالي، دمشق.

المقداد، محمود: 1413هـ/1993م، **تاريخ الترسل النثري عند العرب**، ط1، دار

الفكر، دمشق.

المقريزي، تقي الدين، أحمد بن علي(ت845هـ): د.ت، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي**، طبعة جديدة بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد(ت518هـ): 1972م، **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط3، دار الفكر.

الناطور، شحادة. أحمد العودات. جميل بيضون: 1410هـ/1990م، **الخلافة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري**، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن.

ابن النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل(ت338هـ/950م): 1410هـ/1990م، **صناعة الكتاب**، تحقيق: بدر أحمد ضيف، ط1، دار العلوم العربية، بيروت.

النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب(ت438هـ): 1398هـ/1978م، **الفهرست**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

نصار، حسين: 1966م، **نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي**، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب(ت 733هـ): د.ت، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة عن طبعة دار الكتب، القاهرة.

الهاشمي، رحيم كاظم محمد. عواطف محمد العربي شنقارو: د.ت، **الحضارة العربية الإسلامية**، دراسة في تاريخ النظم، الدار المصرية اللبنانية،القاهرة، المكتبة الجامعية، غريان، ليبيا.

ابن وادران، حسين بن محمد: 1993م، **تاريخ العباسيين**، تقديم وتحقيق: المنجي الكعبي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت749هـ): 1389هـ/1969م. **تاريخ ابن الوردي**، ط2، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف.

ياقوت الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله(ت626هـ): 1993م، **معجم الأدباء**، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ياقوت الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله(ت626هـ): 1404هـ/1984م، **معجم البلدان**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، ابن واضح الكاتب(ت284هـ): 1408هـ/1988م، **كتاب البلدان**، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، ابن واضح الكاتب(ت284هـ): د.ت، **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت.

السِّيرة الذّاتيّة:

الاسم: نعمات عوض محمد الطراونة.

الكليّة: الآداب.

التخصّص: دراسات أدبيّة.

السّنة: 2008م.

العنوان البريديّ: أم حماط/ الكرك.

الهاتف الأرضي: 2335174.

الهاتف النّقال: 0788969967.

البريد الألكتروني: -